

الدكتور محمد خليفة

الاستشراق وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ

نقله إلى العربية المهندس
مروان عبد الصبور ساهين

راجعته وقدم له الأستاذ الدكتور
عبد الصبور ساهين

دار الأحياء
مصر



الاستشارة
والقرآن العظيم

هذه ترجمة كتاب

The Sublim Qur'an, and Orientalism

كتبه بالإنجليزية

الأستاذ الدكتور محمد خليفة

أستاذ الهندسة الكهربائية بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م

القاهرة

الدكتور محمد خليفة

الاستبصار وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ

راجعته وقدم له
الأستاذ الدكتور
عبد الصبور شاهين

نقله إلى العربية
المهندس
مروان عبد الصبور شاهين

دار الأحياء
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديري

بين يدي الكتاب

للأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين

هذا الكتاب (القرآن العظيم والاستشراق) جديد تماماً في عالم الدعوة إلى الإسلام ، فما أعرف له مثيلاً في الدراسات التي تناولت ظاهرة الاستشراق ، وتابعت أعمال المستشرقين ، وكثيراً ما نقرأ ، ونسمع ، ونتابع المؤتمرات التي تذكر آثار هؤلاء مدحاً ، وقدحاً ، وتوسعهم رداً ونقداً ، فلا نقف من ذلك كله على شيء محدد ، اللهم إلا بعض الملاحظات الجزئية التي تتصل بأن فلاناً من المستشرقين قال كذا ، أو أخطأ في كذا ، أو أصاب في كيت ، دون إحاطة بموضوع ، أو إلمام بقضية من خلال تفاصيلها الكثيرة ، اللهم إلا في حالات استثنائية ، ذلك أن أكثر ما نعرف من سقطات هؤلاء القوم قد سنع لبعض الباحثين خلال تجواله في عمل من أعمالهم ، وهي كثيرة ، وقد كان من المنطقي أن يعكف أهل الإسلام على ما يكتبه غيرهم من أتباع الديانات الأخرى ليروا ما فيه من الانحراف ، والتجنى ، والبعد عن الحق ، والإغراق في المغالطة ، والقصد إلى الباطل من خلال مناهجهم المغلوطة ، ولكن التقصير الذي شاب مواقفنا في هذه المرحلة أخفى عنا من أعمالهم الكثير ، واتسمت أحكامنا حيالهم بالتعميم الخاطيء ، والنقص المعيب ، والاختلاط في المفاهيم حتى حشرنا المحسن منهم مع المسيء في زمرة واحدة ، وجمعنا الصديق مع العدو في مواجهة واحدة ، مع أن بعض المستشرقين قد أفاد الدراسات الإسلامية بالكثير من حيث المنهج

والتطبيق ، ولا سيما في مجال الأدب واللغة والحديث الشريف ، وغير ذلك من المجالات ، ويكفى هنا أن نذكر الأعلام بروكلمان ، وفنسنك ، وجول لابوم ، وفلوجل .

ولا أحد ينكر أن ظاهرة الاستشراق قد اقترنت بظاهرة التبشير في نشاطهما الموجه لخدمة أهداف الحملة الاستعمارية المسعورة على الإسلام ، وبلاد الإسلام ؛ حتى إنهما كانتا أداتين من أدوات البغي الغربي على العالم الإسلامي بكل ما استخدم من مفسدين وجواسيس ، بل إن المستشرق كثيراً ما كان مبشراً ينطوى كبده على مرارة لعينة ضد الإسلام وحضارته وأمته . ولكن بعض المستشرقين كانوا - لوجه العدل والإنصاف - معتدلين ، وطلاب معرفة ، يحترمون ما يجدون من دلائل الحق ، وترفعون عن مضلات الهوى والغرض ، ويعلنون بكل شجاعة رأيهم الذي ينحاز للإسلام ، ويقرر تفوقه على سائر الأديان - على ما سيذكره مؤلف الكتاب - وهذا موقف في منتهى الشجاعة والنبيل ، لأنهم يتخذونه وهم في عقر دارهم ، دار الكفر ، فلم يداهنوا ، ولم يجاملوا ، ولم يخافوا ، بل قالوا الحق وهم يعلمون أن أقوالهم ربما لا تجدد في ديار الإسلام من يقرؤها ، فنحن المسلمين قد أصابنا وباء الأمية الثقافية بالكثير من اللامبالاة ، وتلك آفة تمكنت بكل أسف من شبابنا بخاصة ، ومن جيلنا بعامة .

من أجل هذا أؤكد في هذه الكلمة أن هذا الكتاب جديد .. جديد .. أتى تأمله قارئه ، فموضوعه مركز على مشكلة محددة هي : (موقف المستشرقين من القرآن العظيم) ، وهي مشكلة طالما سمعنا عن هوامشها ، دون أن نواجه حقائقها ، وللمبشرين فيها باع طويل ، حاولوا به أن ينالوا من جوهر القرآن وتاريخه ، تعفياً على آثار التحريف الذي تعرضت له كتبهم باعتراف مؤتمراتهم ، فصدق فيهم قول القائل : (رمتني بدائها وانسلت) ، فالقرآن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه، وأهل الكتاب يدركون تماماً فرق ما بين القرآن ، وكتبهم التي وضعتها أهواء البشر ، ودست فيها ما لا يمكن أن ينسب إلى الله .

وقد انطلق المؤلف في محاولته لجمع كل الآراء التي قيلت عن القرآن ، وكل النقدرات التي صاغها أعداؤه ، خلال القرون الماضية ، في مجال اللغة الإنجليزية ، واقتضاه ذلك أن يجمع الترجمان اللاتينية ، والإنجليزية وبدون ملاحظاته عليها ، ويسجل آراء أصحابها ، وكل ذلك في ترتيب منهجي ، ومعالجة منطقية علمية ، حتى إن القارئ ليشعر وهو يقرأ الكتاب أن عباراته شخوص تتحرك على صفحات القرون ، والنتيجة أن يحيط القارئ بثروة من المعلومات عن الأشخاص ، وعن آرائهم المنحرفة ، وعن نقد هذه الآراء من خلال عرض آراء بعض المنصفين منهم ، المتعاطفين مع الرؤية القرآنية ، ومن خلال الدراسة المتأنية ، والمناقشة الهادئة والمقنعة ، وإن كان الاقتصار على المراجع الإنجليزية قد حرم العمل من آراء المستشرقين الفرنسيين^(١) والألمان .

ومؤلف الكتاب : عالم من أكبر علمائنا الجامعيين ، ولكن الجديد في أمره أنه (كان) أستاذاً للهندسة الكهربائية في جامعة القاهرة !! ألا يذكرنا هذا بالمفكر الجزائري الراحل مالك بن نبي .، الذي كان أيضاً مهندساً كهربياً ، ثم تفرغ للفكر ، وكان من قوله رداً على سؤال له عن سر هذه النقلة : « عندما تخرجت في كلية الهندسة بباريس شعرت أن بلادي بحاجة إلى مهندس للأفكار أكثر من حاجتها إلى مهندس في الكهرباء فتفرغت لدراسة مشكلات الحياة الإسلامية .. ألا ما أشبه الليلة بالبارحة !! .

وقد عاش صاحبنا المؤلف ظروفاً شهد فيها حملات تتهجم على القرآن الكريم ، وعلى الدين الخاتم في أوساط الشباب الأوربي والأمريكي

(١) تعرضنا لنقد آراء المستشرقين الفرنسيين ، من أمثال رجس بلاشير في كتابنا (تاريخ القرآن) .

فتحركت في قلبه الغيرة ، وانصهرت نفسه بتلك المشاهد التي تجلى فيها أثر الاستشراق ، ودعاواه المفنّدة ، فلم يجد بداً ، وهو المتخصص في الكهرباء ، من أن يكعف على دراسة آثار المستشرقين ، ويناقد افتراءاتهم ، بكل ما أوتي من إيمان صادق ، كان هو الرصيد الذي يعتمد عليه في معركته الإسلامية ، وبكل ما أطاق من مناقشة بالحكمة والمنطق ، هما أمضى سلاح في وجه هؤلاء ، يقطع حجّتهم ، أمام أبناء جلدتهم ، وهم الهدف الأساسي لعملية التشويه الاستشراقي .

إن من المسلم قطعاً أن جيوش الاستشراق والتبشير لم تستطع - رغم تكثيف حملاتها خلال القرنين الماضيين - أن تحول مسلماً عن إسلامه ، ولكنها استطاعت أن تنشر غيوم الشك الإلحادي في أوساط الطلاب الشرقيين في الغرب ، كما استطاعت أن تجند لحسابها مجموعات من المرتزقة الآكلين على كل مائدة ، من أحلاس العلمانية ، وفي مقابل ذلك وجدنا موجة من التحول إلى اعتناق الإسلام تنتشر في كثير من بلدان أوروبا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، نتيجة قوة المنطق الإسلامي أمام تهافت الدعاوى التبشيرية ، وقد أصبح الشباب الغربي لا يؤمن بشيء مما يقوله الكهنة والأخبار ، وهو يمضي في طريقة حائراً بين اللادينية ، واعتناق الدين الحق (الإسلام) ، وهو موقف يفرع منه المسؤولون عن الكنيسة الغربية ، حتى صاروا يتحيلون الحيل لجذب الشباب إلى الكنائس عن طريق إقامة حفلات الرقص المختلط ، والسماح بممارسة العلاقات الشاذة بين الرجال ، وبين النساء ، في محاولة لاستخدام الجنس في الدعاية للدين ، هكذا أصيب المبشرون في بلادهم بهبوط في الدين إلى درجة الصفر ، أو إلى درجة الرقص ، وهكذا بدأت شمس الإسلام تعشى أبصارهم ، وتجذب من حولهم أنصارهم ، ولا أحد ينكر مستقبل الإسلام الواعد في أمريكا مثلاً ، على الرغم من كل الضغوط الصهيونية التي تمارس في هذا المجال .

بل إن الملاحظة الدقيقة تشي بأن موجة الاستشراق بدأت في الانحسار ، وتحولت بقاياها في الوقت نفسه إلى ممارسة التبشير السافر ، وإلى استخدام الأكاذيب الوقحة ، ومن أمثلتها ما كان يجرى على لسان القس سواجارت في محاوراته المشهورة مع الداعية الإسلامي أحمد ديدات ، ثم تكون النهاية الدرامية للحوار أن يضبط القس متلبساً بممارسة الفساد مع مجموعة من النساء ، ويسدل الستار على ملهأة أحد نجوم المبشرين العرايب .

وعودة إلى الكتاب الذي نقدمه اليوم لنقول : إنه من أهم الكتب التي تلزم الدعوة إلى الإسلام . فهو يزودهم بمعلومات غزيرة عن كل ما قيل عن القرآن ، في كتب الاستشراق ، ونحن نجد بكل أسف بعض عناصر الهيئة الجامعية ينقلون هذه الأكاذيب ، وينسبونها لأنفسهم ، ويدافعون عنها باعتبارها المنفذ الرائج للتهجم على الإسلام من منطلق علماني ، هؤلاء العلمانيون هم خلفاء المستشرقين في بلاد الإسلام ، فكل ماركسي مفلس ، وكل علماني أفاق - لم يعد يملك من الأفكار ما يدافع عنه ، بعد أن سقطت الماركسية ، وتعدت العلمانية ، وباعتبار أن كلا الاتجاهين (ردة) حقيقية عن الإسلام ، فلم يعد هؤلاء (المرتدون) يملكون ما يدعون إليه إلا التعرض للإسلام بالنقد والتجريح والتشكيك ، واللجوء إلى بعض الجدليات الساقطة للتخفي وراءها ، تمويهاً وحقداً ، وجبناً في نفس الوقت .

ومن المؤكد أن هؤلاء العلمانيين سوف يختفون عما قريب ، فلم يعد لهم مكان في المجتمع ، وهم الآن يقاتلون في يأس معركتهم الأخيرة ، وسوف ينتهون إلى الخسران بإذن الله .

من أجل هذا يتعين على كل الدعاة أن يدرسوا منابع الفكر العلماني في هذا الكتاب ، فكل شر على السنة العلمانيين له أصل في كتابات المستشرقين ، وكل تلميذ فاشل من هؤلاء العلمانيين له أستاذ

حاقد من أولئك المستشرقين ، ينزُّ صدره قيحاً ، ويفرز عقله هراء ،
ويصوغ خياله سمادير ، وكل ذلك يقدم للعلمانيين رصيدهم الفكرى
الذى لا يزيد عن كونه منظومة من القيح والهراء والسمادير .

إن مهمة الدعاة فى عصرنا ليست بالأمر السهل ، فهم يواجهون
فى الواقع نماذج من العقليات اللثيمة والمتحجرة فى آن ، يجدون ذلك
فى إهاب أستاذ جامعى ، أو كاتب صحفى ، أو شاذ غبى ، وثلاثتهم
تجمعهم خصلة واحدة هى بغض الإسلام ، والحقد على أتباعه ، وهذا
هو حق الإرهاب والتطرف وتحريك العنف ، ومطلوب من الدعاة أن
يعملوا على إزالة هذا الكم من (القمامة العلمانية) بالحكمة والموعظة
الحسنة ، وأن يستخدموا فى مهمتهم هذه ثقافتهم الواسعة ، ومرونتهم
الواعية ، وصبرهم على المجادلة بالتي هى أحسن ، وقوفاً فى وجه الإرهاب
العلمانى والماركسى .

إن أمر الدعوة - مرة أخرى - لم يعد سهلاً ، حيث كان الدعاة
السلف يهدون الناس بتحريك دوافع الخير ، والتعامل مع الفطر السليمة ،
أما الآن فإن للباطل فلسفات ، وأفكاراً معقدة ، واعتبارات تختلط فيها
العقيدة بالمنفعة ، وقد يكون من ندوه متخصصاً فى الجدل العقيم ،
متعمقاً فى الجهل المركب ، ومع ذلك نجده يحتل موقعاً مرموقاً ،
ومركزاً مؤثراً ، وكل ذلك يواجه الداعية المعاصر بعقبات كأداء ، يتعين
عليه أن يتغلب عليها ، أو أن يتجاوزها بمنطقه وذكائه وحرفيته ، وليس
أمامه إلا أن ينتصر فى هذا الحوار مهما تكن صعوباته ، وإلا فقد سجل
على نفسه الإخفاق فى مجال الدعوة المعاصرة .

ويبقى أمامنا فى هذه الكلمة أن نقول شيئاً عن مؤلف الكتاب ،
فقد بذل - رحمه الله - غاية جهده فى مناقشة ما طرحه من قضايا ،
وربما فاته الوجه الصحيح فى الاستدلال ، أو المعلومة الدقيقة اللازمة
لتفسير موضوع ما ، وهو أمر تلافيناه فى هذه الترجمة العزينة الأمانة

والمنقحة ، والتي ظفرت أيضاً بقراءة المؤلف قبل أن ينتقل إلى رحاب الله ،
أسبغ الله على جدته فيض رحمته ورضوانه .

وأما المترجم فهو ولدى المهندس مروان ، وقد كان تلميذاً للمؤلف
في كلية الهندسة ، بقسم الكهرباء ، وهو توافق عجيب بين المؤلف
والمترجم الذي أغرم بالكتاب ، وعكف على إنجاز ترجمته ، وتمرس
باستخدام مراجعه ، فجاء عمله بحمد الله أميناً في أدائه ، يستحق عليه
التهنئة من أبيه الذي عاش معه هذه التجربة الغنية. والموفقة ، كما يستحق
نفس التهنئة من السادة القراء .

دكتور / عبد الصبور شاهين

* * *

مقدمة المؤلف

دفعنى إلى وضع هذا الكتاب طموح نبيل هو الرغبة فى تزويد قراء الغرب بمقدمة ذات معنى عن القرآن ، إذ قد يقال : إن القرآن - وهو الكتاب المقدس لنحو تسعمائة مليون من مسلمى اليوم - معروف جداً لغير المسلمين ، وخاصة فى الغرب حيث يتوافر غذاء الفكر بغزارة من خلال ثروة الموارد المقروءة ، وبالتحديد لدى المتحدثين بالإنجليزية الذى تعودوا على حب القراءة ، وجبلوا على البحث عن معلومات تصف واقع المجتمعات الأخرى .

ولقد بات مألوفاً تداول كثير من المعلومات عن المسلمين بصفة عامة ، فى السنين الأخيرة ، نتيجة لاندفاع الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية من مختلف البلدان الإسلامية ، والتي تتطلب أحياناً مساحة أكبر من حقها المسموح به فى منشئات الصحف الغربية؛ وفى البث الإذاعى والتلفزيونى ، وعندما يطرح سؤال : « ماذا تعرف عن القرآن ؟ » ، يأتى رد القارئ الغربى المتوسط : « لا شىء أكثر من حقيقة أنه كتاب المسلمين المقدس » (وعادة ما يخطئ فى التسمية ويقول : المحمديين) ، وربما يغامر ويضيف حدساً بأن الكتاب مجموعة من أقوال محمد ﷺ ، كتلك الأقوال المنسوبة لكنفوشيوس ، ويشمل أيضاً تاريخ محمد ، كما يشمل إعادة صياغة الكتاب المقدس ، وكذلك الشريعة الإسلامية ، ولسوف يتضح فى هذا العمل مدى بعد هذا التخمين عن الحقيقة .

ولقد أتيح للمؤلف - خلال السنين التى كان يجرى فيها أبحاثاً فى أحد الفروع المتخصصة فى الهندسة الكهربائية - فرصة أن يشهد مناقشات حية مع الزملاء والأصدقاء الذين أمطروه بوابل من الأسئلة حول مختلف

الموضوعات في الإسلام ، وعن القرآن ، وعن مقارنة الأديان والأيدولوجيات ، ودارت هذه المناقشات خلال أوقات الراحة ، وكذلك خلال تجمعات تبرع بتنظيمها بعض الأعضاء المسؤولين في الكنيسة ، وفي المجتمعات المختلفة .

لقد وجدت - فيما عدا الاستثناءات الفردية - أن السمة المشتركة والسائدة كانت وجود سوء فهم جوهرى يتعلق بالإسلام وبالقرآن ، مع تطلع شديد لمعرفة الحقيقة من خلال مناقشات متفتحة هادئة ، وبدون تعصب ، وبدون قفز إلى الاستنتاجات .

فمن أجل فهم مشاعرهم تجاه الإسلام ، ومن أجل إدراك طريقة فهمهم للموضوع ، درس المؤلف كل كتاب متاح تم نشره للدراسين في الغرب ، وكتبهم عن الإسلام ، وعن القرآن ، وفي غضون العقدين الأخيرين ، محص المؤلف مجموعة ضخمة من المراجع لهدف هو أن يضع تحت الضوء صورة متكاملة لوجهات النظر الغربية عن الإسلام ، وبخاصة عن القرآن ، مع إضافة كل الظلال والتفاصيل الدقيقة إليها .

لقد كتبت في الغرب كتب كثيرة عن الإسلام ، لمؤلفين ذوى خلفيات مختلفة - منهم المسلمون والمسيحيون واليهود ، بل وحتى المعترفون بالإلحاد والماركسية - مما جعل المؤلف يشعر بأن كل الآراء حول الموضوع مسموح بها في الأدب الإنجليزي ، فدور النشر والطباعة تخرج دائماً كتباً جديدة عن الإسلام كما يرى من مختلف الزوايا ، وذلك لاستثارة اهتمام القراء الذين يريدون أن يعرفوا قدرأ أكبر عن الخلفيات الدينية ، والاقتصادية ، والسياسية ، لأولئك الذين يملكون مصادر الذهب الأسود ، في تلك المناطق المضطربة دائماً في الشرق الأوسط .

فهذا العمل ليس معداً بأى حال من الأحوال ليزاحم الكتب التى

لها نفس الاهتمام حول الموضوع ، كما أنه ليس الهدف منه أن يكون دراسة محكمة للإسلام ، ديناً أو أسلوب حياة ، إنما هو أولاً وقبل كل شيء يركز على (القرآن) ، إذ يبدو واضحاً أن هناك فارقاً كبيراً بين مقالة حول (القرآن) بشكل خاص ، وبين بحث شامل حول موضوع (الإسلام) ، فمع أن القرآن ربما يوصف بإيجاز في مقالة حول الإسلام ، وربما تذكر بضع آيات منه ، ويأتي تلخيص للفصول التي تتعرض لمحمد ﷺ ، وللمسلمين ككل ، ولكن لن يكون هناك مجال لغير ذلك ، عندما يكون الموضوع الرئيسي الذي يطرح للمناقشة هو الشريعة ، أو تاريخ فترة معينة ، أو أسرة حاكمة بعينها ، أو حياة مجتمع معاصر أو قديم ، أو شيء من هذا القبيل . بيد أن تناول القرآن - باعتباره الأساس الموحى للإيمان ، وما يقدم من منهاج للحياة لا بد أن يكون مختلفاً .

أما عن الإنتاج الأدبي الضخم المكتوب بالإنجليزية حول هذا الموضوع ، فإن المرء يرى هذه الأعمال على صنفين رئيسين : فهي إما ترجمات للقرآن ، وإما مؤلفات وضعها دارسون مستشرقون اجتهدوا في ناحية أو في أخرى ، فأما عن الترجمات ، فإن المؤلف يعتبرها موجهة إلى القراء الذين تعودوا قراءة الكتاب ، وألما بخلفياته التاريخية والدينية والأدبية ، في حين تخصص المؤلفات الأخرى بالتعامل مع الأسلوب القرآني ، وتفسيره وعقيدته ، وغالباً ما تكون مقدمة من أحد الدارسين إلى دوائر محددة في الدراسات الشرقية والإسلامية ، يريهم كيف ، ولماذا جاءت وجهات نظره مؤيدة لما جاء به الباحثون الأوائل عن نفس الموضوع .

وقد تركزت إحدى النقاط الدقيقة حول أصول التفسير القرآني ، وهل هي تشريعية أو أسطورية ؟ أو أنها لا علاقة لها بهما ؟ .

ومن الواضح أن هناك حاجة ماسة إلى رؤية شاملة لكل ما يتعلق بالقرآن وحده ، على أن تكون مختصرة ، لتسهل قراءتها على غير

المتخصصين ، وتجيّب عن الأسئلة الرئيسة التي تتردد في نفس القارئ الغربي عن القرآن ، دون أن تكون مقصورة على فئة قليلة تفهمها .

ونسأل ؛ هل يمكن أن يقارن القرآن بالكتاب المقدس - سواء في مجموعة أو في جزء معين منه كالأنجيل الأربعة ؟ هل يقارن بالعهد القديم أو العهد الجديد ؟ وإن كان كذلك ، فبأي صورة تتم المقارنة ؟ وهل يوجد عديد من النسخ العربية للقرآن ؟ إن كان كذلك ، فكم عددها ؟ وما مفهوم القرآن عن الإله ؟ وماذا يقول عن يسوع المسيح ؟ هل تعرض مرة للأنبياء الكتائبين ؟ وإن كان كذلك ، فكيف يحكى قصة حياتهم ؟

إن كتب القدماء التي اعتبرتها بعض المجتمعات الشرقية مقدسة تعرف بأنها قد وضعها بعض الأنصار لفكرة دينية ، أو لتوجه فلسفي صادق ، وهؤلاء ربما عاشوا في قرون متباعدة ، وقد حدث أن تنوالت هذه الكتب وأمثالها بالتعديل والتهذيب حتى انتهت إلى الأشكال التي نعهدها الآن ، فكيف إذن يتسنى للقرآن أن يقارن بهذه الكتب - حتى ولو وجدت نقطة يمكن أن تتم المقارنة من خلالها ؟

ولقد يبدو العالم في حقبة العشرين سنة الأخيرة وكأنه ينكمش بصورة مفاجئة على النقيض مما كان عليه في بدايات القرن ، فالمسافات التي كانت تقطع في أسابيع بالبحر ، أصبح في الإمكان قطعها في ساعات على متن الطائرات فوق الصوتية ، كما أن الأحداث التي تحدث في مكان ما بقارات أخرى ، أو حتى على كواكب أخرى ، أصبح من الممكن مشاهدتها في التلفزيون عبر شبكات الأقمار الصناعية ، وكما تحدث بالضبط ، وبصورة مشابهة ؛ تجيء روابط الاعتماد المتبادل بين دول الغرب الصناعية والدول المسلمة ، حيث عمل البترول المتفجر على زيادة الدخل زيادة ضخمة ، مقرونة بالرغبة الملحة في التقدم ، والطموح الشديد إلى التحضر ، جاءت روابط الاعتماد المتبادل لتقرب بين هذه

البلدان بصورة أكبر ، ومن ثمّ ؛ صار القارئ العادى فى المملكة المتحدة وفى أمريكا الشمالية أخيراً أكثر حذراً من الإسلام ، ولكن تضاعف اهتمامه بمعرفة كل شىء عن أتباعه ، وعن كيفية التعامل معهم ، وماذا يتوقعه منهم ؟

إن السلوك الفردى والاجتماعى للمسلمين - رجالاً ونساءً ومجتمعات ، ممن يعيشون فى الغرب ، وقد استطاع أن يكون مختلفاً عن الصورة التى تصورها الأفلام ، أو تتخيلها الروايات ، وأحياناً تسطرها المراجع المغرضة ، وهنا يرد سؤالان : هل يوجد أساس دينى لتصرف الناس ؟ وكيف تستجيب أساليب حياتهم بصدق مع هذا الأساس ؟ أو هل يوجد اختلاف بين الإسلام المتمثل فى تصرف الناس ، وبين قواعد السلوك الموجودة فى القرآن ، والشاملة لكافة نواحي الحياة ؟ وعلى سبيل المثال ؛ ماذا لدى القرآن ليقول فى موضوع الأخلاق ؟ هل يعاقب العنف الذى يبيده بعض الأشخاص أو الجماعات ؟ وما الوضع الذى أقره للنساء فى المجتمع ؟ وإذا قامت بعض البلدان بتغيير قوانينها المدنية وعاداتها الاجتماعية لتوافق القرآن أو الشريعة ؛ فما الذى يجب على الإنسان أن يتوقع ؟ وهل سيكون هذا تغييراً إلى أحسن أو إلى أسوأ ؟

ومن المؤكد ؛ أن الطريقة المثلى للإجابة عن كل هذه الأسئلة لا تكون إلا بدراسة القرآن فى صورته العربية الأصلية ، تلك الصورة التى لم يحدث فيها أى تغيير منذ نزولها من أربعة عشر قرناً من الزمان . ولكن لننظر الآن ؛ كم عدد من يعرفون العربية فى الغرب ، ويعرفونها بالقدر الملائم للقيام بهذا المشروع ؟ إن الغالبية العظمى من المهتمين بالقرآن ، مهما كانت مجالات تخصصهم ، بل وحتى أولئك الذين يدرسون الإسلام والعلوم الشرقية غير العربية الفصحى - كل هؤلاء اعتادوا أن يقرأوا القرآن من خلال الترجمة ، ويجب أن نشير هنا إلى أن العربية الفصحى التى نعنيها هى اللغة النقية قبل اختلاطها بكم التعبيرات العامية

التي نبتت كالأعشاب الضارة في كل بلد عربي ، ولقد يتردد المؤلف في إضافة أنه برغم الأعداد الهائلة من التعبيرات والتراكيب الدارجة التي دخلت إلى العربية عبر الأجيال ، فإن اللغة الفصحى في القرآن ظلت ناصعة شفافة للأذن وللعقل وللقلب ، لدى كل عربي بالميلاد ، بغض النظر عن مستوى تحصيله العلمي أو جنسيته أو مهنته أو خلفيته الثقافية .

والشيء المفضل لدى القارئ الإنجليزي المتوسط أن يأخذ واحدة من الترجمات العديدة المتاحة ، فغالبية هذه الترجمات مقتضبة ومصحوبة بملاحظات توضيحية ضرورية لتثبيت الترجمات الحرفية وتقويتها ، ولا شك أن هذه الطريقة قد تخون الأصل وتجور عليه ، ومن ثم فهي تجور على القرآن ، ذلك أن الثروة الضخمة من المعاني التي تحملها أية كلمة عربية تتحول إلى ظل شاحب ضيق المعنى ؛ يرمز إليه بالكلمة الإنجليزية المقابلة التي ينتخبها المترجم ، وعلى ذلك لا يمكن للصورة الناتجة أن تعطي شيئاً من الانطباعات الظاهرة للعيان ، والناجمة عن الأفكار غير العادية ، والغنية التي توصل إليها المفسرون ، والمشاعر الروحية المعبر عنها في الأصل العربي ، ولقد تصبح المعاني أكثر هزالاً عندما توضع الترجمة الإنجليزية مروراً بالترجمة الفرنسية أو اللاتينية ، وتوجد ترجمات كثيرة من هذا النوع في الغرب ، لذلك ؛ نتساءل : ماذا ينبغي على القارئ العادي أن يفعل إذا أراد وجهة نظر معقولة ومنتزعة عن الإسلام كما يمثله القرآن ؟ إن المستشرقين لا بد أن يندفعوا إلى المقدمة مع كل متخصص إسلامي يقدم آراءه الشخصية ، كما لا ينبغي أن يستثنى من هذه المجموعة أولئك الماركسيون الذين لديهم تخصص في الدراسة الإسلامية ، إذ كيف يمكنهم أن يقدروا موضوع أي دين حق قدره إذا كان مبدؤهم يرتكز على مقولة : « أن الدين هو أفيون الشعوب » ؟ إنهم ربما يتغاضون عن حقيقة أن كثيراً من مفكريهم لا يقبلون التراجع عن مبدئهم ، فيبحثون عن بديل للدين حتى لو كان

ذلك يعنى ممارسته سراً ، لذلك فعندما يكتب أمثال أولئك الملحددين موضوعات دينية لا يمكنهم مطلقاً أن يفهموا الموضوع بصدق ؛ فهم إما منافقون ، أو يعانون من انفصام فى الشخصية .

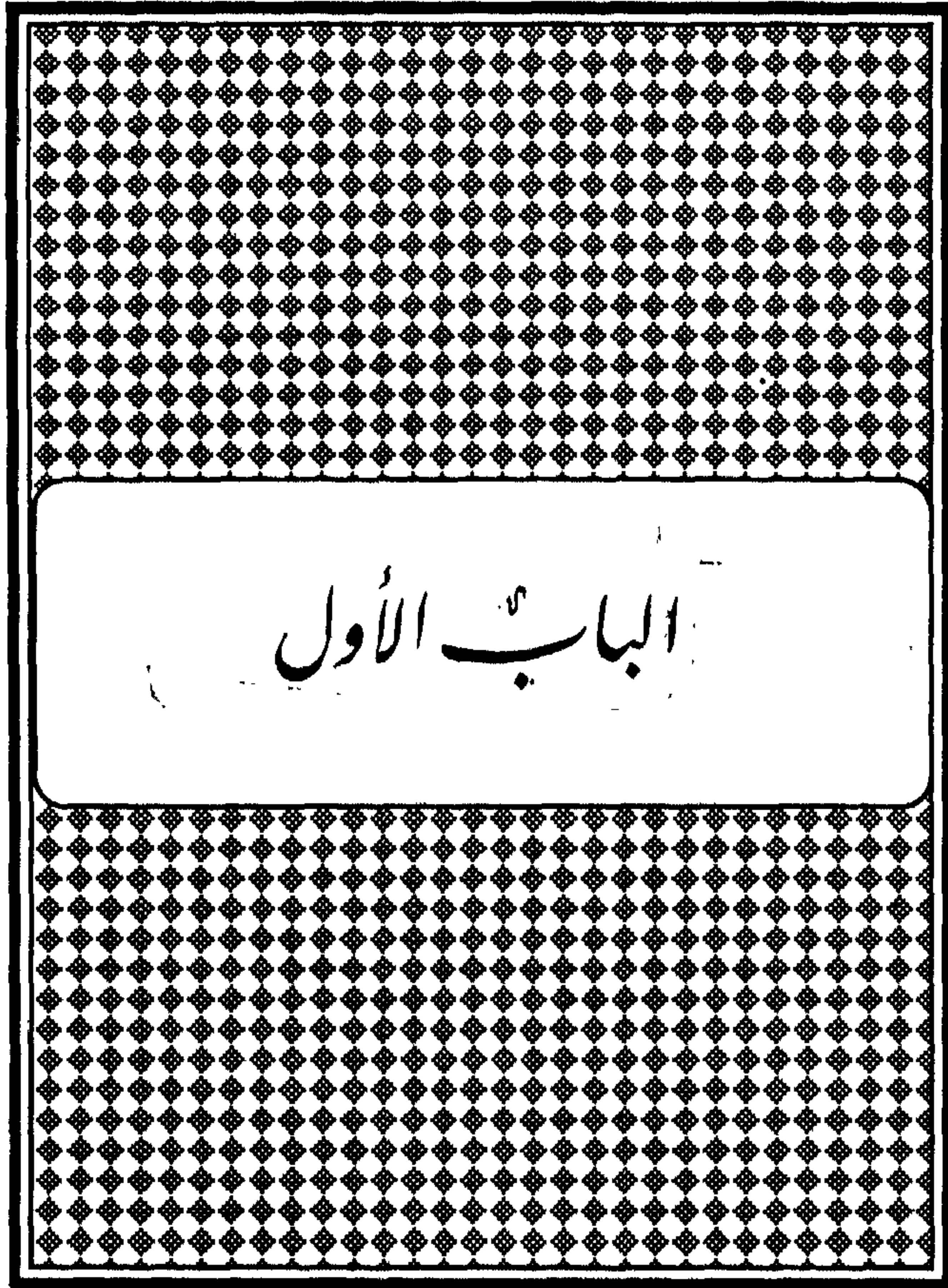
ولقد يبدو ذا قيمة للقارئ العادى ؛ بجانب قراءته لترجمة جيدة للقرآن ، أن يتناول عدداً من أبرز التعليقات حوله ، والتي وضعتها مجاميع المستشرقين ذوى الخلفيات المختلفة ، القديم منهم والحديث ، فمنهم من تخصص فى العربية ، ومنهم من لم يتخصص ، أو لنقل : منهم الذين درسوا بالفعل النص الأصيل ، ومنهم من اعتمد كلية على الترجمة وعلى أفكار مستهلكة ثبت بطلانها .

ولسوف يصحب هذه المهمة صعوبات لا تقهر ، ولن يقوم بها إلا الدارسون المستعدون لقضاء سنوات من الدراسة الجادة المكثفة ، والذين يهدفون إلى بعض الدراسات العليا فى الإسلاميات ، ولكن القارئ العادى لا يمكنه بذل الوقت ولا الجهد ، وربما يكتفى بنظرة سريعة على أبرز التعليقات والنظريات والانتقادات التى أطلقتها جموع المستشرقين ، والتي تشمل أولئك المعروفين جيداً حديثاً ، فضلاً عن الذين اشتهروا فى القرون الوسطى .

لقد وضع المؤلف هذا البحث الطبوغرافى فى غضون العشر السنين الأخيرة أو تزيد ، وهو يتمثل فى الفصول الآتية ، فقد كتبت مئات الكتب بالإنجليزية منذ بدايات القرن ؛ هذا غير ما كتب فى القرون الوسطى ، فكانت الفصول لتجميع التعليقات حول القرآن وتلخيصها وتحليلها ، وقد أبرزت مدى هائلاً من الآراء التى توضح وجهتى النظر المتباعدتين ، فأحدهما تصف القرآن بأنه : « مضجر ومشوش ومثير للخلط » وتصف الأخرى نفس الكتاب بأنه : « السيمفونية التى لا تضاهى . والتي تحرك مسامعها الرجال ، وتجعلهم يذرفون الدمع ويخشعون » .

لقد تم وضع وجهات نظر المستشرقين تحت عناوين مختلفة ، وتم كذلك تصنيفها إلى مجموعتين رئيسيتين : واحدة للتعليقات العامة والأخرى للتركيز على موضوعات معينة ، ويعطينا الجزء الأول من هذا العمل تعليقات عامة حول أسماء القرآن ، وخلق أسلوبه ، ومادته العلمية والترتيب التنزيلي لسوره ومقارنته بترتيبها في المصحف ، ونماذج الأخطاء في ترجمات إنجليزية معينة ، وكذلك حول المفاهيم الخاطئة المنتشرة ، ونماذج سوء الفهم كما خصص الجزء الثاني للتوسع في بعض الأبواب كالمفهوم القرآني عن الإله ، وعن الإسلام ، وعن قانون القرآن الأخلاقي ، وعن وضع المرأة ، و ثم استعراض وجهات نظره عن تعدد الزوجات والطلاق والجهاد والرق وبعض المفاهيم عن العالم الميتافيزيقي ، وكذلك عن القضاء والقدر وحرية الإرادة .

يستخدم الكتاب الوصف العام (مستشرق) (Orientalist) ليعنى الدراسين المتخصصين في الدراسات الإسلامية ، والذين يكتبون عن الموضوعات الإسلامية ، ونحن نرى أنها لفظة مريحة أكثر منها وصفاً دقيقاً ، وسوف نذكر أيضاً كثيراً من آيات القرآن ، كما أننا سنستخدم أعمال كل من « أربري Arberry » و« بيكثال Pickthall » و« علي Ali » و« خان Khan » و« سيل Sale » بحرية ، وأحياناً مع بعض التعديلات التي يقوم بها المؤلف مستهدفاً منها التوضيح ، وعادة ما نفضل كذلك الإنجليزية الحديثة عن تلك المهجورة من أجل النقاء والشفافية ، فعلى حين نرى أولئك الذين يعتبرون « نسخة الملك جيمس للكتاب المقدس » (English King James Bible) أحسن من نظيراتها من الترجمات الحديثة ، فإن كثيراً من الإنجليز يظهرون ميلهم للإنجليزية القديمة لجمالها الأخاذ لدى ترجمة القرآن بها ، فعلى سبيل المثال : لنقارن "behold" بـ "Look" وتعنيان (أنظر) ، ولنقارن "thou" بـ "you" وتعنيان (أنت) ، ولنقارن "unto" بـ "to" وتعنيان (إلى) .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَالَّذِي جَعَلَ مِنَ
النَّارِ سَمُوكًا
وَالَّذِي جَعَلَ
الْجِبَالَ كَالْعِبَادِ
الْقَائِمِينَ
وَالَّذِي جَعَلَ
الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِسَانِ
فَالْبَحْرُ الْأَخْضَرُ
يَلْتَمِسُ الْأَخْضَرَ
وَالَّذِي جَعَلَ
النَّجْدَ وَالْحِجَازَ
وَالشَّامَ وَالْعِجَازَ
وَالَّذِي جَعَلَ
الْعَرَبَ وَالرُّومَ
وَالَّذِي جَعَلَ
الْمَدِينَةَ الْحَرَامَ
وَالَّذِي جَعَلَ
الْمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ
وَالَّذِي جَعَلَ
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
وَالَّذِي جَعَلَ
الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى
وَالَّذِي جَعَلَ
الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى
وَالَّذِي جَعَلَ
الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى

تهذيب

القرآن وأسمائه

لكل دين من الأديان الكبرى للبشرية كتابه المقدس ، إلا أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يفخر بحق علي جميع الأديان بأن كتابه المقدس هو ذلك الكتاب الوحيد الذى بقى ثابتاً دون أى تحريف أو تبديل على الإطلاق ، منذ أن أوحى وسجّل لأربعة عشر قرناً مضت .

لقد أوحى القرآن إلى النبي محمد ﷺ فى غضون ثلاثة وعشرين عاماً ، مبتدأ فى مكة ، ومختتماً فى المدينة ، وهو يتكون من مائة وأربع عشرة (سورة) شاملة حوالى ثمانين ألفاً من الكلمات .

وكلمة « إسلام » تعنى الإذعان والطاعة للإرادة والمشئئة الإلهية ، ويرتكز الدين الإسلامى على القرآن الذى تشمل تعاليمه نواحي الحياة الإنسانية فى الدنيا ، وفى الآخرة ، لذلك فالإسلام هو منهج حياة أكثر منه مجرد اعتقاد وطقوس ، كما أن فى القرآن إخباراً عن ديانات سابقة للإسلام كاليهودية والمسيحية ، بل وإخباراً عن أنبياء جاء ذكرهم فى العهدين القديم والجديد .

هذا تعريف موجز للغاية عن القرآن . وسوف نتناول فى فصول هذا الكتاب شرحاً للعديد من جوانبه ، كما نناقش أقوال المستشرقين عنها ، سواء منهم من كان فى العصور الوسطى أو عصرنا الحاضر .

هذا ويعرف قاموس أكسفورد^(١) (Oxford) القرآن على أنه الكتاب المقدس للمحمديين^(٢) (Mohammedons) الذى يحوى مجموعة

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (The Concise Oxford Dictionary)

(٢) يرفض المسلمون بجميع فئاتهم وصف (المحمديين) كوصف لتجمعهم الدينى لأنه

الأقوال الشفهية للوحي المحمّدي المكتوبة بالعربية ، وسيتم في الفصل القادم مناقشة: هل القرآن (وحي محمّدي) أو هو (وحي إلهي إلى محمد ﷺ) ، وكذلك جاء في الموسوعة البريطانية (Encyclopedia Britannica) وصف للقرآن كما يلي : « هو الكتاب المقدس للإسلام - ذلك الدين الذي يعتنقه أكثر من ألف مليون من المحمّديين ، وهم يعتبرونه كلام الله حقيقة . ولما كان استخدام القرآن في العبادة وفي المدارس وغيرها يتم بدرجة أكثر كثيراً من استعمال الكتاب المقدس في كثير من البلدان المسيحية مثلاً ، لذا وجب علينا وصفه بحق بأنه أكثر الكتب قراءة في الوجود ، وهذه الحقيقة وحدها كافية لإعطائه مزيداً من اهتمامنا وتقديسنا سواء كان هذا يلائم ميولنا ووجهات نظرنا الدينية والفلسفية أم لا » (١) .

واللغة التي نزل بها الوحي هي اللغة العربية، وكلمة قرآن (Qur'ân) تعنى أنه يقرأ ويتلى كثيراً ، وجذر هذه الكلمة هو (ق ر أ) وهي تشمل معنى القراءة أو التلاوة (٢) ، لذلك فإن اسم (قرآن) يدل على نوع خاص من القراءة والتلاوة ، كما ذكر الكتاب نفسه في سورة القيامة : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَلِمْ لَهُ ﴾ [آية ١٨] (٣) والخطاب هنا لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ونلاحظ أن أول ما نزل من الوحي كان من سورة العلق : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [آية ١] ، ومن ثم فإن الدلالة اللفظية للقرآن هي « ذلك الكتاب الذي يقرأ دائماً » ، ولا يطلق هذا الاسم إلا على كتاب المسلمين المقدس .

= يتصور خطأ أنهم يعبدون محمداً ﷺ بدلاً من عبادة الإله الواحد ، مع العلم بأنهم ولا شك يحبون محمداً ويشعرون بأنهم مدينون له بالكثير ، لذا فهم يصلون ويسلمون عليه دائماً .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت The New Encyclopedia Britannica .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) وفي المرجع انظر ص ٨٣ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry) كتاب « ترجمة القرآن » .

ولو نظرنا إلى صناعة الأدب قبيل نزول القرآن وفي صدر الإسلام -
لوجدنا أن أقدم منتج أدبي هو هذا الكتاب المقدس ، والقرآن بذاته ينسب
لنفسه ذلك ، كما يفعل في كثير من الأحيان ، ومن ذلك قوله تعالى :
﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون
الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ [الإسراء : آية ٩]

ومن هذا يتضح أن الله سبحانه وتعالى - مصدر الوحي - هو الذى
أطلق على القرآن اسمه .

وللقرآن أسماء عديدة ، ونادراً ما يذكر في اللغة العربية من غير
إضافة وصف له ، فهو مثلاً - (القرآن الكريم) و (القرآن الحكيم)
و (القرآن المجيد) و (القرآن العظيم) ، وهو كذلك (القرآن ذى الذكر)
وتعنى القرآن المحتوى على عظات وتذكير لبنى الإنسان ، والتي ترجمها
(سيل) (Sale)^(١) فزادها غموضاً بأنه الممتلىء باللوم والعتاب ، فى
حين رآها (رودويل) (Rodwell)^(٢) على أنها الملئ بالتحذير والموعظة .

ونلاحظ أن كلا من هذه الترجمات لا تقدم إلا بصيصاً من الضوء
فى الفيض الغامر الذى يعنيه الأصل العربى ، مما حدا بالمستشرق
(كريتزيك) (Kritzcek)^(٣) إلى القول بأنه : « لا تستطيع أية ترجمة إلا
نقل أقل القليل مما يحرك قلوب الرجال ، ويجعلهم يذرفون الدمع عند
إنصاتهم للقرآن » .

ومع أن هناك بعضاً من المسلمين غير المتحدثين بالعربية يصفون
الكتاب على أنه (القرآن المقدس) (Holy Qur'ân) إلا أننا لسنا
بحاجة فى العربية إلى استعمال كلمة (مقدس) ، لظهور قدسية الكتاب
لدرجة لا نحتاج معها إلى إفصاح .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Kritzcek) وفى المرجع انظر ص ٨٣ .

ويطلق أحياناً على القرآن أنه (كتاب الله) أو (كلام الله) أو هو (نور وكتاب مبين) ، وقد ترجم (محمد علي)^(١) الاسم الأخير إلى النور والكتاب الواضح (Light and clear Book) وترجمها (أربرى) (Arberry)^(٢) إلى النور والكتاب الجلي (Light and Manifest book) .

وهناك أسماء أخرى ذات منزلة ومكانة ، فهو (الذكر الحكيم) ، وهو (ذكر مبارك) ، وهو (ذكر للعالمين) ، وهو كذلك (الصراط المستقيم) .

ولا جدال في أنه من الممتع أن نذكر الترجمات المختلفة لاسم آخر من أسماء القرآن ، وهو (الفرقان) ، فقد ترجمه (أربرى) (Arberry) على أنه الخلاص (The Salvation) ، وترجمه (محمد علي) على أنه الفيصل (The Discriminator) ، على حين ترجمه (بيكتال) (Pickthall)^(٣) إلى المعيار والميزان للحق والباطل (The Criterion for Right and Wrong) ، وترجمه (سيل) (Sale) على أنه التفرقة بين الخير والشر (The Distinction between Good and Evil) وترجمه (روديل) (Rodwell)^(٤) إلى المنير المضيء (Illuminator) ، ولقد عدّد أحد الدارسين العرب^(٥) ممن لهم باع في هذا المجال أسماء القرآن فوجدها لا تقل عن خمسة وخمسين اسماً وعنواناً .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Ali, M.) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Pickthall) (ترجمة القرآن) .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) (ترجمة القرآن) .

(٥) انظر السيوطي في كتاب الإتيان في علوم القرآن ج ١ ص ١٧٨ : أن الله سمي القرآن خمسة وخمسين اسماً وهي : كتاب مبين وقرآن مبين وكلام ونور وهدى ورحمة وفرقان وشفاء وموعظة وذكر مبارك وعلى وحكمة وحكيم ومصداق ومهيمن وحبل الله وصراط مستقيم وقيم وقول ونباً عظيماً وأحسن الحديث ومتشابه ومثاني وتنزيل وروح وعربي وبصائر وبيان وعلم وحق وهدى وعجب وتذكرة والعروة الوثقى وصدق وعدل وأمر ومنادى وبشرى ومجيد وزبور وبشير نذير وبلاغ وقصص ، وسماه أربعة أسماء في آيتين وهما : « في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة » . (المترجم) .

ولقد وصفه النبي محمد ﷺ في حديث له (١)، إذ أسند الحارث عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه وأخرجه الترمذى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيج به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشعب منه العلماء ، ولا يملّه الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجبا ﴾ ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، خذها إليك يا أعور » (٢) .

والمصحف هو أى نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بالعربية ، فهى تعبر عن مجموعة الصحائف ، وقد استعمل هذا الاسم لأول مرة بعد حوالي ثلاثة عقود من وفاة الرسول ﷺ ، عندما جمع القرآن فى كتاب واحد فكان فى تلك الأيام المبكرة هو الكتاب الوحيد المعروف لأمة العرب التى كانت أمية فى غالبيتها .

وقد افترض بعض المستشرقين أن كلمة (قرآن) ليست بعربية ، وأنها قد اشتقت من كلمة سريانية وتعنى (الدرس المقدس) ، ولكن مثل هذا الافتراض البعيد قد يبدو وقعه ضعيفاً عند مقارنته بالاستنتاج الدقيق القاطع بأن الكلمة فى الواقع عربية اشتقت من نفس الجذر (ق ر أ) ، وهو استنتاج تؤيده ملاحظة القرآن نفسه فى الآية : ﴿ وقرآنا فرقناه

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤ .

(٢) الأعور مقصود به لقب الحارث بن عبد الله المذكور فى سند هذا الحديث (المترجم)

لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴿ [الإسراء آية: ١٠٦]

وللغة العربية في الحقيقة جذور عميقة تمتد في أعماق التاريخ ، كما أنها لم تخضع مطلقاً عبر الأجيال لمتغيرات مؤثرة كتلك اللغات الأخرى ، ولا ريب في أن القرآن نفسه عامل رائع لثبات هذه اللغة ، فمنذ تنزيله والمسلمون من كل جنس ولسان حرصوا دوماً على تعلم لغته المهيبة حباً لله وللرسالة . وقد يبدو الفارق بين لغة القرآن العربية واللغة العربية المستخدمة الآن وذلك بعد مرور أربعة عشر قرناً ضئيلاً جداً ، إذا ما قورن مثلاً بالفارق بين الإنجليزية المتداولة في وقت شكسبير (Shakespeare) وإنجليزية أيامنا هذه ، فالأولى لا يكاد الإنجليز يفهمونها في هذه الأيام .

كما أن نوعية اللغة العربية النقية الموجودة في القرآن ساعدتها على أن تكون المرجع والأساس عند التعرض لدراسة اللغات السامية الأخرى كالسريانية والآرامية والعبرية ، والتي خضعت كلها لمتغيرات عنيفة وقاسية ، وبالفعل ، لقد أعلن كل من أرنولد (Arnold) وجاليوم (Guillaume) أن الكلمات والمصطلحات العبرية التي فقدت مذاقها اللغوي في غمار التعقيدات الموجودة بالمعتقدات اليهودية ، « يمكن لها أن تحصل على شرح مقنع ومباشر من المصادر العربية المشتركة معها في نفس الجذر »^(١) .

* * *

(١) انظر المراجع الأجنبية تحت (Arnold, T. and Guillaume, R.) .

الفصل الأول

مصدر القرآن

وهذه أكثر النقاط خلافاً حول القرآن ، فمن ناحية يعتقد المسلمون اعتقاداً جازماً بأنه من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو كلامه سبحانه ، كلمة بكلمة ، بل حتى حرفاً بحرف ، وما هو إلا وحى إلهى نزل به الملك جبريل عليه السلام على قلب النبي محمد ﷺ ، وعلى مراحل ، وأن النبي كان بمجرد تنزيله وانتهاء وحيه يتبع قرآنه ، ويعيده بدوره ، ويردده كاملاً لصحابته الجالسين حوله ، بل ويمليه على كتبه - كتبه الوحي - الذين كانوا يكتبونه غير منقوص ، ثم يقرأونه عليه صلى الله عليه وسلم .

فى حين أنه من الناحية الأخرى ، يكاد يستحيل على غير المسلمين تقبل فكرة وجود أى كتاب يوصف بأنه من عند الله مباشرة ، وذلك لأن كل الكتب المقدسة لديهم وضعها أناس كانوا بلا شك ورعين ومتمتعين بسمو روحى عظيم ، ولكنهم بالرغم من ذلك كانوا بشراً من البشر ، وهو أمر ينطبق على العهدين القديم والجديد ، كما ينطبق على كتب الأديان الأخرى .

مصدر الأناجيل :

من المعلوم بالضرورة لعلماء الدين المسيحى أنه فى أثناء القرنين الأول والثانى كتبت أناجيل كثيرة قارب عددها المائة ، وكان منها إنجيل أندرو (Andrew) وإنجيل بطرس (Peter) وإنجيل توماس (Thomes) وإنجيل أبيليز (Apelles) وإنجيل بارثولوميو (Bartholomew) وإنجيل برنابا (Barnabas) .

واستمر الوضع كذلك حتى أواخر القرن الرابع سنة (٣٩٣ - ٣٩٧) حين عقد محفل هيبورجيز (Hippo Regius) ومحفل كاترج (Cothrege) واتفق أقطاب الدين فى النهاية على الاقتصار على الأناجيل الأربعة لمرقس ولوقا ويوحنا ومتى (Mark, Luke, John and Matthew) وإضفاء الصفة الملزمة (Canonic Literature) على كل منها مع حرق باقى الأناجيل واعتبارها خارجة على الدين (Apocryphal) (١) .

ووفقاً لتعاليم الدين المسيحى (٢) ، « يتبع كل من الأناجيل الأربعة والتي اختطتها يد إنسانية ، أسلوباً وأفكاراً خاصة به ، وكذلك طريقة مميزة فى تأريخ الأحداث ، وقد تم - كما يقال - بتوجيه من الروح القدس » ، ومن ثم فإن تفسير أية تناقضات أو تعارضات بين الأناجيل يتم من خلال نظرية (التلون بالوسيط) (Colouring by the medium) وهى القائلة بأن الزجاج ينفذ الضوء ويعطيه لونه هو . وقد وضع هذه النظرية علماء اللاهوت المسيحيون (٣) ، ولا شك فى أن نظرية كهذه غير معروفة على الإطلاق عند المسلمين ، فلا حاجة بهم إليها مع القرآن ، كما أننا إذا نظرنا أبعد من ذلك ، فإن الأناجيل لا وجود لها إلا فى الترجمات ، أما الأصول فقد فقدت منذ زمن بعيد ، وهو ما أثر كثيراً على الديانة المسيحية .

أصل الأسفار الخمسة :

يعد العهد القديم من نتاج كتابات اليهود ، وذلك على امتداد الفترة المؤرخة من سنة ألف تقريباً قبل الميلاد .

وقد كتب أنبياء المملكة الثانية (يهوذا) (٤) كتابات تضمنت نصوص

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bucaille) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Von Grunebaum) وفى المرجع انظر ص ٩٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Margoliouth) كتاب (المحمدية) ص ٦٣ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Caiger) .

(يهوه) (Yahvist text) ، وهى التوراة وذلك فى القرن العاشر قبل الميلاد ، فكانت العمود الفقري لصحائف موسى الخمسة ، وبعد قرنين من الزمان أضيفت نصوص النبي (إيليا) (Elohists) والتي تمثل عقيدة مملكة الشمال ، وكونت هذه الإضافة مع السابقة كتاباً واحداً عرف باسم التوراة (Torah) ، وتمت إضافة (سفر تثنية الاشتراع) (Deuteronomy) فى نفس الوقت تقريباً ، وبعد ذلك وفى القرن السادس قبل الميلاد وبعد موت النبي (حزقيال) (Ezekiel) كتب حواريه وأتباعه نصوصه وتعاليمه ، وكتبوا كذلك الجزء الثالث من (سفر التكوين) (Genesis) ، وهو الجزء الكهنوتي (Sacerdotal) الذى أدخل فى نسج نصوص (يهوه) (Yahwah) ونصوص (إيليا) (Elohists) المكتوبة .

وبإلقاء نظرة على بقية الكتب فى العهد القديم ، فإننا نرى أن هناك (سفر الأمثال) (Proverbs) وقد وضع حوالى سنة (٤٨٠) قبل الميلاد ، وأيضاً (سفر أيوب) (Job) والذى كتب فى سنة (٤٥٠) قبل الميلاد ، و(سفر الجامعة) (Ecclesiastes) أو (كوهيليث) (Koheleth) ويرجع تاريخه إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، تماماً مثل سفر (نشيد الإنشاد) (Song of Solomon) ، ومن ردود الأفعال المترتبة على ذلك ظهور (سفر أخبار الأيام) (Chronicles I, II) بجزءيه ، وسفر (عزرا) (Ezra) وسفر (نحميا) (Nahmiah) ، وكتاب الكهان (Ecclesiastious) أو (كتاب الكنيسة) (Sirah) والذى كتب^(١) فى القرن الثانى قبل الميلاد وأصلين بذلك إلى نهاية المطاف حيث يمكننا القول بأن العهد القديم لم يصبح معترفاً به ، ومعروفاً لدى الناس إلا بعد مضى قرن كامل على ميلاد المسيح .

(١) كتبه جيسوس بن سيراخ فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ويعرف بأنه كتاب الكنيسة (Book of church) ويضم حوالى أربعة عشر سفراً من العهد القديم ، وهى محذوفة من كتب البروتستانت والعبريين المقدسة (المترجم) .

كتب مقدسة لأديان أخرى :

يوجد العديد من كتب الدين لدى الهندوس ، حتى إنه قد شق علينا حصرها ، فبجانب كتبهم الأربعة المقدسة (الفيدا) (Vedas) والتي تحوى التراتيل (Hymns) ، وكتاب (أبانيشيدز) (Upanishads) الذى يحوى العقائد والتعاليم (doctrines) تأتى مجموعة ضخمة من الكتب التى تحوى الملاحم (Epics) والقصص الأسطورية القديمة (Puranas) ، حيث تعد هذه المجموعة هى الأقوى تأثيراً على الجماهير من الكتب المقدسة الأربعة الفيدا (Vedas) ، ولعل أبرز أسطورتين ضمن تلك الأساطير هما (رامايانا) (Ramayana) و (ماهابهاراتا) (Mahabharata) وهما اللتان يحتمل أن تكونا قد كتبتا فى القرنين الأولين من بعد ميلاد المسيح ، وتحكى الأسطورة الأولى (رامايانا) - وهى أحب أسطورة عند الهندوس - عن مغامرات الأمير راما (Rama) لذا يردد الكثير من الهندوس بعضاً من سطورها كل يوم ، أما الأسطورة الثانية (ماهابهاراتا) فإنها عبارة عن منظومة شعرية طويلة مملوءة بالخيالات ، وأيضاً بالدروس والعبر والمبادئ الأخلاقية .

ومع أن الهندوس يعتقدون تماماً فى أن الكتب الأربعة المقدسة (Vedas) قد أوحاها الله إلى العرافين القدامى والمنجمين ، فإنه لا توجد علامات واضحة مؤيدة بالتواريخ والأسماء كما فى حالة القرآن ، أما عن الرامايانا فإن الشاعر (فالميكى) (Valmiki) هو فى الواقع الذى كتب باللغة السنسكريتية^(١) - (Sanskrit)^(٢) .

أما كتب الديانة البوذية فهى (النيكاياز) (Nikayas) وهى عبارة عن أربعة كتب تقنينية وتشريعية تضم كل أقوال (بوذا) (Buddha) والتي جمعها أتباعه بعد موته بحوالى خمسين عاماً فى القرن السادس

(١) اللغة السنسكريتية هى لغة الهند الأدبية القديمة - (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Parrinder) وفى المرجع انظر ص ٤٥ .

قبل الميلاد^(١)، وقد أضاف هؤلاء الأتباع أقوالاً أخرى نسبت إليهم ،
ووضعت كلها معاً في (نيكاياز تكميلية) (Supplementary Nikaya)
حيث أكملت النيكاياز مع القرون بالأساطير والأشعار والقصائد الدينية
والفلسفية والتاريخية ، ولعل أفضل هذه النيكاياز هي (ميليندا Milinda)
وهي تهدف إلى إبراز المناقشة بين الملك اليوناني (ميناندر Menander)
والزعيم البوذي (ناجاسينا Nagasena) ، ومن ثم فهذا دليل واضح تماماً
على أن واضعي كتب البوذية كانوا بشراً ، وأنها لم تكن وحيًا إلهيًا .

أما عن كتاب (مقتطفات أدبية) (Analects) والذي كتب بعضه
الفيلسوف الديني في بلاد الصين (كونفوشيوس) (Confucius)
والذي عاش ما بين سنة ٥٥١ وسنة ٤٧٩ قبل الميلاد ، وأكمل حواريه
وأتباعه بقية الكتاب ، واعتبره أتباع الديانة الكونفوشيوسية كتاب أخلاق
ومثل ، وليس بكتاب دين ، ومع أن القدماء على عهد كونفوشيوس
كانوا يوقرونه ويجلونه ، ويدعون له ويدعوته في المدارس الصينية - إلا أن
الأجيال المعاصرة تعتقد أنه ما كان ليبجل هذا التبجيل ، حتى إنهم
استبدلوا بصوره وتمائيله في القاعات الكونفوشيوسية ألواحاً خشبية وأوراقاً
وما شابه ذلك ، حيث إن أقوال كونفوشيوس يدينها أهل الصين حالياً
وتوصف بالرجعية والتخلف .

ومن البدهى بالطبع ألا تعتبر كتب ماركس (Marx) وماوتسي
تونغ (Mao-tse-Tung) وحيًا إلهيًا ، والسبب بسيط ، هو أن هذه
الكتب قد اعترف بها الشيوعيون الذين ينكرون صراحة وجود الله وفق
(إلحادهم العلمي) (Scientific atheism) .

دعاوى المستشرقين حول مصدر القرآن :

يتضح مما سبق أن الإسلام هو ذلك الدين المتفرد بإيمان أتباعه

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية ج ٣ (صفحات ٣٧٤ - ٣٩٠) .

المتين بأن كتابهم المقدس منزل من عند الله ، ولقد أنكر الكتاب غير المسلمين هذه الحقيقة عبر السنين بكل عناد وإصرار ، فقد ادعوا قاطعين أن القرآن قد كتبه محمد ﷺ إما بمساعدة أو بغير مساعدة من أحد ، حتى إن بعضاً من أقوال هؤلاء الكتاب كانت جارفة شاملة ، دون أن يحاولوا تأييد مزاعمهم بأية إثباتات منطقية أو ركائز علمية .

فمثلاً أعلن سيل (Sale)^(١) في أول كتابه (ترجمة القرآن) والتي طبعت لأول مرة في القرن الثامن عشر « أن محمداً هو مؤلف القرآن وواضعه دون أى نقاش ، وإن كان من المحتمل أن آخرين قد عاونوه في عمله هذا معاونة كبيرة » .

وقد أعلن كتاب آخرون أمثال سير وليم موير (Sir William Muir)^(٢) في القرن الماضي ، وولاستون (Wollaston)^(٣) في سنة ١٩٠٥ ، ولامنس (Lammens)^(٤) في سنة ١٩٢٦ ، وأيضاً تشامبيون وشورت (Champion and Short)^(٥) في سنة ١٩٥٩ ، وجلوب (Glubb)^(٦) في عام ١٩٧٠ وأخيراً رودينسون (Rodinson)^(٧) في عام ١٩٧٧ - أعلنوا جميعاً مرددين هذا الاتهام الجافى للمنطق تماماً ، بل إننا نجد ترديداً لنفس العبارات أيضاً على لسان مستشرقين آخرين مثل مينيزس (Menezes)^(٨) الذي قال : « لا شيء سوى أنه خلق وتلفيق من محمد » ، ومثل درايكوت (Draycott) الذي قال : « من خلاله - يعنى القرآن - تسبح أمارات عبقريته - يقصد محمداً ﷺ - حيث تعد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Muir) وفي الجزء الثاني من المرجع انظر ص ١٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wollaston) .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lammens) .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Champion and short) ص ٢٤٠ .

(٦) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Glubb) .

(٧) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (الإسلام والرأسمالية) .

(٨) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفي المرجع انظر ص ١٥٨ .

السور الأخيرة انعكاساً لطاقته التي تكاد تشع من الصفحات « (١) .

ولقد ادعى كثير من المستشرقين أن النبي ﷺ إما أن يكون شاعراً ، وإما مفكراً ، وإما مصاباً بداء الصرع ، وإما ساحراً ، أو أنه اعتمد في وضع الكتاب على المصادر اليهودية والمسيحية ، حتى لقد أتى بعض مستشرفى القرون الوسطى بزعم عجيب ، وهو أن مسيحيين ويهوداً أعدوا خصيصاً لهذه المهمة ، وهم الذين جمعوا القرآن من رقع الكتاب المقدس (Bible) وذلك إرضاء لحاجة الجماهير المسلمة ! (٢) وبالطبع ثبت بطلان هذا الزعم القديم ، بل وسقط تماماً عندما سمح لمزيد من المعلومات الدقيقة بالتسلل إلى الظلام الغربى .

والواقع ، أن أغلب هذه الأقوال والمزاعم ليست كلها من تأليف المستشرقين واختراعهم ، فقد قالها قادة المشركين على عهد النبي ﷺ ، فلم تكن تلك الخصومات المليئة بالحقد والكيد تدخر وسعاً لتكذيب نبوته ، واضعة في اعتبارها أنه يعتبر تهديداً رئيسياً لسيادتهم كقادة للمجتمع آنذاك ، ولقد جاء ذكر مزاعمهم واتهاماتهم هذه للنبي بصورة حية وصریحة في القرآن ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

[الأنفال آية ٣١]

وجاء في القرآن أيضاً : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

[الصافات آيات ٣٥ - ٣٧]

أليس بغريب إذن أنه عندما يردد المستشرقون المعاصرون اتهامات رددت منذ أربعة عشر قرناً يعتبرونها اتهامات جديدة ومحدثة ؟

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Draycott) وفي المرجع انظر ص ٣٣٥ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفي المرجع انظر ص ٣٤ .

الادعاء بأن النبي كان شاعراً :

وهذه الدعوى قدمها (ستوبارت) (Stobart)^(١) منذ مائة عام تقريباً ، وكررها (بل) (Bell)^(٢) في العشرينيات من القرن الحالي ، ثم كررت مرة أخرى مؤخراً علي لسان (رودينسون) (Rodinson)^(٣) ، فكان زعم (ستوبارت) بعد قراءته للقرآن أنه « يمكن لأي عربي كتابته ، ويكفيه أن يلم بالملامح الخارجية لتاريخ اليهود وبالتقاليد الخاصة ببلاده ، وأن يملك ملكة الشعر وخياله » ، ولكن (بل) اختلف قليلاً لدى وصفه للنبي ﷺ بأنه شاعر فقال : « لكنه ليس بكلام العرب العادي ، حيث إن الموضوعات الدينية والتقوي لم يكن ليتطرق إليها أي شاعر آخر » ، أما (رودينسون) فلم يقيم القرآن إلا علي أنه شعر اختزن في العقل الباطن لمحمد ﷺ ثم نطق به وتخيل أنه وحي أوحى إليه .

ولعل قراء الشعر العربي وأبياته يدركون تماماً تميزها بوزنها وبحرها وعروضها وقافيتها ، وهي المقاييس الضابطة للمقاطع من حيث الإيقاع والصوت ، والتي يتحتم التقيد بإطارها بمنتهي الحزم ، ولو علي حساب المعني وقواعد النحو ، وكل هذا بلا شك يختلف تماماً عن أسلوب القرآن الأدبي .

الادعاء بأن القرآن ناشئ عن خيال النبي :

جاء كل من (أندرسون) (Anderson)^(٤) و(وات) (Watt)^(٥) بنظرية مشابهة للآخر تقريباً في سنة ١٩٦٠ ، لقد وصف (أندرسون)

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Stobart) وفي المرجع انظر ص ١٠٨ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ص ٩٦ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) ص ٩٤ .
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفي المرجع انظر ص ٥٦ .
(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبي والحاكم) وفي المرجع انظر ص ١٥ .

القرآن بقوله: « إنه نتاج التفكير الرغبى^(١) (Wishfull thinking) » وذلك إيماناً منه بأن الكلمات والأفكار والقصص المختلفة المنطلقة سواء من خارج حدود اللاوعى العقلى أو داخله لدى النبي محمد ﷺ هي التي أوجدت القرآن ، أما (وات) فقد توصل باستخدام الطرق الحديثة لتحليل الأدبى إلى استنتاج أنه ربما يكون النبي ﷺ مخطئاً فى اعتقاده أن القرآن هو رسالة إلهية ، فقال : « إن ما يبدو للإنسان ويخيل إليه أن شيئاً ما قادم له من خارج عقله قد يكون فعلاً آتياً إليه من عقله الباطن » ، ثم وصف القرآن على أنه « نتاج خيال خصب خلاق » .

ولكن نظرية (أندرسون) و (وات) تنهار تحت ضغط الحقيقة القائلة بأنه لا يوجد « خيال » آخر مهما كانت درجة « خصوبته » استطاع أن يولد مثل هذه المعجزة أو حتى جزءاً منها .

وستتم مناقشة محتويات القرآن بطبيعته الخارقة فى الفصول القادمة، ولكن يجدر بنا الآن أن نذكر أن هذه النظرية التى أعلنها كل من (أندرسون) و (وات) ليست بمبتكرة ، إذ إنها موجودة فى القرآن على أنها إحدى الدعاوى التى صرح بها الكفار فى وجه النبي ﷺ ، ولكنه استخدم تعبير « أضغاث أحلام » بدلا من كلمة « خيال » ، وفى الآية الخامسة من سورة الأنبياء قوله تعالى : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ .

الادعاء بأن النبي كان مصاباً بالصرع :

أكد (سان بدرو) (San Pedro) وبعض المستشرقين الآخرين فى القرون الوسطى وما بعدها ؛ محاولة منهم لتفسير حقيقة الوحي الإلهى - أن النبي ﷺ كان مصروعاً ، بمعنى أن الشياطين كانت تسيطر عليه وتتحكم فيه^(٢) ، وكذلك وصف (رودينسون) (Rodinson) القرآن

(١) رغبى : مبنى على الرغبة لا على الحقيقة والواقع ص ٩ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) .

مؤخراً بأنه هلوسة سمعية وبصرية وهذيان^(١) ، ولكن هذه الدعاوى لا أساس لها من الصحة ، ولا مجال للبحث فيها ، وقد أعلن ذلك علي لسان الكتاب العقلانيين والمنطقيين ومنهم (دانيال) (Daniel) الذي علق فقال : « إن وصف النبي بالصرع هو تفسير من ينشدون الضحك والتسلية لا الإرشاد والتعليم »^(٢).

وهنا سؤال يطرح نفسه ، هل يؤدي مرض الصرع - وهو ذلك المرض المضعف الكئيب إلى أن يجعل من ضحيته نبياً ؟ أو حتى مشرعاً قانونياً ؟ بل وأن يصبح في مكان رفيع يحاط فيه بالإجلال والنفوذ عبر القرون ؟^(٣)

كيف يتسني هذا ومثل ذلك المرض معروف علمياً بأنه يؤدي في نهاية المطاف إلى تدهور تدريجي وفساد ذهني ممثّلين في ذاكرة ضعيفة وتناقص في الذكاء والفطنة وشذوذ في الطباع ؟

ومن المعروف من الناحية الطبية أن آثار نوبات الصرع هي التمزق والحزن الشديد لكل من المريض المعذب وجليسه الذي معه ، ولكن لا توجد أية علامات من هذا القبيل في أدق التفاصيل عن حياة النبي ﷺ التي تهادت إلينا معرفتها الكاملة عبر القرون ، « بل علي العكس لقد كان يسيطر وبشكل واضح وقاطع علي كل قدراته وملكاته العقلية والشخصية وحتى آخر لحظة من حياته »^(٤) ، فما كان محمد ﷺ ليخطئ في حدسه أو ظنه ، أو تخونه قوته ولو مرة واحدة ، فحكاية الصرع هذه كان يمكن أن تنجح لو أنه حدث ذات مرة أن انهار تحت إجهاد الحرب ، أو الجدل والمناقشة ، أو لو أنه غاب عن وعيه عندما واجهته أية صعوبة .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) وفي المرجع انظر

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Morgan K.) وفي الرجوع انظر ص ٥٦ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) .

وعلى ذلك ينبغي هنا أن نقرر حقيقة هي : « أن إرساء قواعد نظرية الصرع على أسطورة لم يحدث مثلها في التاريخ مطلقاً هو نوع من الإجرام المرتكب ضد النقد التاريخي بصفة عامة » (١).

الادعاء بأن النبي ألف القرآن بمساعدة المصادر اليهودية والمسيحية

نأتى الآن إلى تهمة مكررة ومعتادة وهي أن النبي ﷺ قد وضع القرآن بمساعدة مباشرة من آخرين ، وبعد قراءة كتب أخرى ، هذا على الرغم من الحقيقة المؤكدة التي هي أميته وعدم معرفته بالقراءة والكتابة ، وكذلك وضعه للقرآن بعد أن تعلم من أى إنسان ذى خلفية يهودية أو نصرانية ... إلخ .

وعلى غرار الدعاوى المذكورة قبل ذلك جاءت هذه الاتهامات لتردد مؤخراً بعد أن ردّدت في القرون الوسطى .

ومرة أخرى ، ينبغي أن نقرر أن هذه الاتهامات ليست من مبتدعات هذه الفترة (القرون الوسطى) ، وإنما امتطى صهوتها الكفار على عهد محمد ﷺ ليغالبوه عندما استمعوا إلى القرآن ، وهو ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [يونس آية ٣٨] ، وقوله : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [هود آية ١٣] ، وأيضاً قوله : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ [النحل - آية ١٠٣]

لقد افترض البعض أن النبي ﷺ تلقى تعاليم المسيحية واليهودية إما في أثناء ترحاله ، وإما أثناء إقامته بمكة أو المدينة ، فقد سافر فعلاً مرتين إلى الشام ، مرة وهو في الثالثة عشرة من عمره ، ومرة أخرى وهو

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Guillaume) وفي المرجع انظر ص ٢٥ .

في الخامسة والعشرين ، ولكن ذلك كان لفترات وجيزة قبل بعثته
بمدة طويلة مما لا يعطى مسوغاً أو تبريراً للمستشرق (بودلى)
(Bodley)^(١) وللآخرين ليصفوه بأنه : « ذلك الرجل الذى قضى معظم
حياته على سفر » ، أو أن « أسفاره الكثيرة والطويلة كانت سبباً ومصدراً
رئيسياً لمعرفة الضخمة المكثمة^(٢) ، حيث إن تاريخ العرب الذى وضعه
(سيل) (Sale) بصورة غير متحيزة سجل فيه أن رحلة محمد ﷺ
الأولى إلى الشام كانت عندما كان عمره ثلاثة عشر عاماً ، وذهب مع
عمه (أبي طالب) ، وكانت لهما مقابلة وجيزة مع راهب يدعى
(سرجيوس)^(٣) - أو (بحيرا)^(٤) ، ونذكر هنا أن المقابلة لم تكن فقط
قصيرة ، ولكنها أيضاً حدثت فى وقت مبكر بحيث لا يمكن أن تؤيد
الزعم بأن الراهب قد ساعد النبي فى مسائل الوحي ، وذلك للسبب
الواضح والبسيط وهو أن الوحي بدأ بعد هذه الواقعة بقراءة ثلاثين سنة .

وهناك افتراض أبعد عن الحقيقة وهو أن محمداً ﷺ كان ملماً
بالمسيحية أثناء وجوده بمكة ، ولعله سمع شيئاً من الأساقفة والرهبان ،
علماً بأن هؤلاء الرجال كانوا يقطنون عند أطراف الشام ، وكان فى
استطاعتهم أن يوصلوا نشاطهم التبشيري إلى المناطق المجاورة ، فقد نسب
(بودلى) (Bodley)^(٥) و(جيب) (Gibb)^(٦) إلى بعض الأساقفة
أنهم كانوا يبشرون بالمسيحية من فوق ظهور الإبل ، وذلك من خلال
الأسواق التى كانت تعقد سنوياً فى (عكاظ) بالقرب من مكة ، ومنهم
الخطيب (قس بن ساعدة) ، وهذا صحيح من الناحية التاريخية ، إذ إن

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bodley) وفى المرجع أنظر ص ٤ .

(٢) انظر قائمة المراجع السابق ص ٣٦ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bodley) .

(٦) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٣٧ .

(قس بن ساعدة) هذا ، وأسقفياً آخر هو (أسد بن كعب) - كانا يلقيان العظات الكثيرة للعرب في أسواقهم ، إلا أن سوء الحظ لازم نظرية هذين الطاعنين في النبي ﷺ ، ذلك أن كلا من هذين الأسقفين مات قبل مولد محمد بأكثر من قرن من الزمن (١) .

وتأتى النظرية لتضيف إلي الأساقفة والرهبان اثنين من صناعات السيوف المسيحيين الذين زعم كل من الكفار علي عهد محمد ﷺ و(زويمر) (Zwemer) (٢) في عصرنا هذا أنهما قد علما محمداً ، فقد كان كل من جبر ويسار (٣) عبداً حبشياً من أولئك الذين اعتنقوا الإسلام ، وكان مولاهما وهو من بنى الحضرمي يعذبهما ويقول لهما : « إنكما

(١) مقال الأستاذ جودة السحار بعنوان : تعليق على كتاب بودلي - مجلة الاعتصام - القاهرة - عدد يونيو ١٩٧٣ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Zwemer) كتاب (المسيح الإسلامى) ص ١٢ .
(٣) في قصة هذين ذكر القرطبي في الجزء ٥ ص ٩٤ : اختلف في اسم هذا الذي قالوا : إنه يعلمه ، فقيل هو غلام الفاكهة بن المغيرة واسمه جبر كان نصرانياً فأسلم ، وكانوا إذا سمعوا من النبي ﷺ ما مضى وما هو آت مع أنه أمى لم يقرأ قالوا : إنما يعلمه جبر وهو أعجمي فقال الله تعالى : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » ، أى كيف يعلمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها . وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له : أنت تعلم محمداً فيقول : لا والله ، بل هو يعلمني ويهديني وقال ابن إسحاق : كان النبي ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له جبر ، عبد بنى الحضرمي ، وكان يقرأ الكتب ، فقال المشركون : والله ما يعلم محمداً ما يأتي به إلا جبر النصراني ، وقال عكرمة : اسمه يعيش عبد لبنى الحضرمي وكان رسول الله ﷺ يلقنه القرآن ، ذكره الماوردي ، وذكر الثعلبي عن عكرمة وقتادة أنه غلام لبنى المغيرة اسمه يعيش ، وكان يقرأ الكتب الأعجمية ، فقالت قريش : إنما يعلمه بشر ، فنزلت المهدوي عن عكرمة : هو غلام لبنى عامر بن لؤى ، واسمه يعيش . وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي ، كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر ، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر . كذا ذكر الماوردي والقشيري والثعلبي إلا أن الثعلبي قال : يقال لأحدهما بنت ويكنى أبا فكيهة ، والآخر جبر وكانا صيقلين يعملان السيوف ، وكانا يقرآن كتاباً لهم . الثعلبي : يقرآن التوراة والإنجيل . الماوردي والمهدوي : التوراة : فكان رسول الله ﷺ يمر بهما ويسمع قراءتهما ، وكان المشركون يقولون : يتعلم منهما ، فأنزل الله الآية وأكذبهم . (المترجم) .

تعلّمان محمداً ، فما يكون منهما إلا الاعتراض ويقولان : « لا والله ، بل هو يعلمنا ويهدينا » ، ويبدو أن (زويمر) كان يستحسن رأى سيدهما ويفضله على رأيهما .

أما في الوقت الحاضر ، فقد افترض كل من (منيزس) (Menezes)^(١) و(جاردنر) (Gardner)^(٢) أن هناك معلماً آخر للنبي ! وجزماً بأنه سلمان الفارسي الذي شارك في كتابة القرآن ، وسلمان رضى الله عنه كان أول أمره مؤمناً بالزاردشتية في بلاد فارس وذلك قبل أن يعتنق المسيحية في بلاد الشام ، ثم رحل إلى المدينة بعد ذلك حيث قابل النبي ﷺ وارتضى الإسلام ديناً . ولقد سجلت حياة سلمان في التاريخ الإسلامي حيث عرف أنه هو أول من اقترح فكرة حفر الخندق للدفاع عن المدينة وذلك عندما غزاها كفار مكة وهددوها بمساعدة حلفائهم ، وكانت فكرته الذكية مع ما أرسله الله من رياح شديدة وعواصف - السبب في صد الأعداء ودحرهم .

وكلنا يعلم أن الجزء الأكبر من القرآن ، أي حوالي ثلثيه ، قد أوحى في السنوات الثلاث عشرة الأولى للبعثة ، قبل هجرة الرسول إلى المدينة ، حيث حضر إليه سلمان ، ثم إنه لا يخفى أن أسلوب القرآن الأدبي رفيع جداً ، لدرجة أن العرب المولودين في الجزيرة العربية ، والمتكئين من اللغة ، والذين حاولوا عبر السنين أن يحاكوا القرآن لم ينجحوا أبداً في ذلك ، فما بالك بسلمان الأعجمي الفارسي المولد .

ولقد اتهم محمد ﷺ أحياناً بأنه قد تعلم من معلم غير معروف ، ولعل التهمة الموجهة بناء على « أن كل القصص المطول عن أحبار بني إسرائيل وأسباطهم وأنبيائهم ، قد جاءت في القرآن تطابق تماماً ما جاء في التلمود، في تفصيلات كثيرة، والذي لاشك في منشئه اليهودي »^(٣) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفي المرجع انظر ص ١٦١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gardner) وفي المرجع انظر ٩٤ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Roberts) .

وكذلك زعم (رودينسون) (Rodinson) مقتنياً نفس الأثر ولكن بسذاجة مشينة ، إذ زعم أن محمداً ﷺ قد عرب اليهودية والنصرانية استناداً إلي أنها يمكن بالفعل أن تجذب رجال قبيلته وذلك لأنها تحكى عن حضارات أكثر رقياً من حضارتهم^(١) .

ولكن (بل) (Bell) كتب ضد هذه الاتهامات فقال : « مهما كانت معرفة الرسول العميقة بكل من هذين الدينين - والمقصود بهما اليهودية والمسيحية - أو حتى معرفته بالكتاب المقدس ذاته ، فإنه لا يوجد على العلاقة بينهما دليل مقنع ، إذ إن سورة (الإخلاص) في القرآن تشكل تعارضاً شديداً مع أحد المبادئ الرئيسية في المسيحية^(٢) . ولا ريب أن نظرية (بل) أيدت بوضوح ذلك التناقض الشديد بين القرآن والإنجيل ، وهو ما نراه في بحث (بوكاي) (Bucaille) وعنوانه (الكتاب المقدس ، والقرآن ، والعلم) (The Bible the Qur'an and science) .

وبالإضافة إلى الفارق الشاسع بين المفهومين القرآني والكتابي عن الله ، والتناقض الرهيب بين أساطير الكتاب المقدس وحقائق القرآن ، فإننا نذكر ذلك الموقف العدائي الذي وقفه مجتمع اليهود في المدينة تجاه النبي ﷺ ، وهو ما يعطي برهاناً بالغاً علي خطأ الافتراض الذي يقول بأن اليهود والنصارى قد ساعدوه في كتابة القرآن ، ولقد ذكر (بوكاي) (Bucaille) حججاً بالغة أيضاً في هذا الصدد .

وقد ناقش بعض المستشرقين^(٣) أخيراً تطبيقاً لطريقة النقد العلمي ما جعلهم يظنون ، وبمس ما ظنوا ، أن محمداً كان يجمع ما يتلى عليه من الأساطير والأشعار ، ثم يعيد صياغته ، ثم يراجع ما يتلى عليه ، ثم يكتبه بعد ذلك على الصورة المعروفة الآن بقرآنه^(٤) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ص ٧٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (ترجمة بعض سور القرآن) .

ولا بد أن يشار هنا إلى أن الكتاب والعلماء المهتمين بهذا الموضوع قد فحصوا وعاینوا أهم الحقائق المؤكدة ، فقد كتب (ابن تيمية) كتاباً فى نفس الموضوع فى القرون الوسطى قرر فيه من خلال أشياء أخرى أن النبى ﷺ كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب ، وثانياً : لقد أثبت أن أسلوب القرآن الرفيع قد بقى كما هو خلال فترة وحيه ثلاثاً وعشرين سنة ، وهل يمكن لأى مؤلف مهما عظم شأنه أن يصل إلى درجة الكمال فى أسلوبه لمدة طويلة كهذه ؟ وكما يسجل التاريخ فإنه لا توجد سورة أو آية أو حتى كلمة حدث أن روجعت وعدلت . ثالثاً : إن العرب فى تلك الأجيال قد برعوا فى حفظ تاريخهم وذكرياتهم وحوادثهم بدقة ، فقد كانت أخبارهم تنقل حرفياً عن طريق التلقى بالمشافهة من مؤرخ إلى آخر عبر السنين ، ولعل (علم الإسناد) والذى يعنى بهذا الموضوع قد طوره العرب قبل أن تظهر الكتابة والطباعة على مسرح الأحداث ، فعلم الإسناد يشمل تصنيف المؤرخين حسب معلوماتهم ونشأتهم وأسلوب حياتهم وطبائع أصحابهم ، وفوق ذلك حسب درجة دقتهم فى تسجيل الأحداث وتدوينها وحفظها ، كما يناقش هذا العلم الطريق التى سلكتها الحادثة الواحدة التى أنبأت بها مصادر الأخبار وسلاسل الرواة والمحدثين ، وكذلك تحليل وتفسير أية تناقضات فى الرواية .

وعلى ضوء علم الإسناد الذى ازدهر فى بلاد العرب ، لم يأت على لسان أى مؤرخ ما يفيد بأن محمداً ﷺ قد جلس وتعلم شيئاً من أحد ، أو حتى جلس وتشاور مع أصحابه إلا بعد أن أصبح نبياً ، ولا شك فى أن تاريخ العرب يذكر كل التفاصيل عن حياة النبى ﷺ منذ مولده ، حتى صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى .

ثم ذكر ابن تيمية أخيراً أن محمداً ﷺ لم يبشر بشيء مطلقاً إلا بعد أن وصل إلى سن الأربعين ، ولم يتفوه لسانه بمقطع من القرآن ذلك الذى يبدو مختلفاً تماماً عن كلامه وأقواله هو ، رغم فصاحته صلى الله عليه وسلم .

إذن ، فإذا فرضنا أن محمداً ﷺ كان قد تعلم فعلاً على يد راهب مسيحي أو على كاهن يهودي أو حتى من عبيد نصارى ، فإن نتائج ذلك كانت تكون كما يأتي :

١ - إن محمداً ﷺ لم يكن لينكر ذلك ، وذلك لأنه كان قد اشتهر طوال حياته بالإخلاص والأمانة والصدق في القول .

٢ - لم يكن لمحمد ﷺ أن يبشر بدين يختلف جوهرياً عن المسيحية واليهودية ، وعلى وجه الخصوص من ناحية عقيدتهما الأساسية .

٣ - تحت ظروف واعتبارات المناخ العدائي والكائن بينه وبين الذين لم يؤمنوا برسالته ، خصوصاً اليهود والمشركين ، فإن اسم معلمه صلى الله عليه وسلم لم يكن ليظل مجهولاً طوال سني بعثته الثلاث والعشرين ، أو فيما بعد ذلك .

٤ - كان من الممكن لمن علمه - أياً كان - أن يكتب كتاباً أو على الأقل جزءاً من كتاب يشبه الوحي القرآني .

٥ - لقد عُرف اليهود في القرآن على أنهم (أهل الكتاب) الذين عادوا النبي ﷺ وتحذوه بإصرار ، حتى إنهم أخفوا كتبهم عن بعضهم ، فكيف إذن استطاعوا أن يعلموه ما في هذه الكتب في نفس الوقت ؟ وحتى لو كانوا قد علموه شيئاً ؛ أي شيء ؛ ألم يكن بالأحرى وارداً أن يكونوا أول من يعلن ذلك ليثبتوا كذب دعوته ؟ وإنه لمن الصعب التصديق بأنهم علموه القرآن ثم لم يعلموه محو الآيات الدائمة لهم في القرآن .

٦ - لو لم يكن محمد ﷺ مخلصاً في نبوته وأميناً في تبليغ ما أوحى إليه لما اتبعه صحابته وأتباعه ، ولما كانوا متشبهين بتعاليمه كل التشبه ، رغم الصعوبات والاضطهاد الشديدين ، ولعله من الخصائص العظيمة في شخصية محمد عليه الصلاة والسلام أن أحداً من صحابته لم يخنه على الإطلاق .

٧ - إن القرآن يعزز ما جاء في الكتاب المقدس من إخبار مؤكد عن الأنبياء والرسل السابقين ، وهذا ما يجعلنا نتساءل : لماذا لا يعد هذا التعزيز من القرآن أمانة واضحة على وحدة المصدر الإلهي الذي أوحى إلى موسى وسائر الرسل من قبل ؟

٨ - ومادام لم يدخل موضوع صدور العهدين القديم والجديد عن الله ضمن الدعاوى المسيحية ، فلماذا إذن يعرض محمد ﷺ محمداً نفسه وصحابته لخطر الاضطهاد والتعذيب من أعدائه بأن يزعم أن القرآن من عند الله إذا لم يكن كذلك حقيقة ؟

وفي ختام هذه المناقشة يجدر بنا تدبر الآيات القرآنية التي تتضمن القول الفصل في مصدر القرآن :

قال تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين * إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولنهم عذاب أليم * إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾

[النحل آية : ١٠٢ - ١٠٥]

مكتبة مهتاب للاستشارات الإسلامية لقاء الأحياء

الفصل الثاني

البناء الإلهي للقرآن

وتطرح البديهة سؤالاً : أيعد أسلوباً علمياً ذلك التأكيد الصارم بأن « القرآن هو نتاج عمل نبي الجزيرة العربية بلا نقاش »^(١) وبدون محاولة إقامة أية حجة أو برهان على ذلك ؟

ولكن ، هل يوجد أى دليل منطقي يدعم قول المسلمين بأن القرآن قد نزل على قلب محمد ﷺ ، الذي نقله بدوره دونما تغيير لكلمة واحدة ؟

نعم ، هناك دليلان رئيسيان على ذلك ، أولهما : أن الأسلوب الأدبي العربي في القرآن يعلو ويسمو فوق أسلوب أى عمل أدبي آخر ، حتى ولو كانت أقوال محمد ﷺ ذاته وكلماته .

وثانياً : مضمون هذا الأسلوب ، والذي يغطي مدى لا نهائياً من الأفكار ، يمس جوانب لم تكن مطروقة وقتئذ من أى عقل بشرى - هذه المادة لم يكن ليستطيع أن يتخيلها النبي ﷺ أو أى من معاصريه . ولنلق الآن نظرة تفصيلية على كل من هاتين النقطتين :

الأسلوب الأدبي للقرآن :

يتميز الأسلوب الأدبي للقرآن بوضوح مذهل يفوق فيه أى عمل من الأعمال العربية الأخرى ، سواء أكان قصيدة أم نثراً مسجوعاً أو غير مسجوع ، أم لغة عامية مكتوبة أو مقروءة ، أم حتى لغة النبي نفسه ، ولعلنا قد عرفنا مدى فصاحة محمد ﷺ ، وهو ما بدا جلياً في الآلاف من أحاديثه وأقواله ، ولكن لم يثبت في واحد منها أدنى شبه بالوحي

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wollaston) وفي المرجع انظر ص ٩ .

المنزل ، ذلك الذى يعد قوة فوق التصور ، تغمر الروح بنور ساطع ، حتى إنه لما أدرك الكفار على عهد النبي ﷺ عظم القرآن وتفردته مالبثوا أن اعتبروا الكتاب ظاهرة غير عادية اعتادوا أن يسموها (السحر) بعينه .

ولعل أحسن من قدر الأسلوب القرآنى هم العرب ، وخصوصاً أولئك الذين عاصروا تنزيله والذين أتقنوا الأدب وكانوا مغرمين بالشعر الذى تعودوا أن يعلقوا أجوده وأحسنه على جدار الكعبة ، أقدس مكان لديهم ، وهناك حادثتان تثبتان إلى أى مدى بلغ إعجابهم بالقرآن ، لتناغمه فى أسلوبه الأدبى :

أولاهما : أنه كانت هناك قصيدة شعرية لشاعر اسمه (لبيد بن ربيعة) ، واعتبرت هذه واحدة من أعظم ما قيل من الروائع فى بلاد العرب على عهد محمد ﷺ ، ولم يجرؤ أحد من الشعراء الآخرين على تقديم أى شىء منافس لها ، إلى أن علقت بعض آيات القرآن من سورة قرآنية بجانبها ، ولم يكد (لبيد)^(١) - وهو الوثنى - يقرأ أولى تلك الآيات حتى بهره الإعجاب بما قرأ ، وأعلن اعتناقه الإسلام فى الحال ، وقال : إن كلاماً كهذا ليس من قول البشر ، وإنه ولا شك وحى إلهي^(٢) .

أما الحادثة الثانية فهى تسجل (إسلام عمر) ، وقد كان (عمر

(١) فى الأصل خطأ (لبيب) وهو لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب ابن ربيعة ابن صعصعة الكلابى الجعفرى ، أبو عقيل الشاعر المشهور ، كان فارساً شجاعاً شاعراً سخياً ، قال الشعر فى الجاهلية ثم أسلم ، ويقال إنه ما قال فى الإسلام إلا بيتاً واحداً هو :
ما عاتب المرء اللبيب كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح
ويقال بل قوله :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى لبست من الإسلام سربالا
ومات سنة إحدى وأربعين لما دخل معاوية الكوفة ، ويقال بلغت عمره مائة وخمسا وأربعين منها خمس وخمسون فى الإسلام وتسعون فى الجاهلية . (الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٥ ص ٦٧٥) - (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) وفى المرجع انظر ص ٨٨ .

ابن الخطاب) « فصيحاً لا نظير له »^(١) ، وكان أحد قادة المشركين الذين عادوا محمداً ﷺ بكل وسيلة ، ولكن القوم سخروا منه عندما أسلمت أخته متخذة بذلك موقفاً ضد إرادته ، بل وبدون علمه ، فما لبث أن هجم على بيت أخته والسيف فى يده ، فوجدها تحمل صحيفة بها بعض القرآن ، فطلبها منها ، وهنا حدث الشيء الرائع ، فهذا الرجل الذى عرف بعنفه وقسوته تغير فجأة ، فقد ملأت الآيات القليلة القوية الجميلة قلبه إعجاباً ورهبة ، وأحس بدافع يدفعه نحو النبي ﷺ ليعلن إسلامه ، ومنذ تلك اللحظة أصبح عمر بن الخطاب واحداً من الأعمدة التى يرتكز عليها المجتمع المسلم آنذاك ، كما سجل التاريخ الإسلامى .

ولقد ذكرنا آنفاً أن المشركين على عهد محمد ﷺ أصروا على نعت القرآن بالسحر ، وحاولوا بشتى الطرق أن يحذر بعضهم بعضاً من الاستماع إليه مخافة أن يفتنهم عن دينهم ، ولكن أحداً لم يجروا أن ينكر سموه الأدبى وجماله وروعته .

ثم ظهرت بعد ذلك على مسرح الأحداث مجموعة من المستعربين الذين كانت معرفتهم باللغة العربية جد ضئيلة ، لأنها لم تكن لغتهم الأصلية ، كما أنهم لم يدرسوها دراسة وافية ، وهؤلاء اللغويون نصّبوا من أنفسهم نقاداً ، وأطلقوا العنان لحكمهم على الأسلوب القرآنى ، فزعم بعضهم بأن فيه « أخطاء أدبية كثيرة » وأنه « مشحون بالجمل المبهمة والكلمات الغريبة » ، وكذلك زعموا أنه « يتضمن تناقضات لاحصر لها » ، بل لقد وصفوه « بأن به أخطاء نحوية وصرفية وأسلوبية كان من السهل تلافيتها ومعالجتها » ، حتى إن هؤلاء اللغويين الأدعياء نعتوا الشكل القرآنى بالتعقيد وبالخلط المربك المحير ، وبعدم الإتقان والبراعة ، وأخيراً وصفوه أيضاً بأنه يحوى الكثير من الكلمات التى ليست إلا خطأ^(٢) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Draycott) وفى المرجع انظر ص ٧٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) ، وكذلك تحت (Jeffery) كتاب =

وبعض المستشرقين أذهلتهم فواصل القرآن ، وعباراته ، وبخاصة تلك التي تتكرر فيه ، ولا ريب في أن هؤلاء قد أساءوا فهم التغييرات في الوقفات وهي تسهم في تناغم أسلوبه الأدبي ودفعم ذلك إلى استنتاج خاطئ مفاده أن الآيات قد « جمعت بطريقة مبهمة ، وأنها تبدو مفككة مبتورة المعانى »^(١) .

وقد أكد مستشرق معاصر « أن الأسلوب القرآنى حافل بالتكرار الممل ، وأن ثروته المعجمية تعد ضئيلة ، وأن بناء الجملة به غير متقن ، وأن كثيراً من أجزائه يحوى حشواً مبالغاً فيه من الكلام المزخرف والتعبيرات البلاغية البيانية ، كما يحوى في أجزاء كثيرة منه كلاماً ضد العقل والمنطق وذلك فيما يصفه من تسلسل الأحداث »^(٢) .

وأعلن أخيراً عن زعم متسرع ومتهور وينم عن الجهل الشديد باللغة يرى أنه « لا يوجد شيء غير عادى في الأسلوب القرآنى ، وأنه يمكن ببساطة شديدة تفسير تلك الفتنة الطاغية التي تسلب لب قارئه ومستمعيه على أنها نتيجة لحالة افتتان سببها سنوات وسنوات من القراءة والترديد اللذين لا يفتران على لسان أولئك الذين اعتنقوا الدين »^(٣) .

ورأى نفس المستشرق أنه لا يوجد شيء مختلف في القرآن ، وافترض أنه كسجع الكهان (Kahins) ، علماً بأنه لم يذكر أى برهان يتكئ عليه في ادعائه^(٤) . ولنسأل هنا كيف يفسر هذا المستشرق اعتناق الملايين للإسلام بعد النظرة المتأملة في القرآن ؟ وكيف يرى قبول

= (سور من القرآن) ص ٢٠ ، وكذلك تحت (Lammens) ، وكذلك تحت (Rodwell) وفي المرجع انظر ص ٦ ، وكذلك تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٣٦ ، وكذلك تحت (Daniel) .

- (١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص ٧٠ .
- (٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wansbraugh) وفي المرجع انظر ص ١١٤-٢٤٠ .
- (٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) ص ٩٢ .
- (٤) انظر المرجع السابق ص ٨١ .

المسلمين الأول للإسلام وقد كانوا مبهورين بأسلوب القرآن الأدبي ،
واعتناق بعض العلماء الغربيين في تخصصات شتى للإسلام لدى
قراءتهم للقرآن مترجماً ؟

ولدحض هذه الدعاوى فإننا نلجأ إلى التفريق بين اللغة العربية واللغة
الإنجليزية ، ذلك أن التركيب اللغوي للجملية العربية أولاً يختلف عن
مثيله فى الإنجليزية من عدة وجوه ، مما قد يفسر ظهور ارتباك فى المعنى
عند ترجمته حرفياً ، وثانياً لأن فعالية التكرار فى العربية تكمن فى قدرته
على توصيل الحقائق الهامة الأساسية إلى القارئ حين يكون متقناً
للعربية ، وعلى العكس تماماً عند القراء قليلي الإلمام باللغة العربية حيث
إنهم يعتبرونه نوعاً من الزيادة المفرطة ، لذلك فإن المعنى ما كان ليؤدى
دوره بهذه القوة لو كان التأكيد والتكرار بصورة أقل مما هو عليه ، وثالثاً :
إن الوحي الإلهي لا يستهدف سوى أن ينتصر الدين على الكفر ، وأن
تزرع النزعة الخيرة فى صدور الناس بدلا من الفساد والتعفن الأخلاقي ،
وأن يحرص الاعتقاد والإيمان فى القلوب بدلا من الكفر والضلال ، ومن
ثم فإنه من الصعوبة أن يجانب ذلك الوحي فنون البلاغة والبيان ويحيد
عنها ، ورابعاً : تعتبر جميع الكلمات المستخدمة فى القرآن سهلة وواضحة
بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الذين يتقنون العربية ، بالإضافة إلى أن
هناك من الدارسين المسلمين الذين وضعوا مؤلفات لشرح بعض النقاط
القليلة المحيرة للبعض الآخر من المهتمين بعلوم القرآن .

وأخيراً ، فإنه من المعروف كقاعدة أن أية خارقة من الخوارق
الطبيعية لا تتم إلا بوساطة الوحي . أما عن الرد على القول بأن (ثروة
القرآن المعجمية ضئيلة) فإن هذه المقولة ولا شك تبين ذلك القصور فى
فهم هؤلاء المستشرقين بخاصة ، حيث إن البعد البياني المذهل للقرآن
الكريم ينقل إلى المتحدث العربى جمالاً وتناسقاً لا مثيل لهما ، وهذا ما
يجعلنا نمثل هؤلاء المستشرقين بطفل صغير باتت معرفته بالماس فى

حدود ما يلزم به بمروره أمام بعض محال المجوهرات ، ولكنه بالرغم من ذلك قد نصّب من نفسه خبيراً بالماس ، وزعم أنه قادر على تحديد الفوارق بين أنواع الأحجار الكريمة المختلفة .

وهنا يجدر بنا أن نذكر أن الباقلاني وهو أحد الأئمة العرب المبرزين قرر في كتابه (إعجاز القرآن)^(١) أنه لا يمكن لأي كائن أن يقدر إعجاز القرآن حق قدره سوى أهل اللغة والبيان ذوي الخبرة بعلوم اللغة المختلفة . ومن المناسب أيضاً أن نلاحظ كيف أن السيوطي^(٢) قد صنّف خلال بحثه في هذا الفرع العلوم والفنون المنتسبة إلى القرآن ، وعددها إلى ثلاثمائة عنوان ، وهو ما سوف نتعرض له ببعض التفصيل في الفصل القادم ، ولكن ينبغي للإنسان أن يقدر مدى الفشل والعجز الذي يلاقه شخص أجنبي عن اللغة أقحم نفسه في دروب القرآن دون أن يلّم بالعربية إلا إماماً سطحياً ، ثم يملؤه الغرور والجهل فيزعم أن القرآن « أدب مشوش حافل بجمل وتراكيب بعيدة عن الإتقان » ، ويصف كلماته بأنها « تحتوي أخطاء متلازمة سخيفة »^(٣) .

فلا بد للإنسان أن يتعلم اللغة ويتفهمها ويمسك بزمامها جيداً قبل أن يتصدى للحكم على مواطن الجمال فيها .

ويعد البلاغيون عملية تكرار العبارات والجمل الصغيرة لأكثر من مرة في الفقرة الواحدة من ضروب الروعة في الأدب العربي شعراً كان أو نثراً ، لما تحمله من تذكير دائم للقارئ بالمعلومات الهامة أو بالفكرة المحورية التي تحويها تلك الفقرة ، كما أن مثل هذا التكرار المصوغ ببراعة .

(١) ذكر الإمام القاضي أبي بكر الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) ص ٥١ : « فأما من كان متناهِياً في معرفة وجوه الخطاب ، وطرق البلاغة ، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة ، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه ... » (المترجم) .

(٢) جلال الدين السيوطي - كتاب (الاتقان في علوم القرآن) الجزء الأول ص ٦ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٥ ، وتحت (Lammens) ،

وتحت (Daniel) .

يجعل من الفقرة وكأنها لحن بديع يتكرر في الوقت المناسب تماماً ، من خلال سيمفونية موسيقية ، على الرغم من أن ذلك اللحن المتكرر قد يبدو لأولئك الذين فقدوا الذوق الموسيقى أو أصيبوا ببعض الصمم - وكأنه عملية تكرار روتينية آلية .

وهناك ملمح آخر من ملامح الكتابة العربية المتناسقة ، وهو ممارسة عملية تقديم بعض أجزاء في الجملة ، لإعطائها توكيداً أكثر ، ولناخذ مثلاً على ذلك من الجملتين الآتيتين :

الأولى : (على الله نتوكل) ، والثانية : (نحن نتوكل على الله) ،
ولسوف نلاحظ أن المعنيين ليسا متماثلين ، فالحالة الأولى في التعبير تبدو ولا شك جازمة ومؤكدة بأن إيماننا بالله وتوكلنا عليه هو أقوى بكثير من إيماننا بأي شيء آخر ، بيد أن هذا النمط في التعبير لم يدركه بعض المستشرقين الذين رفضوا القرآن بحجة أنه كلام يقلب الأوضاع المنطقية العقلانية (hysteron proteron) (١) .

إذن فكل ما تم نقده في القرآن ووصف بالتناقض يجد تفسيراً آخر لدى البلاغيين العرب على أنه نوع من الشبه أو التطابق ، وكمثال على ذلك هاتان المجموعتان اللتان تعبران عن شيئين متناقضين تماماً وجاء ذكرهما في هذه الآية : ﴿ قل من رب السماوات والأرض ؟ قل الله ، قل أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ [الرعد آية : ١٦]

فكما أنه لا يمكن منطقياً اعتبار معدومي البصيرة متساوين مع ذوى البصيرة الصائبة ، كذلك لا يمكن اعتبار الظلام الدامس مشابهاً للنور

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wansbrough) ص ١٨ ، ص ١١٤ .

الساطع ، وبنفس المنهاج لا يمكن مماثلة أى شىء بالله تعالى ، فلا يستطيع أى من الشركاء أن يدعى أنه يشاركه فى خلقه .

ولقد أبدى الفصحاء من أهل العربية عبر القرون إعجاباً عظيماً بالقرآن ، بل وفتنوا بالتناغم الأدبى فى أسلوبه ، على العكس من كثير من المستشرقين الذين بدوا عاجزين عن تخيل ذلك ، وافترضوا أن العرب لم يروا أو لم يسمعوا بالروائع المكتوبة فى اللغات الأخرى فيقول أحدهم: « لا تجد فى شعراء الإغريق من يقارن بهوميروس (Homer) ، ومن شعراء الرومانية من يقارن بفريجيل (Virgil) ، أما عن شعراء الإنجليزية فلا تجد إلا شكسبير (Shakespeare) الذى لا يبارى »^(١) ، والواقع أن عقد مقارنة بين القرآن وسائر الأعمال الأخرى لشكسبير أو هوميروس أو فريجيل إنما هى مقارنة بلا أساس بالمرّة للأسباب الهامة والرئيسية التى نوضحها فيما يلى :

فلا شك أن أحداً لا ينكر أن مسرحيات شكسبير هى من روائع الإنجليزية فى الأدب والدراما ، لأنها قد كتبت للتسلية ، وقد تتضمن أفكاراً من التاريخ القديم ومن الأحداث المعاصرة له شخصياً ، كما أن لهوميروس قصيدتين شهيرتين هما (الإلياذة) (Iliad) و (الأوديسة) (Odyssey) وأن كليهما عبارة عن قصة ، فالإلياذة مثلاً تصف النزاع بين (أتشيلز) (Achilles) وبين (أجاممنون) (Agamemnon) ، وتصف حروبهما ومهرجاناتهما وجزائزتهما أيضاً ، وكذلك اشتهر فريجيل بقصيدته (أيند) (Aeneid) ، ولكن قصائد هوميروس وفريجيل وغيرهما لم تكن إلا لهدف التسلية ، وليس لهدف التعليم والهداية ، على العكس تماماً من القرآن الذى لم يكن أبداً موجهاً لهدف التسلية واللهو ، وإنما أوحى ليكون هادياً للدين ، وليكون قانوناً متحكماً فى التصرفات والسلوك ، ومبشراً للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ،

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ١٥٦ .

ومنذراً لأولئك الذين يغفلون عن لقاء الآخرة والعمل لها .

والقرآن لا يعد مصدراً للراحة والطمأنينة فحسب ، أو مبعثاً للرضا لأجيال متعاقبة من المتحدثين بالعربية ، وينبوعاً للسعادة والإلهام لها طوال أربعة عشر قرناً من الزمان ؛ إنه ليس كذلك فحسب ، وإنما هو المعيار والمقياس للغته التي صانها منذ تنزيله ، وهو مالا يمكن للمستشرق (منزس) (Menezes) أن يزعمه بأى حال فى أى كتاب وضعه .

وفى مقابل ذلك ؛ فإننا نرى مدى الصعوبة التي يواجهها الآن الإنجليز فى فهم اللغة التي كتب بها شكيسبير كتبه ، أو أى مؤلف آخر يرجع تاريخه إلى أربعمئة سنة ، فقد طرأت على تلك اللغات تغييرات كبيرة وشاسعة ، فأين هذا من القرآن الواضح الجلى للناطقين بالعربية على مدى أربعة عشر قرناً وإلى ما شاء الله ؛ هذا على الرغم من أن روعة أسلوب القرآن وبساطته وعظمته التي لا تضاهى تجعل منه ظاهرة فريدة ، فشكيسبير أو هوميروس أو فريجيل لم يضع واحد منهم مؤلفاً ومكث فيه ثلاثة وعشرين سنة دون أى شىء من المراجعة أو التغيير فى كلمة أو جملة ، كذلك لم يتمكن كتاب واحد من كتب شكيسبير أو غير شكيسبير أن يحرك الملايين من البشر ، ويحولهم من الجهالة إلى النور ، ومن التعفن الأخلاقى إلى أعلى درجة من درجات الشرف والنزاهة ، ومن الهمجية البدوية إلى الحضارة الأخلاقية .

بعض تعليقات المستشرقين على الأسلوب القرآنى :

وعلى الرغم من وجود المستشرقين الذين نقدوا أسلوب القرآن بدرجات متفاوتة من الحدة ، إلا أن عدداً آخر منهم أعجبوا به إعجاباً عظيماً ، فمثلاً قرر (سيل) (Sale)^(١) أنه : « من المعترف به أن لغة القرآن قد بلغت الغاية فى الروعة والنقاء ، ... وقد استند محمد إلى إعجاز الكتاب لإثبات حقيقة بعثته ، وأعلن تحديه لأعظم الرجال

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٤٧ .

وأكثرهم فصاحة ، فقد كان الآلاف من الطموحين فى ذلك الوقت يسعون إلى معارضة الأسلوب القرآنى ومغالبته ، لكن القرآن تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله » ، كما ذكر المستشرق نفسه « ولا شك أن أسلوب القرآن مذهل ، فهو جميل مشرق ، وهو مفعم بذوق شرقى ، فضلاً عن أنه ممتلىء بالتعبيرات الهادية المنمقة التى تنطق بالحكمة ، كما أن المواضع التى تذكر عظمة الله وصفاته هى الذروة فيما قدم الأسلوب القرآنى من فنون البيان » .

هذا ولقد لاقت ترجمة (أربرى) (Arberry) للقرآن إلى الإنجليزية استحساناً كبيراً من كثيرين ، وهو يقول عن أسلوب القرآن : « لا شك فى أن الذخيرة الهائلة من الإيقاعات الشعرية الدقيقة ، قد توافرت فى القرآن بصورة كاملة ، كما برزت فيه الأصول المعجمية ، والمجازات والاستعارات بقوة ، وبصورة شائعة فى النص القرآنى ، فى نفس الوقت الذى كانت فيه دقيقة الأداء »^(١) .

وما من شك فى أن الأسلوب القرآنى قد أذهل العديد من الدارسين الآخرين ، إذ لم تمنعه خصائصه الشعرية من أن يصبح وسيلة للتشريع وللشعيرة ، ودستوراً للأخلاق ، ومنهاجاً للمعاملات الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والحربية ، ودليلاً للمصلى العادى ، ومسرداً للأحداث التوراتية والإنجيلية ، فهو كل فى واحد ، وكما قال المستشرق (بودلى) (Bodley) : « لقد حول هذا الكتاب رعاة الأغنام البسطاء والتجار والبدو فى شبه الجزيرة العربية إلى قوم ذوى بأس وإلى بناء إمبراطورية »^(٢) .

وهذا التغيير غير العادى يرجع إلى قوة الكلمات المختارة بعناية ، والموضوعة فى أماكنها بكل إعجاز وفن ، حتى فاقت قدرة هذه الكلمات

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry) كتاب (ملامح الحضارة الإسلامية)

ص ١١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bodley) وفى المرجع انظر ص ٢٣٩ .

على الأخذ بالألباب والمشاعر قدرة الموسيقى بمراحل كبيرة ، « ولقد نجح القرآن في خلب لب أتباعه ، في حين أن كثيراً من المعارضين تصوروا أن ذلك بتأثير السحر والكهانة »^(١) .

« لا يكفي أبداً أن نخلع صفات الإقناع والروعة على القرآن ، فالعقل يتشبع بأفكاره الوضائية ، ومسلّماته التي لا نقاش فيها ، ولعله ليس بغريب على القرآن الذي يتلى بخشوع أن يفجر الدمع من أعين سامعيه من المتحدثين بالعربية ، كما أن الناس لم تفتقر عن التفكير فيه وتأمله طوال أربعة عشر قرناً حتى أصبح يمكننا القول بأنه بالنسبة إلى جزء كبير من الجنس البشرى نجد اللغة العربية وكتابها هذا منذ القرن السابع الميلادي تمثل بحق لغة الخلود »^(٢) .

وكان تعليق (جوت Goethe) على الأسلوب القرآني قوله : « إن القرآن يبدو إذا ما اقتربنا منه أنه غريب عن قارئه ، ولكنه تدريجياً سرعان ما يجذب ويدهش حتى ينتزع الإعجاب من قارئه في النهاية انتزاعاً »^(٣) .

تعليقات اللغويين العرب المحدثين :

لقد أشارت المراكز الأدبية الحالية بجامعة الأزهر بالقاهرة إلى الطرق الآتية التي يعجز بها الأسلوب القرآني قدرة الإنسان ، ويتحدى بها أيضاً أية محاولة للمحاكاة والتقليد^(٤) :

١ - فصورة القرآن لا تعكس نعومة أهل الحضرة ، كما أنها لا تعكس الغلظة البدوية لأهل البادية ، ولكنها تمزج بالنسب المثالية ما بين حلاوة الصورة الأولى وقوة الصورة الثانية .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (K. Morgan) وفي المرجع انظر ص ٢٧ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Williams) وفي المرجع انظر ص ٢ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bodley) ص ٢٣٧ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (K.W. Morgan) ص ٢١ ، ص ٣٥ .

٢ - تغلب في القرآن إيقاعات المقاطع اللفظية بصورة أكبر منها في النثر ، كما أنها توجد فيه بصورة أقل منها في الشعر ، وكذلك السكتات (الوقوف) بين المقاطع لا نراها لا في النثر ولا في الشعر ، ولكن تأتي بصورتها المتناسقة المتناغمة المستقلة .

٣ - إن حضور الكلمات رائع ، ففيه أقل عدد من الكلمات بحيث لا تعطى نوعاً من الاختزال ، ولكنها ثرية في المعاني إلى أقصى حد .

٤ - كلمات القرآن في التعبير منتقاة بكل عناية فهي ليست بالدارجة والبسيطة ولا هي بالنادرة المبهمة ، ولكنها جعلتنا نستشعر بغاية الإعجاب تعبيرها عن كل نبل وشرف وفضيلة .

٥ - إن إيجاز التعبير في القرآن واضح وضوحاً كاملاً ، لدرجة أن أقل متعلم عربي يمكنه فهمه دون أية صعوبة . وفي نفس الوقت فإن ما فيه من القوة والمرونة والثراء العريض من الأفكار يجعله خادماً لأصول النظريات والقوانين في العلوم الإسلامية ، والكلامية ، والمدارس الفقهية ، لدرجة أنه قد يبدو مستحيلاً أن نعبّر عن الأفكار الموجودة بالنص وشرحها بتفسير واحد ، باللغة العربية ، فضلاً عن أية لغة أخرى مهما بذل من عناية وتأنق .

٦ - لا شك في أنه يجمع بين كل من القوتين المتضادتين : فنحن نعلم أن الانفعال والإحساس يعاديان المنطق ، وأن الذكاء والفطنة يعاديان الشعور ، ولكننا فيه نرى أن الكلمات التي في القصص ، وفي المناقشات والمناظرات ، وفي التعليم والقوانين التشريعية ، وفي النظريات الأخلاقية ، ما هي إلا وسيلة تعليمية مقنعة للغاية ، على الرغم من أن لديها في نفس الوقت قوة فائقة تثير الإحساس والعاطفة .

لذلك نجد أن أسلوب القرآن في كل سورة محافظ للغاية على مدى هيئته المعجزة ، وقوته وجلاله اللذين لا يمكن لأي شيء أن يغيرهما ولو تغييراً طفيفاً .

ومن المعروف أن القرآن قد نزل منجماً في شكل فقرات متفاوتة الأطوال ، وتم ذلك في غضون ثلاثة وعشرين عاماً ، وأن هذه الأجزاء لم يكن ترتيبها حسب الترتيب الزمني للنزول ، ولا حسب الموضوع الذي تتطرق إليه هذه المقاطع ، ولكن جاء ترتيبها بطريقة متنوعة لا تعتمد على شيء إلا على الأمر الرباني ، حتى لقد يظن بعض الجاهلين أنه ترتيب اعتباطي . فمتى شرعنا في دراسة القرآن ، بدءاً بمستوى تركيب الآية الواحدة ، ومروراً بمستوى مجموعة من الآيات التي تتناول نفس الموضوع حتى نهاية السورة ، وانتهاءً بنهاية الكتاب - فإننا نجد خطة شاملة يعجز البشر عن وضعها لما لها من إيقاع خاص متناسق يسير بالتساوي في كل أجزاءه ، كما نجد فيه أسلوباً مشتركاً في اللحن والنغمة ، ويصاحب ذلك خطة منطقية تؤدي بتلازم تام كل الأفكار المتولدة بكل وضوح .

وإذا نظرنا نظرة موجزة إلى التطور في التعاليم القرآنية عبر المرحلتين^(١) اللتين مرت بهما البعثة ، فإننا نجد أن المبادئ الأولية الأساسية للدين قد تم عرضها في السور المكية ، ثم حفلت السور المدنية بالتطبيقات المنظمة لهذه المبادئ . ولا شك في أن هذه الملحمة من الأحداث قد استمرت منذ اليوم الأول للنداء الإلهي حتى حجة الوداع عندما ألقى النبي خطبته الخالدة ، فلا شيء قد بات مرتجلاً في القرآن ، وإنما تم التنبؤ بكل شيء من البداية إلى النهاية حتى أدق التفاصيل ، بل وشاملة أيضاً موت النبي ﷺ وتوقيته ، مما يدفعنا إلى التساؤل ، من كان يستطيع أن يضع ذلك المخطط الكامل الشامل غير الله سبحانه وتعالى الذي جاءت من لدنه هذه الرسالة السماوية ؟

فمن الواضح إذن أنه لكي يشرع أي مؤلف للقيام بتأليف مثل هذا الكتاب ، لا بد له من أن يتنبأ بوقوع الأحداث وتفاصيلها ، ولا يكون هذا

(١) المرحلتان : المكية والمدنية (المترجم) .

التنبؤ متعلقاً فقط بالأحداث التي تقع طوال فترة البعثة ، سواء أكانت مشكلات أو حلولاً لها ترد في الآيات المتعلقة بها ، وإنما ينبغي عليه أيضاً أن يصوغ الأسلوب الأدبي ، وأن يحقق الإيقاعات المتناغمة لهذه الآيات ، بحيث تتناسق مع ما سوف يأتي بعدها ، كذلك لا بد أن يضع الهيكل الكامل الملائم للفقرات التي سوف ترد وتصف ما سوف يأتي بعد ذلك ، مع تحديد الموقع لكل فقرة ، بحيث تتناسق جميعاً عند كمال الكتاب في نهاية الفترة .

ومن ثم فإننا لا بد أن نسلّم بأنه لا يوجد إنسان قادر على معرفة الغيب بنفس التفاصيل التي نسبت للقرآن حتى يمكنه تأليفه بتلك الصيغة المعجزة ودون حاجة لمراجعة أية سورة أو آية ، أو حتى أية كلمة .

تردد ظهور الحروف الهجائية في القرآن :

لقد أجريت دراسة احصائية جادة أخيراً^(١) حول توزيع الحروف الأبجدية في المائة والأربع عشرة سورة الموجودة بالقرآن ، وتم التوصل إلى الاستنتاجات الآتية :

أولاً : يوجد شكل عام للتوزيع الأبجدي للحروف في كل سورة .

ثانياً : إن السور التي تبدأ بحروف مستقلة بذاتها مثل (ألف ، لام ، ميم) في سورة (البقرة ، وآل عمران ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة) لديها أكبر معدل لوجود هذه الحروف بها بخاصة ، كما أنها تتبع نظاماً معيناً للتوزيع مع سائر السور الموجودة في القرآن ككل .

ثالثاً : لقد أثبتت التحليلات أن الشكل العام للتوزيع الأبجدي في كل سور القرآن ، وكذلك في الآيات داخل كل سورة ، بل وحتى في هجاء الكلمات ، هذا الشكل ليس بعشوائي ، بل إنه اختير بحكمة بالغة^(٢) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (R. Khalifa) كتاب (معجزة القرآن) .

(٢) مع أن هذه المعلومات الخاصة بتردد الحروف وأعدادها - هي من حقائق القرآن ، فقد =

ف نجد في كل من سورة (الشورى) وسورة (ق) مثلاً توضيحياً ،
فكلتا السورتين تبدأ بحروف مستقلة تشمل الحرف (ق) ، وهذا الحرف
يظهر سبعة وخمسين مرة في كل منهما ، مع أن طول سورة (الشورى)
يبلغ ضعف سورة (ق) ، كما أن الحرف (ق) قد ظهر في السورتين
مجتمعتين بعدد (١١٤) مرة وهو نفس عدد السور الكلى في القرآن
الكريم .

وهناك مثال آخر يتعلق بتلك الآية الأولى في المصحف ، وهي :
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، فعدد الحروف العربية في هذه الآية هو
تسعة عشر حرفاً ، وكررت كلمة (الله) في القرآن كله بعدد (٢٦٩٨)
مرة ، وكررت كلمة الرحمن بعدد (٥٧) مرة ، وكلمة (الرحيم)
بعدد (١١٤) مرة ، وكما نعلم أن كلا من هذه الأرقام تقبل القسمة
على الرقم (١٩) ، وكذلك عدد السور الكلى في القرآن الكريم .

ولكى ندرك تلك المعجزة القرآنية ، دعنا ننصرف إلى المثال المبسط
التالى ، ولنفترض أنه قد طلب منك أن تؤلف كتاباً مكوناً من عشرة
فصول غير متساوية ، حيث يحوى الفصل الأول أعلى تكرار للحرف
(ألف) ، بينما يحوى الفصل الثانى أعلى تكرار للحرفين (باء) و(جيم) ،
بالطبع قد يبدو ذلك صعباً نوعاً ما ، ولكنه ليس بمستحيل ، إذ ينبغى
عليك أن تختار كلمات مناسبة بحيث يتم تحقيق هذه الشروط فى
النهاية .

والآن ، وقد أضيفت شروط جديدة ، وهى أن الفصول الثلاثة
الأولى لابد وأن تحوى نسبة أعلى فى حرف (ذال) من الفصل الرابع ،
كما أن الفصول الثلاثة الأخيرة ينبغى لها أن تحوى عدداً أقل فى عدد
مرات التكرار الأبجدي للحروف (زاي) و(كاف) ، من عددها فى

= استغلها بعض ذوى الأغراض المعادية للإسلام للبرهنة على وجهة نظرهم البهائية ، وهو ما
نرفضه جملة وتفصيلاً . (المترجم) .

الفصل السادس ! لا شك في أنك ستجد الكتاب الذي تؤلفه قد صار هائلاً رهيباً في صعوبته وتعقيده .

ويجب ألا ننسى أيضاً أن هذه الكلمات المحكومة بنظام رياضي دقيق لا بد لها أن تبنى جملاً تعبيرية على درجة كبيرة من الإفادة ، وأن هذه الجمل تبدو متقنة للغاية من الناحية اللغوية والنحوية ، والرياضيات تخبرنا أن الإنسان لكي يكون التوزيع الرياضي للحروف الهجائية في القرآن لا بد وأن يعرف على الأقل ٨٢٦ كوادريليون^(١) من تجميعات الحروف الهجائية . ومن ثم فإن كتابة الآيات على النحو الذي هي به يعد إنجازاً لا يبارى في عظمته ، كما أن نزول الآيات على مراحل متتابعة لفترة استغرقت أكثر من عقدين من الزمان دون مراجعة أية آية أو كلمة ، كل ذلك يضيف ولا شك إلى الطبيعة الإعجازية للقرآن المجيد .

الحروف الخاصة في مطالع السور :

وعدها أربعة عشر حرفاً ، وتأتي في أربع عشرة مجموعة في مطلع تسع وعشرين سورة ، والمثال الوارد آنفاً يكفي ، ولكن هناك مثلاً آخر هو (ألف ، لام ، راء) - (ألر) وقد جاء في السور (يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر) ، ولا شك أن هذه الحروف ومجموعاتها قد دفعت بكثير من الدارسين من الشرق والغرب ليعلقوا عليها ، على حين رأى كثير من الباحثين المسلمين في هذه المجال أن هذه المجموعات من الحروف الخاصة ذات سر غامض ، وقد يكون هذا السر ذا علاقة وثيقة بالطبيعة الإعجازية للقرآن ، ويمكن تلخيص النظريات الرئيسية كما يلي :

إن هذه الحروف تمثل تحدياً صارخاً لأي إنسان بأن يحاول أن يخط عملاً أدبياً يضارع به روعة القرآن وجلاله ، مستخدماً نفس الحروف

(١) الكوادريليون : رقم مؤلف من واحد وإلى يمينه أربعة وعشرون صفراً كما في القاموس البريطاني . (المترجم) .

الهجائية ، والتي تعتبر هذه الحروف الخاصة أمثلة لها ، فهي إذن بمثابة رموز سرية ، كما أنها تعتبر أسماء رمزية للسور أو لمجموعات السور التي تحتويها .

وقد تناول (عبد الله يوسف على) موضوع السور التي تبدأ بالحروف المستقلة^(١) في ترجمته للقرآن ، فكتب عن سورة (ص) التي تستهل بالحرف (صاد) فقال : إن الحرف يعبر عن (القصص) ، ففي هذه الكلمة يعتبر حرف الصاد (ص) هو الحرف الصامت الرئيسي فيها ، ويكمل مستطرداً : « لقد اهتمت هذه السورة بقصتي داود وسليمان ، وجعلتهما مثالين واضحين للقوى الغيبية في مواجهة قوى الدنيا »^(٢) .

في حين زعم (سليل) (Sale)^(٣) زعماً غريباً متعلقاً بنفس السورة ، سورة (ص) ، وهو أن الحرف (ص) يقصد به سليمان ! وكفى بالحدس دليلاً على خطئه إذ إن حرف الصاد لا يأتي أبداً في اسم (سليمان) عند كتابته بالعربية كما نرى .

وهناك زعم آخر أطلقه (نولدكه) (Noldeke) عن الحروف الخاصة المذكورة في مطالع السور، فقد افترض أنها عبارة عن مجموعة اختصارات ترمز لأسماء الأشخاص الذين جمع منهم (زيد)^(٤) أجزاء القرآن بعد وفاة الرسول ﷺ وذلك لوضعها في مصحف واحد ، فأخذ (ألف لام ميم) - (ألم) ليشير إلى (الزبير)^(٥) ، وأخذ (ألف لام ميم راء) - (ألمر) رمزاً إلى (المغيرة)^(٦) ، وكذلك أخذ (طه) ليرمز لاسم (طلحة)^(٧) ؛

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A.Y. Ali) وفي المرجع انظر ص ١٧ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A.Y. Ali) ص ١٢١٧ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) ص ٣٣٩ .

(٤) هو زيد بن ثابت (المترجم) .

(٥) هو الزبير بن العوام (المترجم) .

(٦) هو المغيرة بن شعبة (المترجم) .

(٧) هو طلحة بن عبيد الله (المترجم) .

وهكذا، ثم يكمل زعمه فيقول (نولدكه) : « ومن ناحية أخرى ، فإن هذه الحروف ربما كانت عبارة عن حروف أبجدية وضعت علامات على صناديق الرقاع التي حوت أقوال الوحي مبعثراً غير منتظم ، ثم جمعه زيد ابن ثابت في المصحف » .

ولقد يبدو غريباً أن (بالمر) (Palmer)^(١) قد احتفى بمزاعم (نولدكه) وأعلن أنها نظريات تدل على براعة وإبداع ، ولكن يظهر لنا لأول وهلة أن أولئك المستشرقين قد ضلوا طريقهم في البحث عن حقيقة هذه الحروف الخاصة وذلك لأسباب عديدة :

أولها : أنه لا يمكن بدء الزعم بالتجرؤ على صحابة رسول الله ﷺ وهم الذين لم يخطر ببالهم أن يحذفوا من الوحي الإلهي حرفاً أو يضيفوا إليه حرفاً .

وثانياً : إن التاريخ يروى أن هذه الحروف قد أوحيت في مطلع سورها ، وأن النبي ﷺ نفسه هو الذي نطق بها في مواقعها مع الآيات ، وقد حدث ذلك قبل أن يشرع زيد ورهطه في جمع الرقاع أو استعمال العلامات الأبجدية لترقيم صناديقها إن كان حقاً قد استعمل أية علامات .

وأكثر من ذلك يجب أن نسأل، إن كلت هذه الحروف اختصارات أو حتى علامات أبجدية لترقيم صناديق الرقاع ، فما الذي يمكن قوله عن الأغلبية من السور التي لا تبدأ بهذه الحروف ؟

لقد غامر (مارجوليوث) (Margoliouth)^(٢) بفرضية سقيمة حين وصف الحروف الخاصة بقوله : « إنها ليست بذات معنى أو مضمون ... والاحتمال الأكبر أنها عبارة عن اختبارات أجريت بالقلم أو بالصوت قبل بدء كتابة الوحي أو قبل النطق به » .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) ص ٣٨ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Margoliouth) كتاب (المحمدية) ص ٧١ .

وهكذا ، نكون قد اطلعنا على التناقض الواضح بين الآراء الدارسة
والأخرى غير المسئولة حول موضوع الحروف الخاصة ، وقد يبدو من
الحكمة أن نتدبر كل حرف من قول الله تعالى : ﴿الر كتاب أحكمت
آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [هود آية : ١]

موضوع القرآن :

وبعد أن انتهينا من تناول الأسلوب القرآني ، ومختلف التعليقات
عليه ، فإنني أرى أن نشرع الآن بدراسة بعض من الآيات التي لا يمكن
لمحمد ﷺ ولا لأي بشر أن يخرعها مهما كانت درجة خصوبة فكره ،
والتي لا يمكن أن يكون قد تعلمها من أحد ، وسوف نتطرق لدراسة
آيات أخرى كثيرة في مواضع أخرى من الكتاب^(١) ، فالله تعالى يقول :
﴿خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد
بكم وبث فيها من كل دابة﴾ [لقمان آية : ١٠]

وتشير الآية إلى أن السماوات تبقى في أماكنها بعيدة عن الأرض
تحت تأثير قوتين ، هما : قوة الجاذبية الأرضية وقوة الطرد المركزي -
وهما قوتان لا يمكن بالطبع رؤيتهما بأعيننا ، فلو أن محمداً ﷺ هو
الذي كتب هذه الآية قبل اكتشاف الجاذبية بين الأرض والكواكب
الأخرى ، بل وقبل معرفتنا الحالية بالكون من حولنا ، فلماذا تحوى الآية
تعبير (ترونها) ؟ ولماذا لم يقل ببساطة « خلق السماوات بغير عمد » ؟
بل وأكثر من ذلك ، كيف استطاع محمد ﷺ أن يفكر في أن وجود
الجبال في أماكنها ، وبفعل وزنها الخاص يحدث نوعاً من الاتزان
الميكانيكي للأرض حول محور دورانها فلا نشعر - نحن ساكنيها - بأي
اضطراب أو اهتزاز أثناء دورانها بسرعتها الهائلة ؟

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (El-Ghamarawy)

وكذلك انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bucaille) .

ولنقرأ هذه الآيات أيضاً :

﴿ أفرايتم الماء الذى تشربون * أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ﴾^(١)

[الواقعة آية : ٦٨ - ٧٠]

وهذه الآيات إن كانت من ضمن قول محمد ﷺ ، فكيف بلغ إلى علمه أنه ستكون هناك محاولات للإنسان لاستنزال المطر ؟ وكيف عرف أن المطر ، والذى يكون عادة مقطراً ونقياً ، يمكن أن يتملح أو يصبح من العسير شربه ؟ ولمَ لم يقل فقط مثلاً : « لو نشاء لأوقفناه » ؟

ولنقرأ أيضاً قوله تعالى :

﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ﴾ [يونس آية ٥]

وقوله : ﴿ ألم تر كيف خلق الله سبع سماوات طباقا * وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾ [نوح آية : ١٥ - ١٦]

وقوله : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ [يس آية : ٤٠]

ونسأل ، كيف عرف محمد ﷺ - أو كيف علمه أحد أن الشمس هى مصدر الضوء - السراج - وليس القمر مع أنه مضاء ؟ وكيف استطاع أن يعرف أن البدر المنير ليس بسراج يصدر ضوءه الخاص به ؟ بل وكيف أدرك أن الشمس أيضاً تسبح فى فلك وحولها مجموعتها التى يسبح كل من أعضائها فى مداره الخاص به ، ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾ .

(١) إن كلمة أجاجا لا تعنى كما ترجمت (المالح قليلا) ، ولكنها تعنى أنه لا يمكن تذوقه إما لأنه مر أو حامض أو كاو ، وعلماء طبيعة الأرض بلغ إلى علمهم أن شحنات البرق والتى تكون عادة مصاحبة بالمطر قد تؤدى إلى تفاعلات كيميائية بين أكسوجين الهواء الجوى وتروجينه مما يكوّن أكسيد النيتروز الذى يذوب فى ماء المطر قبل نزوله مكوناً حمض النتريك .

ثم لنقرأ قوله عز وجل : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾
[يونس آية : ٦١]

وقوله : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾
[النساء آية : ٤٠]

فكيف خطر على بال محمد صلوات الله وسلامه عليه ذكر الذرات ؟ وكيف أفردتها - بمعنى جعلها مفرداً - فقال : ﴿ من مثقال ذرة ﴾ ؟ وكيف تطرق إلى خاطره أن هناك شيئاً يمكن أن يكون أصغر من الذرات في (يونس آية ٦١) ، بل وتمعن التعبير ﴿ من مثقال ذرة ﴾ الذي ينم عن اختلاف مثاقيل الذرات المنفردة بعضها عن بعض ، نفهم ذلك من الآية الكريمة ونرى أن العلم الحديث لم يتمكن إلا من معرفة متوسط أوزان الذرات المكونة لكل من المواد الأساسية ، ولكل (أيزوتوب)^(١) لها ، أما معرفة مثقال كل ذرة على حدة وتحديد التفاوت بينها فلم يتم حتى الآن ، فسبحان من أنزل القرآن منذ أربعة عشر قرناً ، وفي الوقت الذي اعتبر في العرب أن أقل كتلة في الوجود هي لحبة الخردل أو لجناح البعوضة ؟

واليك قوله تعالى :

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق
أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾
[فصلت آية : ٥٣]

ومرة أخرى ، كيف عرف النبي عليه الصلاة والسلام أو عرفه مخلوق آخر أن الإنسان سيأتي عليه يوم يستطيع فيه رؤية أشياء بعيدة عن الأرض في الفضاء الخارجي ، وكذلك يقدر أن يرى أشياء قريبة ، بل في داخل نفسه ، وذلك قبل قرون عديدة من اختراع التليسكوبات أو

(١) الأيزوتوب هو : النظائر المشعة .

الميكروسكوبات، ومن اكتشاف الأشعة السينية، والموجات فوق الصوتية!؟
وهذه آية، من كتاب الله: ﴿ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نَسَقِيكُمْ مِمَّا
فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِينًا خَالصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل آية ٦٦]
إن الحقيقة القائلة بأن اللبن الناتج عن الغدد الثديية في الحيوانات ،
وهذه الغدد تستمد غذاءها من نواتج هضم الطعام التي يحملها إليها
مجري الدم ، هذه الحقيقة تعتبر كشفاً علمياً حديثاً لم يطلع عليه أحد
قبل القرن العشرين ، إذن ؛ فكيف استطاع محمد ﷺ أن يفكر فيها إن
كان هو واضع الآية السابقة ؟

وآية أخرى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ
جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ
مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون اية : ١٢ - ١٤]

وأيضاً قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نَصْلِيهِمْ
نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء آية : ٥٦]

ولنرجع ثانية ، ونسأل من علم محمداً تلك المعلومات العلمية
الدقيقة عن المراحل المتميزة لنمو الجنين داخل الرحم ؟ ومن عرفه ذلك
الوصف الصحيح تماماً للسائل المخصب ، كما جاء في سورة الإنسان :
﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾
[الإنسان اية : ٢] ، من أين له تلك الحقيقة القائلة بأن أعصاب الحس
تتركز في الجلد ، فما إن يحترق الجلد حتى تتلاشى حاسة الإحساس ؟
وهذه آية من كتاب الله : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلَقَ آيَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس اية : ٩٢]
فهذه الآية تتحدث عن فرعون مصر الذي تعقب موسى وبنى

إسرائيل إلى البحر الأحمر حيث غرق فيه ، ثم استنقذ جسده ودفنه
المصريون في مقبرته الملكية قبل حوالي ألفى سنة من ميلاد الرسول
ﷺ ۱۱؟

ثم حدث أخيراً ، وفي أوائل القرن الحالى ، وبعد حفريات كثيرة
فى أرض مصر ، أن اكتشف جسد الفرعون ، ووضع للعرض فى المتحف
بالقاهرة حيث تتسنى رؤيته الآن .

فهل يمكن التسليم بأن محمداً ﷺ قد تعلم من بشر أى شىء عن
نجاة جسد فرعون ، وعن اكتشاف مقبرته وعن عرضه على الملأ اليوم ،
وليكون لمن خلفه آية ؟

وهل أتى بشر على عهد محمد بشىء من هذا القبيل ؟

إن القرآن يحوى آيات كثيرة تشمل الطبيعة التنبئية والتي تؤكد من
حيث إنه وحى من السماء ، فكما يسجل التاريخ ؛ هاهى ذى بعض
الأحاديث التى تنبأ بها وحدثت بالفعل بعد ذلك بسنوات ، ومن ذلك
قوله تعالى : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ [الضحى اية : ٥]
﴿ **سيهزم الجمع ويولون البدر** ﴾ [القمر اية : ٤٥]

لقد نزلت الآيتان السابقتان على قلب محمد ﷺ عندما كان فى
مكة ، حيث كان هو والمؤمنون معه يعانون من جميع أنواع الاضطهاد ،
والذى حدث أن النصر والمجد اللذين لم يتوفرا لأحد قط على لعهده ،
سارعا إليه وحالفاه بعد ذلك فى المدينة .

وهذه آية من إعلام النبوة : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق
لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين
لا تخافون** ﴾ [الفتح آية : ٢٧]

ونزلت هذه الآية بعد أن منع كفار مكة النبى ﷺ ورفاقه المعتمرين

من دخولها ، ثم اتفقوا معهم على أن يعود محمد - هو وأصحابه لقضاء
عمرتهم بعد عام (لا يحملون معهم سلاحاً) (١) .

وإليك آية من أغرب آيات القرآن : ﴿ ألم * غلبت الروم * فى
أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر
من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ﴾ [الروم آية : ١ - ٤]

وهذه الآيات من الوحي المكي ، وهى تتنبأ بأن إمبراطورية الروم
الشرقية ، التى كانت تعاني من وقع هجمات الفرس فى بدايات القرن
السابع ، هذه الإمبراطورية سوف تنتصر فى نفس الوقت الذى أوحيت
فيه هذه الآيات كانت المعركة الأولى بين الفرس والروم ، التى احتل
فيها الفرس الشام ونصبوا من أنفسهم حكاماً لفلسطين ، ونهبوا بيت
المقدس ، وبذلك فقدت الإمبراطورية الرومانية جزأين هامين جداً من
أراضيها . لقد أجهدت هذه الحرب الروم حتى لم يكن أحد يتصور أنهم
من الممكن أن يستردوا بلادهم الضائعة ، ولكن على العكس من كل
التوقعات آنذاك ، لقد تحققت النبوءة السابقة بعد حوالى تسع سنوات !!
حيث لم يكتف الروم بطرد الفرس من إمبراطوريتهم (بيزنطة) ،
ولكنهم طاردوهم داخل حدود بلاد فارس ، وسلبوا مدينة (المدائن) (٢) ،
ونلاحظ هنا أن نفس الآية تحتوى أنباء أخرى طيبة وهى ﴿ ويومئذ يفرح
المؤمنون ﴾ ، والواقع أن المسلمين قد فرحوا بنصر الروم لكونهم أهل
كتاب ، على العكس من الفرس الذين يكفرون بوجود الله ، فهم مجوس
من أتباع (زرادشت) ، وأحرز المسلمون نصراً مؤزرأ على قريش فى
المعركة الأولى الفاصلة فى نفس الوقت تقريباً .

وهذه آية أخرى : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل

(١) كان الاتفاق فى صلح الحديبية (سنة ست للهجرة) ، وكانت العمرة فى العام السابع
للهجرة وسميت عمرة القضاء .

(٢) انشر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) ص ٣٤٤ .

تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴿ [الطور آية : ٣٠ - ٣١]

إن المقصود في هذه الآيات هم كفار مكة ، وقد قررت أن النبي ﷺ لن يموت فجأة إلا بعد توصيل الدعوة إلى الافاق . وبالفعل لقد رحل النبي إلى الرفيق الأعلى بسلام بعد حوالي اثنين وعشرين عاماً من نزول هاتين الآيتين ، وبعد أن وصلت كلمات الله كلها إلى الناس . ولنسأل ؛ لو كان محمد ﷺ هو واضع الكتاب بنفسه أو بمساعدة غيره فكيف تجرأ إذن أن يُضَمَّنَ مؤلفه عبارات لا مبرر لها ، معرضاً دعوته للخطر ؟ أو بمعنى آخر ، كيف تأكد صلى الله عليه وسلم من المستقبل ؟

وفي القرآن الكريم نبوءة أخرى تتعلق بحفظه ، فمن المعروف والمسلم به من الجميع شرقاً وغرباً أن ما في المصاحف التي توجد في أى من بلاد العالم - على مدى أربعة عشر قرناً - يطابق بعضها بعضاً ، وهى كذلك تطابق ما نزل على قلب الرسول ﷺ .

لقد شهدت تلك القرون تغييرات شتى في العالم ، فقامت حضارات وانطوت إمبراطوريات ، وماتت لغات ، وما جرى للعالم العربى والإسلامى من تطورات سياسية عبر تلك القرون لا يخفى على أحد ، وبالرغم من كل ذلك فالقرآن الكريم كتاب الله مازال محفوظاً ، وسوف يظل بإذن الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها مصداقاً لقوله تعالى :
﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر آية : ٩]

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾

[فصلت آية : ٤١ ، ٤٢]

﴿ إنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون ﴾

[الواقعة آية : ٧٧ - ٧٩]

﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد

[الكهف آية : ٢٧]

من دونه ملتحدا ﴾

هذا الحفاظ لكل كلمة ، بل لكل حرف ، من كتاب الله من أى
تبديل عبر القرون هو تحقيق لما ورد فى الكتاب نفسه .

كذلك ينبغى علينا أن نلاحظ أن الرسول ﷺ لم يأت بصورة
المتكلم فى القرآن ، وإنما كان يشار إليه بضمير الغائب برذعان وتسليم
كما ترى ذلك مسجلاً فى القرآن إلى الأبد ، كما أننا نجد أن هناك
آيات تريحه وتهون عليه عندما كان يكتب أو يغتم ، وهامى ذه بعض
أمثلة لمثل هذه التوجيهات :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما
بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم
الكافرين ﴾ [المائدة آية : ٦٧]

﴿ تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الأقاويل .
لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه
حاجزين ﴾ [الحاقة آية : ٤٣ - ٤٧]

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو
قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً
وسيجرى الله الشاكرين ﴾ [آل عمران آية : ١٤٤]

﴿ ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض
ظهرك * ورفعنا لك ذكرك * فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر
يسرا * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب ﴾ [الشرح آية : ١ - ٨]

المحصلة :

والآن ، وبعد أن تناولنا بعض الأفكار حول الأسلوب الأدبى فى
القرآن ، وحول قضاياها وتنبؤاته ، وحول كيفية التعرض لمحمد ﷺ من
خلاله ، فلنقرأ ونتدبر قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على

عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم
صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس
والحجارة أعدت للكافرين ﴿ [البقرة آية : ٢٣ - ٢٤]

فإن كان محمد ﷺ مختلقاً للقرآن ، فهل كان يجرؤ على تحدى
الكافرين بأن يأتوا بصورة من مثله ؟ وهل كان يعلن ذلك بنفس نبرة
التأكيد ﴿ ولن تفعلوا ﴾ ؟

وفى الواقع ؛ لا يزال هذا التحدى قائماً إلى يومنا هذا ، وإلى أن
تقوم الساعة .

* * *

الفصل الثالث

الكتابة الأولى للقرآن

نزول القرآن منجماً :

عرف المجتمع المسلم الأول محتويات القرآن على مراحل في غضون الفترة ما بين سنة (٦١٠) وسنة (٦٣٢) ميلادية ، وهو ما أدركه المؤرخون والدراسون في الشرق والغرب ، سواء في ذلك المسلمون وغير المسلمين .

وقد ذكر بعض العلماء^(١) أن الخمس سنين الأولى لبعثة النبي ﷺ ، والتي قضاها في مكة تضمنت اثنتين وخمسين سورة أغلبها كانت من قصار السور ، فشكلت بذلك عشر حجم القرآن ، ثم أوحى إليه خلال الثمان سنوات الباقية ستون بالمائة أخرى من القرآن ، أما بعد نمو المجتمع المسلم تدريجياً في السنوات الشعري التالية وأثناء نمو المجتمع الإسلامي بالمدينة ، نزلت الثلاثون بالمائة الباقية من القرآن وكانت متضمنة طوال السور .

كتابة القرآن وحفظه المبكر :

وقد حدث من وقت مبكر للبعثة النبوية ، بل ومنذ الوحي الأول ذاته ، أن شدد الحق سبحانه وتعالى على كتابة آيات القرآن وتلاوتها فقال في أول محكم آياته : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق آية ١ - ٥] ، ثم جاءت السورة الثانية مبتدأة بـ : ﴿ ن

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.A. Ali) ، وكذلك كتاب (علوم القرآن) للمؤلف أحمد عادل كمال والذي صدر عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة ١٩٧٤ .

والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴿ [القلمآة : ١ - ٢]
وعلى ذلك فإننا نرى أن التوكيد على القراءة والكتابة قد بدا جلياً
واضحاً منذ أوائل الوحي .

ولنقرأ في السورة الثالثة : ﴿ يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً *
نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ﴾

[المزمل آية : ١ - ٤]

ومن الملاحظ أن الترتيب الزمني لهذه السور هو (١-٢-٣) ، على
حين جاء ترتيبها في المصحف (٩٦-٦٨-٧٣) ، وهي ملحوظة سيتم
تناولها في هذا الفصل .

ونعود فنقول إن عمليات الحفظ والكتابة والاهتمام بكل جزء من
أجزاء القرآن قد لازمت رعاية بالغة منذ الأيام الأولى للدعوة الإسلامية ،
فمن المعروف تاريخياً أن كتاب الوحي قد سجلوا القرآن تحت الإشراف
المباشر للنبي ﷺ وهو الذي لم يكتب لأميته ، فكان يكتفى بأن يملى
عليهم^(١) ، ثم يعيدوا قراءة ما كتبوه .

ومن المسلمين الأوائل أبو بكر ، وعلي بن أبي طالب وعثمان بن
عفان وزيد بن ثابت وعمر بن الخطاب وآخرون ممن كانوا يتقنون القراءة
والكتابة ، وهؤلاء لحبهم للنبي عليه الصلاة والسلام - وهو حال
المسلمين جميعاً - اعتادوا ملازمته أغلب الوقت ، ليتعلموا الدين منه ،
وليحفظوا ما يقول وما يفعل ، لدرجة تصل إلى أدق التفاصيل ، وقد
عين النبي ﷺ عثمان وزيدا وآخرون كتبة له ، وكان يزيد عددهم تبعاً
وفقاً لزيادة عدد المجتمع الإسلامي ، حتى بلغ عددهم اثنين وأربعين كاتباً
قرب ختام الوحي .

(١) كتاب الاتقان في علوم القرآن (الجزء الأول) - دار الحلبي - القاهرة سنة ١٩٥١ ،
وكذلك انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Burton) ،

ولا شك أن المسلمين يقدسون القرآن تقديساً شديداً ، ويحبونه حباً
جمّاً ، فهو لهم كتاب الله ، لذلك فقد استخدم العرب المسلمون
ذاكراتهم الحديدية بحماس لحفظ كل ما تعلموه عن ظهر قلب ،
ولصون كل وحى منزل حملة إليهم رسول الله ﷺ في صدورهم ، وقد
كان لديهم الوقت الكافي لحفظ كل تنزيل على حدة ، إذ إن القرآن
استمر نزوله مدة طويلة بلغت ثلاثاً وعشرين سنة ، ومحتواه من الكلمات
يقدر بسبعة وسبعين ألفاً وستمائة وتسع وثلاثين كلمة .

ومن أحكام العبادات المهمة لدى المسلمين تلاوة عدد من آيات
القرآن خلال الصلوات الخمس المكتوبة كل يوم ، وقد اتبع المسلمون
المتحمسون ما ضربه لهم الرسول مثلاً ، فكانوا يتلون طوال السور
ولساعات في صلاتهم أثناء الليل ، حيث اعتاد الكثيرون في الماضي وفي
الحاضر على تلاوة القرآن كله عن ظهر قلب ، أو على ختمه خلال
شهر أو زقل ، وبات شيعاً أساسياً لكل مسلم أن يحفظ بعض السور ،
وعلى الأقل تلك التي تساعده لأداء صلواته اليومية .

ومن المسلمات في التاريخ الإسلامى أن مئات من صحابة الرسول
ﷺ كانوا حافظين للقرآن ومتمكنين منه ، فعن عثمان بن عفان أنه قال :
قال رسول الله ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن ثم علمه ، فمن قرأ
القرآن نال حسنة عن كل حرف يقرؤه ، والحسنة بعشرة أمثالها » (١) .

ولقد اقترنت الوظائف في الإسلام كإمامة جماعة المصلين ، بل
وقيادة أية جماعة من المسلمين لأداء أى عمل دينى بأولئك الحافظين
للقرآن أكثر من إخوانهم الذين لم يحفظوا .

دلائل تاريخية :

وهناك نوعان من الأدلة التاريخية على أن القرآن كتب بصورة

(١) كتاب رياض الصالحين للإمام يحيى بن بشر الدين النوى - دار الجمهورية للنشر -
القاهرة سنة ١٩٦٥ ، ص ١٩٤ .

متكاملة على عهد النبي ﷺ هما : القرآن ذاته ، ثم تسجيل وقائع بعينها حدثت أثناء بعثة النبي ﷺ ، ويكفينا دليلاً أن القرآن نفسه قد سجل هذا.

فقد جاء في القرآن كلمتا (القلم) و (القراءة) في بعض من آياته التي سبق ذكرها ، وأكثر من ذلك أنه وصف نفسه في أماكن متعددة بلفظة (كتاب) ، والتي تأتي أحياناً معرفة (الكتاب) ، وذكرنا مثلاً لذلك من قبل ، وهذا مثال آخر ، قوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق بين يديه ﴾ [الأنعام آية : ٩٢]

ولقد عرّف القرآن منذ فجر الدعوة على أنه ذلك الكتاب الذي يضم أجزاء معنونة ومعرفة، وأن لكل وحى منزل المكان المخصص له فيه، وأن هذه الكتاب قد استقر مضمونه كاملاً بكل تفاصيله قبيل وفاة الرسول ﷺ .

وينبغي علينا أن نؤكد هنا أن أي كلمة في القرآن كانت بلا شك جارية على زلسنة العرب ، ومعروفة منذ نزولها على النبي ﷺ ، ومنذ قيام كتاب الوحي بكتابتها ، كما أن موقع كل كلمة كان أيضاً معروفاً ، على الرغم من أن المواد المستعملة آنذاك في الكتابة لم تكن صفحات من الورق تحمل أرقاماً متسلسلة ومجموعة بين دفتين .

ولقد تحدى القرآن الكافرين في أكثر من مناسبة أن يأتوا بعشر سور أو حتى بسورة واحدة من مثله ، ومعنى ذلك أن السور كانت معروفة باعتبارها وحدات قائمة بذاتها ، يقول الله سبحانه : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة آية : ٢٣] .

فهذه الآية تثبت أن السور القرآنية كانت معروفة على عهد النبي ﷺ ، وأن كل سورة تبنى من آيات مكونة لها ، كما أن كل سورة هي عبارة عن تحدٍ حقيقي للكفار أن يأتوا بمثله ، من حيث هي وحدة متكاملة .

ويحمل التاريخ الإسلامى بين طياته دليلاً واضحاً على أن الوحي قد سُجِّلَ كتابةً تحت الإشراف الشخصى للرسول ﷺ ، فكتاب الوحي الذين كانوا دوماً مع الرسول ، والذين كان يملئ عليهم الوحي السماوى ، كانوا معروفين تماماً لدى بقية الصحابة ، وقد ظل هؤلاء ملازمين للنبي ﷺ طوال الوقت ، حتى فى أحلك المواقف ، عندما هدد المشركون المجتمع المسلم النامى بضراوة ، وياتوا ملتفين حوله لتسجيل كل آية توحى إليه ، وكذلك اصطحب الرسول وصاحبه أبو بكر الصديق فى هجرتهما من مكة إلى المدينة أدوات الكتابة من بين مستلزمات الرحلة ، فقد كان أبو بكر نفسه كاتباً من كتاب الوحي^(١) .

وكذلك كان عثمان بن عفان ، ذلك الذى لازم اسمه رسم القرآن ، وظل مع النبي ﷺ منذ أيام الدعوة الأولى ، ثم قدر له أن يكون ثالث الخلفاء الراشدين ، وقد نسب إليه قوله : « كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا^(٢) . »

وبالإضافة إلى الكتابة الرسمية للقرآن ، التى قام بها كتبة الوحي تحت إشراف النبي ﷺ ، كتب بعض الصحابة نسخاً^(٣) لاستعمالهم

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) (المقدمة) .

(٢) النظر المرجع السابق ، وانظر كذلك إلى (الاتقان فى علوم القرآن) ، إذ ذكر الحافظ السيوطى فيه فى الجزء الأول ص ٢١٢ : عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين (بمعنى أكثر من مادة آية) فقرنتم بينهما ولم يكتبوا بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السور التى يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتها فى السبع الطوال . (أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم) (المترجم) .

(٣) كانت أحياناً عبارة عن مجموعات من السور متفاوتة الحجم . ودون الكمال غالباً ، =

الشخصى ، ومنهم (على بن أبى طالب) و (عبد الله بن مسعود)
الذى اعتاد على كتابة ملاحظات تفسيرية وتعليلية فى هوامش نسخته .

ولقد تم تلخيص قصتى إسلام كل من لبيد بن ربيعة وعمر بن
الخطاب فى الفصل الثانى ، وظهر أنه فى كلتا الحالتين كان جزء السور
مكتوباً على رقعة ، وهو ما يثبت أن السور القرآنية كانت قد دونت فى
ذلك الوقت ، وأن عملية التسجيل هى تقليد إسلامى عرف منذ ظهوره ،
لذلك فقد اعتبر النبى ﷺ وصحابته معرفة القراءة والكتابة من الأمور
الهامة فى حياتهم ، مما دفعهم إلى اتخاذ كل سبلها الممكنة بتلief
وشوق ، وفى غزوة بدر - وهى المعركة الأولى الفاصلة بين النبى وبين
أعدائه المشركين - تمكن المسلمون من أسر عشرات منهم ، وقد أعطى
بعضهم حرته لقاء تعليم عدد من المسلمين الأميين كيفية القراءة
والكتابة^(١) .

وعلى الرغم من كل هذه الحقائق المؤكدة ، فإن كثيراً من
المستشرقين أنكروا التكوين المبكر للسور فى القرآن ، وافترضوا أنها عبارة
عن « رسالات مبعثرة جاءت على مراحل طرحت فى اللحظة التى أحسوا
أنها قد أدت غرضها »^(٢) ، وقد أصر (نولدكه) (Noldeke) على
زعمه الذى قال به بعد نظرة متجاهلة لحقائق التاريخ الواضحة ، واستند
فيه على تلفيقات خياله ، فقال : « إن النبى لم يكن لديه متسع من
الوقت ليكتب ما يوحى إليه ، بل إنه لم يهتم بذلك خلال حياته »^(٣) .

وهناك أمثلة هابطة لمعلقين آخرين ظهوروا فى القرن الحالى ،، وقد

= فقد كان اعتماد ذلك على الحفظ أكثر من اعتمادهم على التدوين (المراجع) .

(١) كنا نتمنى أن تسجل كتب السيرة أسماء من افتدوا أنفسهم بهذه الوسيلة من بين أسرى
المشركين (المراجع) ،

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) وكذلك انظر قائمة المراجع الأجنبية
تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Burton) ص ٢٣٤ .

حملوا بين أيديهم مزاعم متهاففة ، من مثل : « بعيداً عن الترتيبات المنافية للعقل والمنطق ، فإن القرآن ليس كتاباً على الحقيقة ، بل هو مجموعة من البيانات الرسمية ، والنقد والأوامر والخطب والمواعظ وأشياء من هذا القبيل » . وما من شك في أن وصف القرآن بأنه (مناف للعقل والمنطق) إنما يبين كيف يضل مستشرق قد أعماه الحقد ، ويعد به حقه عن المسلك العلمى والمنطقى فى دراسته للكتاب الكريم .

وقد ذكر الحافظ السيوطى أن الكثير من صحابة النبى ﷺ قد حفظوا القرآن كله ، ومنهم من حفظ عدداً من السور ، ولقد تعلم عبد الله ابن مسعود سبعين سورة من فم النبى ﷺ ، ومن ناحية أخرى فإنه صلى الله عليه وسلم قرأ زهاء سبعين سورة وهو على فراش الموت ، مما يبين مدى الحرص الشديد على حفظ القرآن لدى جميع المسلمين (١) .

وعلى ذلك يبدو واضحاً تماماً أن كل آية قرآنية قد دوت تحت إشراف النبى ﷺ المباشر ، حيث يتم بتوقيف منه إلحاق الآيات بالسور الموجودة . فالرسول إذن هو الذى نظم الآيات فى كل سورة ، بل ووضع ترتيب السور فى القرآن ، وأعطى السور أسماءها ، والتزام المجتمع الإسلامى بهذا التنظيم ، حتى إن أعداداً كبيرة من المؤمنين حفظوا بحماس شديد كل السور بينفس الترتيب الذى وضعه النبى ﷺ .

الترتيب الزمنى والمصحفى :

ذكرنا فى الفصل السابق أن الترتيب المصحفى للسور - أى ترتيب السور داخل المصحف - يختلف تماماً عن الترتيب الزمنى لنزولها ، فنجد مثلاً آيات من سور مدنية تأتي ضمن آيات نزلت فى مكة قبلها بسنين عدة !! والتفسير هنا أن كل تنزيل نزل فى ظرف من الظروف التى وافت المجتمع المسلم سواء بمكة أو المدينة .

(١) كتاب الاتقان فى علوم القرآن للحافظ جلال الدين السيوطى - الجزء الأول ص ٥٨ -

فبالرغم من أن هناك آيات قليلة تؤرخ إلى ما قبل نزول بقية السور التي تحويها أو بعدها ، إلا أن جميع الآيات في كل سورة كل متكامل ، ويبدو في صورة متماسكة متقنة ، كما أن المواضيع تناسب بلباقة انسياباً منطقياً جميلاً من خلاله ، وحكل آية من الآيات بما يحويه من ثروة فكرية أشبه ما تكون بالدر الكريم ، التنظيم ، وقد انبهر عدد من المستشرقين بالبرق الشديد لتلك الأفكار اللامعة الذكية الموجودة بكل آية على حدة ، وبدوا عاجزين عن إدراك ذلك الإطار الذي يربط بعضها ببعض .

وقد خلق الترتيب الزمني للنزول تطوراً تدريجياً في تعاليم الدين ، وفي التشريعات اللازمة لنمو المجتمع ، ولتوضيح ذلك ، لنأخذ في اعتبارنا الشكل الرئيسي لمراحل التبليغ الناجح الذي اتبعه الرسول ﷺ منذ أن نزلت (اقرأ) في سورة العلق ، وهي السورة التي لها ترتيب زمني هو (١) وترتيب مصحفى^(١) هو (٩٦) .

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ [العلق آية : ١]

ثم يجيء بعد ذلك الأمر الإلهي ببدء مهمة الرسول بزناً (أنذر) في قوله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر * قم فأندر * وربك فكبر ﴾ [المدثر آية ١-٣] [سورة المدثر : ت ز (٤) ، وت م (٧٤)] .

وبعد ذلك أمر الرسول أن يبلغ عشيرته الأقربين ، وجاء ذلك في سورة الشعراء [ت ز (٤٧) ، وت م (٢٦)] وهو قوله تعالى : ﴿ وأندر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾

[الشعراء آية ٢١٤-٢١٥]

ثم يحين الحين لتبليغ الدعوة لكل زرجاء مكة ، أم القرى ، وأن تبليغ كذلك إلى القرى من حولها ، وذكر ذلك في سورة الأنعام (ت ز

(١) سوف نختصر العبارتين في رمزين هما : ت.ر. = ترتيب زمني ، وت.م. = ترتيب

مصحفى .

(٥٥) ، ت م (٦) [وذلك فى الآية الكريمة : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾]

[الأنعام آية : ٩٢]

وأخيراً ، تكون الدعوة للإنسانية جمعاء : ﴿ إن هذا لبلاغاً لقوم عابدين * وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء آية ١٠٦-١٠٧]

وهكذا يتضح الآن أن القرآن الكريم ليس كتاباً عادياً ، إنه ليس مجرد كتاب تاريخ ، تخضع حسابات أحداثه لترتيب النزول ، ولكنه فى تسجيله للأحداث فى حياة النبى ﷺ وحياة الدعوة كان مترسماً لقواعد تختلف اختلافاً كبيراً ، فهو بالطبع ليس كأي من الأناجيل التى تناولت بصورة حرفية تفصيلية أفعال السيد المسيح وأقواله ، والتى استرجعها حواريوه وفى قترتيبها الزمنى ، كما أنه ليس بالكتاب الجامد الى يناقش باباً معيناً ، فيسبقه بمقدمة تقوده إلى صلب الموضوع ، ويختتمه بمحصلة فكرية معينة . إنه ليس كتاباً من هذه الكتب ، ولكن الله تعالى أوحاه إلى قلب محمد ﷺ ليمنح القلوب الراحة العظمى ، ويهب العقول قناعتها القصوى ، وهيدى كل نفس تقرؤه أو تستمع إليه صراطها المستقيم ، فكل إنسان أياً كان ، حتى ولو كان ممن لا يؤمن بالله - لاشك أنه سوف يفتقد هذه الرسالة المحمودة إليه عبر الوحي الإلهي .

ولعل ما يجعل القرآن متفرداً أن كل آية من آياته ، وكل مجموعة من الآيات ، بل كل سورة من سوره يمكن أن تكون وحدة مستقلة تبنى الإيمان ، وتشهد الإلهام .

عناوين السور :

لقد اعتاد محمد ﷺ أن يضع لكل سورة اسماً يعبر عن قضيتها ، ومثلاً ذلك السورة الثانية فى الترتيب المصحفى وهى سورة (البقرة) ، إذ

هى تذكر قصة موسى عليه السلام عندما أمر قومه أن يذبحوا بقرة ، وكذلك السورة الثالثة فى نفس الترتيب وهى سورة (آل عمران) وتحكى عن آل عمران ، ومنهم مريم البتول ، والمسيح عليه السلام ، ومنهم زكريا ويحيى عليهما السلام ، أما السورة السادسة عشرة وهى سورة (الكهف) فتناول قصة أهل الكهف السبعة الذين فروا بدينهم ، واتخذوا من الكهف مخبأً يبعدهم عن طالبيهم ومضطديهم ، وهكذا ..

وقد أطلق النبى وصحابته أكثر من اسم على بعض السور ، فسورة الفاتحة مثلاً هى فاتحة المصحف ، ولها أسماء أخرى منها (أم القرآن) أو (جوهر القرآن) ، أو (الحمد) أو (الحمد لله رب العالمين) باعتبارها أول آية من السورة .

الترتيب المصحفى كما عُرف على عهد الرسول ﷺ :

كُتبت النسخة الأولى للقرآن الكريم على رقاع مبعثرة ، وعلى ألواح من مواد مختلفة ، كانت أيضاً غير مرتقة ، وذلك فى نفس الوقت الذى كان الوحي كله محفوراً بشكله المعروف فى قلب النبى ﷺ ، وفى صدور صحابته ، حيث اتخذت كل آية أو مجموعة آيات مكانها المحدد لها فى الهيكل القرآنى الكلى ، حتى أطلق على مئات من الصحابة لقب (حفظة القرآن) ، إذ كانوا يقومون بتلاوته عن ظهر قلب ، من بدايته إلى نهايته ، وكانوا يعرفون موضع كل سورة فى المصحف ، بل لقد عرف كثيرون منهم مناسبة نزول كل آية فيه .

فكيف إذن لم يكن آنذاك ترتيب مصحفى ؟ إنه لو لم يكن مروفاً حينئذ لبات مستحيلاً على المؤمنين حفظه ، ولعل هناك دليلاً هاماً أيضاً هو أن المؤمنين قد تعلموا أن يجعلوا لجماعتهم إماماً للصلاة منذ عهد النبى ﷺ ، والقاعدة هنا تملى بأن الإمام ينبغى عليه أن يتبع الترتيب المصحفى أثناء تلاوته للقرآن ، فإن أخطأ فما على أى مأموم من خلفه إلا

أن يرده ، فهل كان من الممكن أن يكون هذا الرد مستطاعاً إلا إذا اعتاد المصلون جميعاً على ترتيب مصحفى واحد للآيات .

وعلى ذلك فإننا نجد بينة واضحة وكافية على أن الرسول ﷺ هو الذى رتب السور داخل المصحف بطريقتين : إحداهما : إعطاؤه تعاليمه وتوجيهاته إلى صحابته ، والأخرى : تلاوته الخاصة للسور المختلفة ، فيخبرنا أنس^(١) - وهو من صحابة الرسول ﷺ - كيف أرشدهم النبي إلى تقسيم بقية القرآن دون الفاتحة إلى سبعة أجزاء متعاقبة ، أولها يتكون من ثلاث سور ثم تأتي بقية الأجزاء بعد ذلك محتوية لأعداد السور الآتية على التوالي : خمس سور ثم سبعة ثم تسع ثم إحدى عشرة ، ثم ثلاث عشر سورة ، ثم يأتي الجزء الأخير متضمناً لبقية السور مستهلاً بسورة (ق) ، وبإضافة سورة (الفاتحة) إلى هذا التابع نجد أن سورة (ق) هي السورة الخمسون ، وهو نفس ترتيبها فى مصحف اليوم ، وهو ما يثبت مرة أخرى أن الترتيب المصحفى للسور ، والذي وضعه محمد ﷺ - قد ظل ثابتاً لم يتغير ، كما أن سورة الفاتحة ، والتي أطلق الرسول عليها ذلك الاسم بوحى الله - تتبوا الآن نفس المكان فى مصحف اليوم وهو أوله .

وقد روى بعض صحابة النبي ﷺ ومنهم عثمان بن عفان ، وسعيد ابن خالد^(٢) أن النبي قد تلى سورة (البقرة) وأتبعها بسورة (آل عمران) أثناء إمامته للصلاة ، ثم فى صلاة أخرى تلى السور الثمان الأولى على التعاقب وبنفس الترتيب المدونة به فى المصحف ، وتلى فى صلاة ثالثة سور الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء ، وهذه السور تأتي اليوم متعاقبة

(١) هو أنس بن مالك (المترجم) .

(٢) يرجح أن المقصود هنا هو أبوه خالد بن سعيد بن العاص ، وذلك لحدائثة سن المذكور ، حيث ولد أثناء هجرة الحبشة ، كما أن خالد بن سعيد من السابقين للإسلام ، ومن كتبة الوحي ، فيروى أنه أول من كتب (بسم الله الرحمن الرحيم) . (المترجم) من كتاب الأصالة فى تمييز الصحابة - الجزء الثان ص ٢٣٦ - ص ٢٣٦ .

وينفس الترتيب وأرقامها على التوالي (١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١) .

فلا شك إذن في أن ذلك إجحاض لاتهم (ونزبوخ) (Wans- brough) للقرآن بأنه « عبارة عن أفكار مبعثرة مجمعة بشكل رديء » ، وأنه « نتاج التصور الأساسي للأفكار خلال فترة نقله الطويلة » ، والذي يستطرد فيقول : « إنها فترة نقله التي تجاوزت أجيالاً عدة ، أو بالتقريب هي قرنان من الزمان ، حيث إن المصحف لم يصل أبداً إلى صورة ثابتة»^(١) !! ونعجب كل العجب ونتساءل : على أي قواعد منطقية ارتكز أمثال هؤلاء المستشرقين في انطلاقهم في هذا الزعم الجامح ؟ ولكن لعل الاحتمال الأكبر أن يكون قد التبس على الأستاذ (ونزبروخ) التفريق بين القرآن والحديث ، وذلك من خلال نظره الشاملة للحقائق المذكورة آنفاً ، فعملية التدقيق والتسجيل للحديث لم تتم فعلاً إلا بعد وفاة الرسول ﷺ بحوالى قرنين عندما كتب صحيحا البخارى ومسلم الشهران .

ولقد أثبت القرآن نفسه حقيقة وجود الترتيب المصحفى إبان عهد محمد ﷺ ، وجاء ببرهان قوى مقنع ، ففي سورة (القيامة) نقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنْ عَلَيْنَا جُمُعَةٌ وَقُرْآنُهُ * فَإِذَا قُرْآنَاهُ فَاتَبَعَ قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة اية ١٧ - ١٨] ، وجمعه تعنى وضعه معا ، أى بتنظيم الآيات والسور ، وهذا (التجميع) أو (التنظيم) للسور لا يمكن صنعه إلا وفق ترتيب محدد ، ألا وهو الترتيب الإلهى ، وعلى ذلك ، يبدو واضحاً أن الله سبحانه لم ينزل الوحي فقط ، ولكنه أنزل معه تنظيمه وجمعه .

ويبدو أنه من المحتمل أن غفلة المستشرقين عن هذه الحقائق التاريخية ناجمة عن عدم إلمامهم الكامل باللغة ، فمنهم من لم يحكم غير فواصل القرآن وإيقاعاته ، ومثالهم (بل) (Bell)^(٢٢) الذى ذكره :

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wansbrohgh) وفي المرجع انظر صفحات ٤٧ ، ١١٥ ، ٢٢٥ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) ص ٨٣ .

« أنه بعد دراسة مفصلة ودقيقة للهيكل العام لمقاطع القرآن فقد ثبت أنها قد بدلت وروجعت ... كما أن عباراته لم توضع في أماكنها فقط - مجرد وضع - في السور ، ولكنها تعرضت لنوع من التكيف مع أماكنها، وهو ما يبدو من خلال وقع الايقاعات الخفية المحتجبة »^(١) ، ولو حرّفت أى آية أو بدلت بأى طريقة كانت ، لبات من الصعب ، بل من المستحيل إخفاء ذلك عن الدارسين للتاريخ الإسلامى ، أولئك الذين يصفون أدق التفاصيل المتعلقة بما وجد في القرآن »^(٢) .

ولقد افترض بعض المستشرقين أن القرآن لم يرتب مصحفياً ، واضعين في اعتبارهم أن الوحي قد كتب على الرقاع وعلى الألواح والجلود ، كما كتب على عظام أكتاف الإبل وعلى سعاف النخيل ، فنجد (بل) مثلاً يرى : « أن القرآن ما هو إلا عدد لا نهائى من الجزئيات غير المتصلة ، وذات تغيرات مفاجئة فى الموضوع ، كما أنه يحوى أخطاء نحوية » ، ثم مضى فى محاولة منه لتأكيد الاتهام فقال : « ولتعليل ما مضى ذكره من عيوب ، فإنه ليس أمامنا إلا أن نفترض أن عملية الكتابة شملت أحياناً كتابة ما فى ظهر الرقعة تاليا لما فى وجهها مما أعطها الترتيب » ، ثم استشهد (بل) بالآيات الآتية على زعمه فقال : « نحن نجد فى سورة (الانشقاق) وفى الآيات من (١٣-١٥) هدماً للتوازن المذكور فى الآيات المتقدمة عليها ، وهى الآيات (٧-١٢) والتي يمكن اعتبارها وحدة متكاملة مستقلة لو بقيت وحدها . والآن دعنا نعرض الآيات :

﴿ فأما من أوتى كتابه يمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً *
وينقلب إلى أهليه مسروراً * وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف

(١) انظر كتاب الاتقان فى علوم القرآن (الجزء الأول) - دار الحلبي - القاهرة سنة

١٩٥١ م .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) ص ٩٠ .

يدعو ثبورا * ويصلى سعيراً * إنه كان فى أهله مسرورا * إنه ظن أن
لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيراً ﴿ [الانشقاق آية ٧-١٥]

وتمثل هذه الآيات تصويراً لمشهد الآخرة بشيء من التفصيل ،
فتعقد مقارنة بين شخص مستقيم وآخر أثر الحياة الدنيا ، وأنكر بيوم
الحساب ، فالأول سيحضر حسابه وكتابه فى يده اليمنى ، وسيكون
مسروراً بأعماله ، مبتهجاً بمصاحبة أهله (الآيات ٧-٩) ، فى حين نرى
صورة الكافر الذى سيشعر بالتعاسة حيث سيلقى كتاب أعماله السيئة
بصورة مخزية ، إذ سيلقاه من وراء ظهره ، وسيعذب عذاباً شديداً فى
جهنم (الآيات ١٠-١٢) فلا يلومن الكافر إلا نفسه حيث أغرق نفسه
فى شهوات الدنيا أثناء حياته ، وأهمل عبادة ربه الذى هو به بصير دائماً ،
وأنكر حقيقة الرجوع إليه تعالى ليحاسبه (الآيات ١٣-١٥) .

وعلى ذلك فإننا نرى أن الآيات (٧-١٢) ليست كاملة المعنى ،
وإن بدت وحدها ، لأن الآيات (١٣-١٥) تهتم بإتمام معالم الصورة
بإعطاء الخلفية للأحداث المذكورة فى الآيات (٧-١٢) .

جمع أجزاء القرآن مكتوبة :

لم يقلق أحد بعد وفاة الرسول ﷺ بشأن النسخة المكتوبة من القرآن
وحتى جمعها ، وذلك لوجود العديد من حافظى القرآن حسب ما
تلقوه متلوا عن النبى ﷺ نفسه ، ولكن بعد سنة أخرى ، استشهد أكثر
من سبعين صحابياً من حفظة القرآن ، وذلك فى معركة اليمامة^(١) ،
فخلق تأثير هذا الفقد المفاجئ العام ضرورة ملحة ، وبات لزاماً على
المسلمين أن يجمعوا مادة القرآن فى كتاب واحد ، وذلك لتسهيل تناوله
واستعماله كمرجع لهم ، وقد اقترح (عمر بن الخطاب) فكرة هذا
المشروع على (أبى بكر) خليفة رسول الله ﷺ ، وكان أقرب صحابته

(١) وهى معركة قادها خالد بن الوليد لتأديب مسيلمة الكذاب (المرتد) على عهد الخليفة
أبى بكر الصديق . (المترجم) .

إلى قلبه ، وكان عمر نفسه من الصحابة البارزين ، وقد تردد (أبو بكر)
في البداية قائلاً : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ » ، ثم
مالبث أن اقتنع تدريجياً بصواب اقتراح (عمر بن الخطاب) .

ولعل هذه الحادثة ترينا كيف كان صحابة رسول الله ﷺ بخاصة ،
والمسلمون بعامة ، يحبون القرآن ويقدمونه ، ولذلك فما لبث أبو بكر أن
أرسل إلى (زيد بن ثابت) ، وهو أحد كتّاب الوحي الذين كتبوا أغلبه
على عهد النبي ، وتحت إشرافه ، وكان واحداً من أولئك الذين تميزوا
بحفظ القرآن عن ظهر قلب ، فكان مرجعاً لمواضيعه المختلفة وطرق قراءته ،
ذلك أن زيدا قد عنى بجمع القرآن وحضر العرضة الأخيرة التي أثرت
عن الرسول ﷺ ، كما كان مشهوداً له بالكمال والعقل .

ويومها خطب عمر في الناس ، واشتملت خطبته على أمر إلى كل
أرجاء المجتمع الإسلامي فقال : « من كان تلقى شيئاً من رسول الله ﷺ
من القرآن فليأت به »^(١) ، وعلى ذلك جلس زيد ومعه عمر على باب
المسجد ، وأخذ من كل من لديه أية قرآنية مكتوبة ، ولم يقبل أية آية
حتى يشهد اثنان من صحابة الرسول على أنها قد كتبت فعلاً في حضرة
النبي ﷺ ، وتحت إشرافه ، فكانت شهادة الشاهدين نوعاً من المحافظة
التامة على نقأ الكتاب وصدقه ، أو بمعنى آخر ، لم تكن كتابة القرآن
من الذاكرة بالشئ الكافي ، على الرغم من أن كثيراً من المسلمين قد
حفظوه عن ظهر قلب ، كذلك لم يكن أبو بكر مقتنعاً بمجرد عملية
جمع المكتوب وذلك لوجود العديد من الكتابات التي كان بعضها
يحمل ملاحظات تفسيرية ، وبعضها الآخر لا يحوى . ومن ثم فإننا
نخلص إلى أن المجتمع المسلم - الذي يحمل كل الحب لكتابه المقدس -
لم يدخر وسعاً في التدقيق والتمحيص أثناء جمعه .

(١) انظر كتاب الاتقان في علوم القرآن (الجزء الأول) - ص ٥٨ .

ولقد تميزت النسخة الرسمية للقرآن عن باقي النسخ التي يمتلكها الأفراد بدقتها المطلقة ، التي تمنع عنها كتابة أية ملاحظات تفسيرية أو حتى أسماء السور ، وقد كتبها زيد على رقاع من الورق ، وجمعت هذه الرقاع معاً ، وفرضت عليها وصاية أبي بكر ، وعند موته أورثها عمر ابن الخطاب الخليفة من بعده .

أما عندما حانت منية عمر فإنه لم يشأ أن ينصب خليفة من بعده ، وآثر أن يترك ذلك لاختيار الناس ، لذا فقد حفظت تلك النسخة الوحيدة للقرآن الكريم لدى حفصة ابنة عمر بن الخطاب ، التي كانت أمّاً للمؤمنين^(١) .

ولكن بعض الكتاب أهملوا هذه الحقائق التاريخية ، ومنهم من فوجئ بها عندما عرفها ، بينما فكر آخرون وعللوا أن القرآن ليس إلا نتاجاً للتطور الطبيعي عبر القرون^(٢) .

إصدار النسخ المعتمدة للقرآن :

يسجل التاريخ الإسلامي أنه في خلال رحلة عودة (حذيفة بن اليمان) وهو أحد الصحابة - إلى المدينة ، وكان قادماً من منطقة (أرمينية) ، قابل عدداً من المسلمين من مختلف أقاليم الدولة الإسلامية ، ثم عاد فأخبر الخليفة (عثمان بن عفان) بما رأى من تصور مزعج ، لقد لاحظ فرقا واضحا بين أساليب قراءة القرآن عند أهل الشام ، وزهل العراق ، وكما نعلم كان الشام والعراق إقليمين حديثي عهد بالإسلام ، ولم تكن لغتهما عربية أصلاً ، وقد عبّر حذيفة عن قلقه البالغ لعثمان بأن قال : « أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اليهود والنصارى » .

(١) أم المؤمنين : لقب زوجات الرسول ﷺ ، وقد كانت حفصة تجيد القراءة والكتابة .
(المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wansbrough) وفي المرجع انظر صفحات ٤٧ ، ١١٥ ، ٢٢٥ .

فانرجع عثمان ، وألف لجنة في الحال من اثني عشر عضواً تحت
رياسة (زيد بن ثابت) وهو الذي سبق أن عهد إليه بمهمة جمع القرآن
على عهد الخليفة (أبي بكر) ، وقد أشرف عثمان بنفسه على هذه
اللجنة التي اشتملت على عدد من كتاب الوحي ، واشترط عليهم أثناء
قيامهم بنسخ القرآن ألا يكتبوا أى شيء سوى آيات القرآن ، وزن تكون
بنفس ترتيبها الذي اتبعه النبي ﷺ نفسه ، والذي يذكره عنه حفصة
القرآن ، وأن يلتزموا بنفس طريقة الكتابة التي يسهل قراءتها بالعديد من
طرق القراءة المعروفة على عهد رسول الله ، وكذلك الخط ينبغي أن
يكون متوافقاً مع لهجة قريش العربية ، وهي قبيلة محمد ﷺ (١) .

وقد سجل التاريخ ، أنهم اختلفوا فيما بينهم أثناء نسخهم حول
كلمة (تابوت) ، فقال أعضاء اللجنة القرشيون : « نحن ننطقها تابوت » ،
ولكن زيدا وهو الخزرجي من المدينة أعلن : « ونحن ننطقها تابوه » ،
فاحتكموا إلى عثمان الذي أصدر تعليماته باتباع اللهجة القرشية في
الكتابة ، وأن تنسخ الكلمة على أنها (تابوت) (٢) .

وفور الانتهاء من كتابة النسخ الأربعة الرسمية ، أمر عثمان بإرسال
ثلاث منها إلى كل من الشام والعراق ومكة ، وأن تحفظ الرابعة في
المدينة ، ثم أعيدت النسخة الأصلية إلى حفصة مرة أخرى ، وأخيراً أصدر
الخليفة أمراً بإحراق جميع نسخ المصحف الأخرى .

ولا ريب أن كثيراً من المستشرقين قد أقروا بهذا التوضيح التاريخي ،
بل إن (منزس) (Menezes) (٣) سلم به فقال : « إن تبجيل جميع
المسلمين الرائع للقرآن ، وتقواهم منذ البداية وورعهم ، هذه المعاني هي
التي جعلتهم يحفظونه عن ظهر قلب ، وهي التي تؤكد وجود نسخة

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفي المرجع انظر المقدمة .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفي المرجع انظر المقدمة .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفي المرجع انظر ص ١٠٥ .

مكتوبة على عهد النبي لكل ما نزل من الوحي ، كما أن جمع زيد للقرآن قد حظى بالقبول الإجماعي مباشرة وبصورة فورية . وكل هذا لا يترك مجالاً للشك في أن القرآن يحوى بالفعل كل الكلمات التي أوحيت إلى النبي ، ولكن الاختلاف يتمثل فقط في بعض الأوجه الصوتية والإعرابية ، والتي لا تعد إلا أمراً طارئاً جاء فيما بعد ذلك ، ولم يكن قط موجوداً على عهد زيد .

والواقع أنه لم يكن هناك أدنى حاجة لتحديد قواعد للضبط أو الإعجام في السنين الأولى للإسلام عندما كان المجتمع المسلم كله عربياً ، وكان متمكناً من لغته ، ففي تلك الأيام كانت الحروف : الباء والتاء والثاء والنون والياء تزخذ كلها الشكل الواحد (ب) ، وكان القراء العرب فقط هم الوحيدون الذين يميزون بعضها عن بعض ببساطة ، لاعتمادهم على سلاتقهم وحفظهم ، وعلى فهمهم لمحتوى السياق ، ولكن في القرن الأول بعد الهجرة حدث أن أسلمت أم بكاملها غير عربية ، وبدأت في تعلم اللغة العربية ، كيما تستطيع قراءة القرآن وأداء الصلوات . وقد واجه أفراد هذه الأم صعوبات في قراءة اللغة ، إلي أن اقترح أحد اللغويين البارزين ، وهو (أبو الأسود الدؤلي) استخدام النقط لتعيين الحركات في أواخر الكلمات ، لتستقيم الألسنة في أداء النص القرآني . وبذا تيسرت القراءة الصحيحة حتى لذوى الإمام باللغة العربية .

مصحف اليوم :

لقد أعيد طبع القرآن الكريم وآلاف المرات باللغة العربية في غضون الأربعة عشر قرناً الماضية ، حدث ذلك دون أى تغيير ، ولو طفيف ، في أية آية ، أو آية كلمة ، أو أى حرف ، كذلك لم يحدث أى تغيير في ترتيب الآيات داخل السور ، ولا في ترتيب السور خلال الكتاب وكل الذى حدث أن ظهرت بعض الاختلافات في قراءة النص وضبطه ، تؤثر على نطق بعض الأصوات ، والهدف منها أنها قد تؤكد معنى واضحاً ،

أو آخر خفياً ، لبعض الكلمات وهو ما دفع (سيل) (Sale) لأن يقرر أن : « هناك سبع طبقات رئيسية ، إن صح لى أن أطلق عليها ذلك ، أو لنقل سبع نسخ قديمة ، اثنتان منها صدرتا فى المدينة ، والثالثة بمكة ، والرابعة بالكوفة ، والخامسة بالبصرة ، والسادسة بالشام ، أما السابعة فقد اعتبرت مشتركة بين هولاء ، وقد عدد آيات الأولى ستة آلاف آية ، وبلغ عددها فى الثانية والخامسة ستة آلاف ومائتين وأربع عشرة آية ، وفى الثالثة ستة آلاف ومائتين وتسع عشر ، أما فى الرابعة فقد بلغ ستة آلاف ومائتين وستا وثلاثين ، وبلغ فى السادسة ستة آلاف ومائتين وستا وعشرين آية ، بينما اعتبرته السابعة والأخيرة ستة آلاف ومائتين وخمسا وعشرين ، ولكن ينبغى أن نعلم أن كل هذه النسخ قد حوت نفس العدد من الكلمات وهو سبعة وسبعون ألفاً وستمائة وتسع وثلاثون كلمة ، وكذلك نفس العدد من الحروف وهو ثلاثمائة وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً » (١) .

وقد أشار (موير) (Muir) متحدثاً عن نخلو المصحف من العيوب - إلى أنه لا يوجد كتاب فى العالم - غير القرآن - بقى على صورته الثقيلة طوال قرون عدة ، وعلق (مارجوليوث) (Margoliouth) قائلاً بأن نظرية (التلون بالوسط) (Coloring by the medium) التى أعدها اللاهوتيون المسيحيون مبررين بها التناقضات التى حفلت بها كتبهم المقدسة ، هذه النظرية ليست معروفة مطلقاً فى الإسلام (٢) ، ثم صرح (منزس) (Menezes) أيضاً فقال : « من المؤكد جداً أن زيدا قد توخى الأمانة فى صنيعه ، كما أن قبول (على) (٣) وأتباعه للقرآن - وهم الذين عادوا عثمان - هو أعظم ضمان لصحته وأصالته » .

وجاء (بارتون) (Birton) بزعم مناف تماماً لكل ما هو طبيعى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٤٠ .

(٢) يقصد علياً بن أبى طالب .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Margoliouth) كتاب (المحمدية) ص ٦٣

منطقي أو معقول ، فقد وقف أمام إجماع المجتمع المسلم بأسره على العناية الفائقة التي سجل بها القرآن ، كما سبق ذكره ، وأعلن أن : « المصحف ما هو إلا تسجيل منقوص غير كامل للقرآن »^(١) ، وكما يبدو فإن ما فرضه بارتون يعد خطأ ، وما نسبه إلى القرآن قد جاء نتيجة لسماحه عن بعض النسخ الشخصية غير الكاملة للمصحف ، كالتي كانت لابن مسعود أو لأبي^(٢) ، اللذين اعتادا أن يكتبوا - خلال النص - ملاحظات تفسيرية هامشية .

العلوم والفنون المتعلقة بالقرآن الكريم :

ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أن أى شخص مهما بلغت معرفته بموضوع ما فإنه لا بد أن يكون ملماً بشتي النواحي المتعلقة بالموضوع الذى هو بصدده ، وكذلك ، فإن من يدعى القدرة على الإتيان بمثل القرآن لا بد أن يكون ملماً تماماً بمختلف علومه وفنونه ، وزيادة على ذلك ينبغي أن يكون متقناً تماماً للغة العربية .

ولقد قسم (جلال الدين السيوطى) العلوم والفنون المتعلقة بالقرآن الكريم فى كتابه (الإتقان فى علوم القرآن) إلى ثمانين مجموعة ، وذلك منذ حوالى خمسة قرون ، وقد يصل مجموعها إلى ثلاثمائة عنوان فرعى إن قمنا بتقسيم هذه المجموعات إلى أجزاء أصغر . ولضيق المساحة التى لدينا فإننا نذكر أن هذه المجموعات تشمل ما يلى :

١ - العلوم المتعلقة بالمناسبات وبالتواريخ وبأماكن النزول ، وتبين الآيات التى أنزلت فى مكة أو فى المدينة أو فى أى مكان آخر ، وتشمل الآيات التى أنزلت فى النهار أو فى الليل ، وتلك التى أنزلت فى الشتاء

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) ص ١٠٥ - ١١٢ .

(٢) هو أبى بن كعب بن قيس الأنصارى ، وكان من أصحاب العقبة ، وشهد بدرًا والمشاهد كلها ، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ ، وكان عمر بن الخطاب يسميه بسيد المسلمين ، ويقال مات فى خلافة عثمان سنة ثلاثين . (المترجم) .

أو في الصيف ، بل وتشمل الآيات التي نزلت على رسول الله ﷺ وهو مقيم ، أو وهو مسافر ، وهكذا ...

٢ - العلوم المتعلقة بترتيب وأسباب التنزيل لمختلف الآيات ، وما قد قُتِنَ منها قبل نزولها على قلب محمد ﷺ أو بعده ، كما تتعلق هذه العلوم أيضاً بما قد أوحى للأنبياء السابقين وبما لم يوحَ ، وكذلك بالكيفية التي نزلت بها هذه الآيات .

٣ - العلوم المتعلقة بالناسخ والمنسوخ ، وما يتصل بذلك من موضوعات ونظريات تدور حول النص القرآني .

٤ - العلوم التي تغطي الأسلوب الأدبي ، وتغطي الكلمات وأصلها ، والقواعد النحوية والبيانية والبلاغية والاستعارات والمجازات ، وإعراب الكلمات ، كما تشمل علم دلالات الألفاظ وتطورها .

٥ - تاريخ كتابة الوحي - وهم أول من كتبوا القرآن ، وتاريخ حفظة القرآن الذين حفظوه عن ظهر قلب ، كما يتضمن هذا العلم تاريخ أولئك الذين كانوا أول من علموه للناس .

٦ - علوم تناقش الجوانب الإعجازية للقرآن ، وتناقش الأحداث التي تنبأ بها ، والتاريخ الذي صاحب هذه النبؤات وتحققها ، كما تعبر عن السبل التي تفوق فيها القرآن وبرع ، وعن خصائصه ، وهكذا ...

٧ - العلوم الفقهية من فقه العبادات وفقه المعاملات والقواعد والقوانين التي سارت عليها الأفراد والمجتمعات المذكورة في القرآن ، فتناقش النواحي المختلفة للحياة التي عاشوها ، وتعرض للدراسات الدقيقة التي تناولتهم ... إلخ .

٨ - العلوم الفيزيائية ، والعلوم الأخرى التي ذكرت في القرآن ولو بالإشارات ، وما يتعلق بسرد هذه العلوم ، ومنجزات المسلمين فيها ، وكذا تاريخهم ، وهكذا .

٩ - تاريخ الشخصيات المذكورة في القرآن ، وأسماءها وكنائها وألقابها ، بل وتاريخ الأمم التي جاءوا منها .

١٠ - العلوم التي تتعلق بتأويل القرآن وتفسيره ، والقواعد التي يركز عليها ، وكذلك عرض كامل للدارسين الذين تخصصوا في هذا العلم مع أعمالهم وتحليلاتهم ، والطرق التي اتبعوها وارتضوها في التفسير ، إلخ ... إلخ .

١١ - العلوم والفنون المتعلقة بقواعد الخط ، وتاريخ تطوره ، والأصول التي تتبع في ضبطه .

١٢ - فنون وقواعد قراءة القرآن وتلاوته ، والطرق المختلفة لمخارج الحروف ، ونطق الصوامت والحركات ، والآداب المتبعة أثناء الصلاة .

ويوجد بجانب هذه المجموعات من العلوم والفنون فروع أخرى غنية من العلوم المرتبطة بالقرآن ، ولنبدأ أولاً بتلك التي تتعلق برسول الله ﷺ والتي تشمل : سيرته وتعاليمه وأحاديثه وكذا دراسات حول المؤرخين الذين سجلوا أقواله (علم الحديث) ، وهؤلاء يأتي تصنيفهم وفقاً لشخصياتهم وأخلاقهم ودقتهم في التسجيل ، وتشمل كذلك سلاسل الإسناد التي جاءت الروايات عن طريقها ، ذلك أن علم الإسناد يهتم بالتحقيق في كل حلقة من سلسلة الرواة الذين سجلوا أحاديث النبي ﷺ الشريفة ، فيبدأ بمن يروي الحديث ثم يمضي صعوداً بالترتيب إلى أن يصل إلى الرسول ﷺ .

وهناك علوم تعنى بتنظيم هذه الأحاديث المكتوبة في عدة مراتب ، ويعرف من خلالها ما يسمى بالصحيح - ويعنى الموثوق في صحته - ويحتوى الصحيح الأحاديث عن طريق أكثر سلاسل الإسناد قوة ، ودرجات تقسيمها هي : حديث صحيح ، وحديث ضعيف ، والضعيف هو ذلك الذي وصل الإسناد فيه إلى رواية ضعيفة ، أو فقدت فيه واحدة من حلقات الإسناد القوية التي يعتمد عليها عند تسجيل الحديث ،

ولكن نوضح مدى التدقيق والتمحيص الذين اتبعهما مدونو الأحاديث ،
يمكننا أن نشير هنا إلى (صحيح البخارى) ، ذلك الذى يعد واحداً من
أعظم الكتب فى هذا المجال ، فقد جاء فيه تحت باب (الكذب على النبى
ﷺ) (١) ، فيقول البخارى : « حدثنا على بن الجعد قال أخبرنا شعبة قال
أخبرنا منصور قال : سمعت ربيع بن حراش يقول : سمعت علياً يقول :
قال رسول الله ﷺ : لا تكذبوا عليّ ، فإنه من كذب عليّ فليلج النار » .
ويقول البخارى فى نفس الباب : « حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة
عن جامع بن شداد عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال قلت
للزبير : إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان
وفلان ؟ قال : أما والله إني لم أفارقه ، ولكن سمعته يقول : من كذب
عليّ فليتبوأ مقعده من النار » .

وذكر البخارى فى نفس الباب أيضاً : « حدثنا أبو معمر حدثنا عبد
الوارث عن عبد العزيز قال : قال أنس : إنه ليمنعنى أن أحدثكم حديثاً
كثيراً أن النبى ﷺ قال : « مت عمد عليّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار » .
هذه الأمثلة تبين مقدار العناية الفائقة المصاحبة لتسجيل
أسماء الحضور وقت نطق النبى للحديث ، فضلاً عن تسجيل كل كلمة
نطق بها صلى الله عليه وسلم ، وتلك التى صاغت تسجيل أسماء كل
الذين تناقلوا أقواله صلى الله عليه وسلم عبر الأجيال المتعاقبة على الرغم
من اختلاف مصادر الأخبار .

ولنسأل الآن سؤالاً أخيراً ؛ كم عدد الكتاب الدارسين من
المستشرقين الذين تطرقوا بأقلامهم للدراسات الإسلامية والعربية ، والذين
تمكنوا جيداً من كل هذه العلوم والفنون المصاحبة للقرآن قب أن ينصبوا
من أنفسهم نقاداً للقرآن وسوره وأسلوبه ولغته ، ليخرجوا علينا بهذه
الانتقادات التى نقرؤها وتسمعها ؟

(١) كتاب العلم - الجزء الأول من صحيح البخارى - باب (٣٨) . (المترجم) .

الفصل الرابع

الترتيب المصحفي للقرآن

نقرأ كثيراً من التعليقات والإدعاءات حول الترتيب المصحفي للآيات والسور، على لسان المستشرقين الذين تناولوا الموضوع من نواحيه المختلفة، على أن حصر أعداد من أقر بالترتيب التقليدي للمصحف بات مستحيلاً لعدم جدواه، في حين أن بعض المستشرقين قد انتقدوا ترتيب القرآن المصحفي واقترحوا ترتيباً آخر له يناسب ذوقهم الخاص، فهل من الضروري أن يؤدي جهلهم إلى كل هذا العداء المسبق للحق والعدل؟ لقد وصف المستشرقون الذين ظهروا في العصور الوسطى وأمثالهم (ريكاولدو) (Ricoldo) و(فينست دي بوفيس) (vincent de Beauvais) وصفوا القرآن بأنه: «مختع، ومشتت.....»، ولا يوجد به أي تحديد للتاريخ عن طريق الحقبات الزمنية وعهود الملوك»^(١).

وحاكاهم - بكل أسف - بعض المستشرقين الذين جاءوا من بعدهم، فكروا مزاعمهم بصورة ميكانيكية تلقائية، وكأن لم يبذل أدنى مجهود علمي لإثبات صحتها، ولسوف نستعرض نخبة ممثلة لهذه الإدعاءات على الصفحات القادمة متناولين كافة زواياها بالتحليل، وساردين لآيات قرآنية تتضمنها المناقشة.

فلقد انتقد كل من (موير) (Muir)، و(نولدكه) (Noldeke)، و(بالمر) (Palmer)^(٢) و(رودريل) (Rodwell)^(٣)، و(لين) (Lane)^(٤)،

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفي المرجع انظر ص ٦٠.

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmar).

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell).

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane).

كما زعم بعد ذلك مؤخراً مستشرقون آخر مثل (جفرى) (Jeffery) (١) و(كراج) (Cragg) (٢)، و(كريتزيك) (Kritzeck) (٣) انتقدوا القرآن لأن السور قد رتب فيهِ بصورة معاكسة لتلك التي نزلت بها حسب ظنهم .

واتهم (رودويل) و(تريتون) (Tritton) (٤) زيد بن ثابت ورهطه بإهمال جل جزئية من جزئيات نظام السور ، متغاضين عن حقيقة أن مجموعة زيد كانت تتبع المنهج المصحفي القرآني الذي انتهجه الرسول ﷺ نفسه بمنتهى الدقة ، كما تخيل كل منهما أن زيدا وضع بكل بساطة « الجزء الأكبر وما رآه معروفاً بالنسبة إليه أولاً ، ثم اتبعهما (كريتزيك) (Kritzeck) بأن اتهم زيد بن ثابت رضي الله عنه بتلفيق نظامه الخاص لترتيب السور فقال : « تم هذا بدون أى اعتبار لتواصل الموضوع ، وتناسق الأسلوب » حسب تقديره ، ثم استطرد : « والمحصلة التي لدينا هي عمل من أصعب ما يكون من ناحية القراءة وكذلك من ناحية تضارب الأفكار » (٥) ، وبعد ذلك جاء (جفرى) (Jeffery) فاتهم زيدا وجماعته باتخاذهم وحى النبي ﷺ قاعدة « انطلقوا منها لترتيب المصحف وفق ما استحسنوه ، وأضافوا إليه مواد أخرى رأوها مناسبة » (٦) ، وهذا الاتهام الأخير هو من أكثر الاتهامات شناعة وضحالة واستهتاراً بالحق ، ولكن ما يدهشنا هو أن هذه التخمينات لم تشتمل على مثال واحد يثبتها ويجسدها للحقيقة ، فهذه « المواد الأخرى » التي زعمها (جفرى) إن وجدت يوماً ما خارج خيال المستشرقين - لا بد وأن تكون

-
- (١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (الإسلام ومحمد) ص ٤٧ .
 - (٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Cragg) كتاب (الإسلام المعاصر) ص ١٧٥ .
 - (٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Kritzeck)
 - (٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Tritton) وفي المرجع انظر ص ١٥ .
 - (٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Kritzeck) وفي المرجع انظر ص ٣٥ .
 - (٦) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (القرآن) ص ١٥ ، ١٦ .

واحدة من اثنتين : إما شيئاً على غرار باقى أسلوب الآيات القرآنية ، أو مختلفاً عنه ، فإن كانت هذه المواد تنتهج نفس أسلوب القرآن فى آياته ، فلا شك حينئذ أن هناك مؤلفين آخرين للقرآن استطاعوا أن يأتوا بسورة من مثله ، ولكن الذى حدث هو أن التاريخ قد أثبت أن هذا لم يحدث مطلقاً ، وأن التحدى لا يزال قائماً إلى يومنا هذا ، وأما إن كانت هذه المواد الأخرى من أسلوب آخر ، فمن المؤكد أن الخبراء اللغويين كانوا سيميزونها ويستخرجونها من بين الآيات بكل بساطة ، ولكن لم تثبت فى أى من المؤلفات عبر القرون أدنى وجود لأى شائبة فى الأسلوب القرآنى ، وبرغم ذلك يصر (جفرى) فيقول : « إن كل ما يحتويه المصحف أصله إلى الرسول، ولكن توجد أجزاء قليلة به توجب علينا أن نشك فى أصالتها وصحتها » ، مع العلم أن إصراره هذا لم يؤيد بمثال واحد لثبت مثل هذه الإدعاءات المزعومة^(١) .

وقد دفع بعض الكتاب بأنفسهم إلى مجال الاتهام الطائش للنبي ﷺ نفسه ، فوصفوه : « بتعمد الخلط بين الوحي القديم والجديد فى القرآن ، ولم يكن هذا الخلط من أجل الحصول على هذا الأسلوب العجيب الذى بدا باهراً لكل من يقدرون حقيقته ... ، بل كان لغرض تخفيف الحدة لبعض العبارات التى نزلت قبلاً^(٢) . والآن ؛ هل يمكننا وصف اتهام كهذا للهيكل التاريخى المتين لحقائق كل سورة ، بل لكل آية ، إلا بأنه ثمرة لفقدان الوعى والمعرفة ؟ إن هناك العديد من الكتب العربية والأجنبية التى تبحث فى تفسير القرآن ، فيها تدرس كل آية ، ويتم تحليلها بناء على ما بها من قواعد نحوية ، وأشكال تركيبية ، كما يتم تحليل مناسبة نزولها ، ونواح أخرى تتعلق بها ، فهل بات أولئك المستشرقون دارسين ومراجعين لأمثال هذه الكتب ؟ لقد جهلوا إذن وضلوا ضلالاً بعيداً .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jettery) كتاب (القرآن) ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٧ .

محاولات التغيير فى الترتيب المصحفى :

لقد استبدت بعقول بعض المستشرقين فكرة تتابع السور القرآنية حسب ترتيب النزول ، ولكن الحقيقة التى بقيت واضحة هى أن فكرتهم هذه - حتى إذا سلمنا جدلاً بمعقوليتها - تبدو مستحيلة التطبيق على كثير من السور ، لسبب بسيط ؛ هو أن هذه السور تشتمل كل منها على نوعى الوحي ، القديم منه والحديث ، وهو ما سيتم شرحه فيما يلى ، ولكن يمكننا الإشارة هنا إلى أن بعض المعلقين على القرآن قد بدوا غير محددين للترتيب الصحيح لسورة كما زعموا ، ومثالهم (موير) (Muir) الذى اعتقد أن سورة (الفاتحة) هى السورة السادسة على حين تصور (رودويل) (Rodwell) أنها الثامنة ، وتصورها (نولدكه) (Noldeke) الثامنة والأربعين ، بينما أنكر (جفرى) (Jeffery) أنها من القرآن أصلاً ، وغير ذلك من المزاعم الخاطئة التى سنعرضها لها فى الملحق الأول من هذا الكتاب حيث سيتم حصر الترتيب المصحفى للسور ومقارنة الترتيب الحقيقى لنزولها بما وضعه كل من (موير) و(نولدكه) و(رودويل) و(جفرى) ، ولكن ما يبدو مثيراً فعلاً هو ملاحظة تنظيم (موير) الذى وضعه سنة ١٨٦٠م واقتبسه (هيوز) (Hughs) ^(١) واستشهد به سنة ١٨٩٤ ، فهذا التنظيم يختلف فى نواح كثيرة عما جاء به (موير) نفسه واستشهد به (بل) (Bell) واقتبسه بعد ذلك عام ١٩٥٨م ^(٢) ، وهو ما يدفعنا للتساؤل ؛ أليس غريباً وعجيباً أن تتباعد الاستنتاجات والمحصلات الفكرية لهؤلاء الرجال بالرغم من أنهم يسلكون نفس المنهاج فى التفكير والبحث ؟

إن الشئ الوحيد الذى يشتركون فيه جميعاً هو ذلك الإصرار العنيد على عدم تقبل ما رسخته المعتقدات الإسلامية ، وارتضاه المسلمون عبر القرون لموضوع الترتيب المصحفى لقرآنهم الكريم !!

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٢٥ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص ١٠٩ - ١١٥

افتراضات (رودويل) :

لقد ظهر أن (رودويل) (Rodwell) كان في غاية التحمس لتأليف نظرية - آية نظرية - يفسر بها ما اختلقه من ترتيب تنزيل آيات القرآن ، وابتداءً من حقيقة أن الآيات التي نزلت مع أول الوحي كانت تتسم بالقصر ، وحاول أن يضع على أساسها ترتيباً جديداً للسور المختلفة ، ومثال ذلك ، لقد علق على سورة (الملك) فقال : « إن الآيات من ٨ - ١١ من الواضح أنها نزلت متأخرة عن بقية السورة ثم ألحقت بها لأن كلا منها أطول بكثير من بقية آيات السورة » (١) .

ولا شك في أنه بمجرد النظر إلى المصحف العربي - وهو المادة الوحيدة الجديرة بالدراسة من دون الترجمات - نجد أن الآيات المذكورة في تعليق (رودويل) وهي (٨ - ١١) في سورة الملك تحوى أعداد الكلمات الآتية على التوالي (١٣-١٩-١٢-٥) ، على حين تتفاوت بقية الآيات في السورة في أطوالها ما بين (٨ - ١٨) كلمة ، ولكن الأهم من ذلك هو أن الآيات من (٨ - ١١) والتي نعتها (رودويل) بالدمج المتأخر تبدو مترابطة بدرجة كبيرة مع الآيات التي تسبقها والتي تأتي بعدها ، إذ إن الأفكار تنساب بجمال ورقة ، وهامى الآيات : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير * إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير * وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ [الملك آيات ٦-١٣]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفي المرجع انظر ص ٢٣ - ٦٥ .

والآن ، وإذا كانت الآيات من (٨ - ١١) لم تنزل في نفس الوقت الذي أنزلت فيه بقية السورة ، فما هذا إلا دليل وإثبات لما جاء به الإسلام من أن آيات القرآن وسورة ليست مرتبة في المصحف حسب ترتيبها التنزيلي ، ولكنها مرتبة وفق خطة إلهية وكفى .

ولقد ادعى (رودويل) أيضاً أن : « الآيات من (٢٤ - ٦٠) من سورة (الذاريات) لا تنتمي إليها أبداً ، وإنما أضيفت إليها بعد ذلك ، ولعلها جاءت إثر عملية تنقيح الكتاب وتعديله على عهد عثمان الذي أراد أن يصلها بما سبق عليها من آيات » (١) . ويمكن هنا أن نثبت خطأ هذا الإدعاء ، فالآيات من (٢٤ - ٦٠) من السورة المذكورة هي تكملة طبيعية للموضوع الذي بدأ الحديث عنه في الآيات من (١ - ٢٣) حيث تستهل السورة بالقسم (١ - ٤) ، ثم يأتي التحذير من الآخرة في الآيات (٥ - ٦) ، فالذين آثروا الحياة الدنيا وزينتها وأنكروا الآخرة ينتقدون في الآيات (٧ - ١٢) ، ثم يوصف بعد ذلك الثواب للمؤمنين ، والعقاب للمشركين في الآيات (١٣ - ١٩) ، ثم ينبه في الآيات (٢٠ - ٢٣) إلى النظر إلى آيات الله في الكون من حولنا ، أما الآيات (٢٤ - ٥٣) فهي تذكر بآيات الله في التاريخ ، وكيف جاء هلاك كل أمة كافرة اتهمت نبيها بالسحر والجنون ، وأخيراً تجيء إشارة للذين يكفرون برسالات الأنبياء في الآيات (٥٤ - ٦٠) فتحوى تذكيراً وتحذيراً لهم .

ويبدو واضحاً أن (رودويل) قد استخدم ترجمة رديئة للأصل القرآني العربي ليقوم بإرساء دعائم نظريته التي حاول تأليفها ، فهو يؤكد أن كلمة (سقر) المذكورة في سورة (المدثر) تعطى نوعاً من النشاط في النغمة فيقول : « إنها ربما دسها الكتاب أثناء كتابتهم للكلمة الملائمة » مع العلم بأنه لم يذكر تلك (الكلمة الملائمة) التي دارت

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفي المرجع انظر ص ٢٣ - ٦٥ .

بخلده^(١) ، ولكن لنر كيف تنتهى الآيات من (١٨-٣٠) من سورة
(المدثر) من المصحف :

﴿ إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم
نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر
يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * ساصيله سقر * وما أدراك ما سقر *
لا تبقى ولا تذر * لواءة للبشر * عليها تسعة عشر ﴾ [المدثر ١٨-٣٠]

ولا شك أن وجود التناغم هنا فعال جداً ومؤثر ، بل إن كل كلمة
قد أخذت مكانها المناسب الذى يؤكد معناها ويقويه .

افتراضات (جفرى) :

لقد جاء (جفرى) (Jwddey) بالتخمينات الخاطئة الآتية ، أولها
أنه قد نفي انتساب سورة (الفاتحة) إلى القرآن الكريم ، وجهل سورة
(آل عمران) فأغفلها من ترتيبه الخاص للقرآن ، ثم مضى فى زعمه
بأن سورة (المسد) قد أوحيت فى السنة الثانية بعد الهجرة فى المدينة ،
هذا على الرغم من أن هذه السورة هى من ضمن الوحي المبكر بمكة ،
وأنها قد أوحيت قبل عشر سنوات من الهجرة كما يسجل التاريخ
الإسلامى^(٢) ، فترتيبها فى النزول السادسة ، وكذلك اعتبر (جفرى)
سورتى (التكاثر) و(الماعون) مدنيتين ، على حين أنهما فى الحقيقة
مكيتان ، ثم اخترع ترتيباً تنزلياً خاصاً به للقرآن ارتكز فى عمله على
ملاحظاته الشخصية التى ربما جمعها من ترجمة القرآن التى عكف
على قراءتها ، ولنظرب مثلاً على ذلك : لقد افترض أن سورة (الفاتحة)
قد سبقت السورة (٩٩ - الزلزلة) ، و(٨٢ - الانفطار) و(٨١ - التكويد)
و(٥٣ - النجم) و(٨٤ - الانشقاق) و(١٠٠ - العاديات) ، على حين أن

(١) انظر المرجع السابق نفس الصفحات .

(٢) تفسير القرطبي .

التتابع الصحيح لهذه السور طبقاً لأخبار السيرة هو (٣٠)، (٩٣)،
(٨٢)، (٧)، (٢٣)، (١٤) .

وحول موضوع حذف سورة الفاتحة تماماً من القرآن ، قال جفرى:
« إن الإنسان - كما يظهر في هذه السورة ، يخاطب الله على العكس
تماماً من بقية الكتاب حيث نرى أن الله دائماً هو الذى يخاطب
الإنسان»^(١) ، ولعل خطأه هنا يبدو واضحاً حسب ما نراه من الآية الآتية
من سورة البقرة : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها
ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا
إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به
واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم
الكافرين﴾
[البقرة آية : ٢٨٦]

ففى هذه الآية ، نرى كما نرى فى سورة الفاتحة وكما نرى سوراً
كثيرة أخرى - أن المؤمنين قد هدوا إلى الطريقة المثلى لمخاطبة الله سبحانه
وتعالى .

ثم يجىء جفرى بعد ذلك بفرضية أخرى فيقول عن سورة (العصر)
« إنها سورة مكية ، ماعدا الآية الأخيرة فإنها مدنية »^(٢) ، ولنقرأ السورة :
﴿ والعصر . إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾
[المصر آية : ١ - ٣]

ولدى قراءتها من الأصل العربى أو حتى من ترجمة له ، فإننا نجزم
بعدم صحة فرضية (جفرى) ، لأن السورة تظهر بصورة كاملة
متكاملة .

ووفقاً لفرضية أخرى (لجفرى) جاء بها حول سورة (الجن)
فيقول : « إن الآيات الخاتمة للسورة تختلف كثيراً فى الشكل والأسلوب

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب القرآن ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٢٣ - ٦٥ .

وتظهر وكأنها قطعة غريبة وضعتها جامعوا القرآن أو كتبتة « (١) ، ولنقرأ الآيات السبع الأخيرة من سورة الجن التي يبلغ عدد آياتها ثمانيا وعشرين آية : ﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحداً ولن أجد من دونه ملتحداً * إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خاليداً فيها أبداً * حتى إذا رآوا ما يدعون فيسعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً * قل إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتض من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وإحصى كل شيء عدداً ﴾

[الجن آية : ٢٢ - ٢٨]

وهكذا نشعر تلقائياً فور قراءة هذه الآيات كيف بات (جفرى) مخطئاً في مزاعمه .

المعيار الملقق للتمييز بين الوحيين المكي والمدني :

مما لا شك فيه أن الحافز لتأليف أية نظرية مهما كانت تتعلق بالترتيب المصحفي والتنزيلى لم يقتصر فقط على (رودويل) (Rodwell) و (جفرى) (Jeffery) ولكنه شمل أيضاً (لامنس) (Lammens) ذلك الذى لفق معياراً للآيات المدنية ، فحواه أن تلك الآيات قد ابتعدت تماماً عن الترهيب الإلهي من يوم الحساب (٢) ، ولكن ذلك يظهر منافياً تماماً للحقيقة التي بدت واضحة في الأمثلة القرآنية التي سردناها في هذا الفصل والفصول الأخرى .

لقد ضل أولئك المعلقون الذين حاولوا خلق مقياس للتفريق بين السور المكية والمدنية يغاير حقائق التاريخ . ولنضرب لذلك مثلاً ؛ لقد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lammens) وفي المرجع انظر ص ٦٣ ، ٦٥ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفي المرجع انظر ص ٢٣ - ٦٥ .

افترض (بل) (Bell) أن « اهتمام محمد بأخلاقيات المجتمع ، ومحاربة الفساد والخيانة والتعفن الأخلاقي فيه ، كان ذلك فقط في بداية المرحلة التشريعية في المدينة » (١) .

ولكن الحقيقة لم تلبث أن ظهرت ، وبات خطأ نظريته واضحاً للعيان ، ذلك أن النبي ﷺ قد حارب الاختلال الأخلاقي في كل مراحل بعثته ، وكلمة (الفساد) وجدت في كل من الوحي المكي والوحي المدني على السواء ، وسورة (الفجر) وهي سورة مكية شاهدة على ذلك : ﴿ وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ [الفجر آية ١٠-١٣]

ثم انعطف أولئك الدارسون إلى منعطف آخر في تفكيرهم ، ويتمثل ذلك في عبارة (بل) التى تقول : « من السور المشكوك فى أمرها سورة (البينة) ، تلك التى اعتبرها (موير) مكية التنزيل ، واعتبرها (جريم) كذلك بعد تردد ، ثم اعتبرها (نولدكه) مدنية . كذلك ارتاب الدارسون فى سورة (الحج) ، فصنفها (نولدكه) على سبيل التمثيل لأن الحصر ضمن السور المدنية الممزوجة بعبارات مكية . ومن ثم فإننا نرى أن المستشرقين قد صنفوا السور المكية إلى مجموعات تتضمن ما لا يعترفون بكمال ترتيبها على نحو تنزيلي » (٢) .

لقد استبدت بعقولهم فكرة غير سوية أملت عليهم معياراً ملفقاً لا يقبل إطلاقاً ، وذلك ليتسنى لهم تقرير زعمهم بأن سور القرآن يمكن ترتيبها على نحو تنزيلي ، مع قناعتهم التامة باستحالة دحض الترتيب الحقيقى والقائم لسور القرآن ، ومتجاوزين للأسف تلك الحقيقة الناصعة ، وهى أن سور القرآن الكريم وآياته لم يكن مقصوداً مطلقاً أن ترتب تنزلياً حسب ما يهبط على الرسول ﷺ من وحي السماء .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص ١٠٩ - ١١٣ .

(٢) انظر المرجع السابق فى نفس الصفحات .

تجميع الآيات المكية والمدنية :

أشرنا في الفصل السابق إلى أن كثيراً من السور القرآنية تحوى عدد قليلاً من الآيات المكية ويكون الباقي كله موحى فى المدينة ، والعكس صحيح .

والآن لننظر إلى ما بين أيدينا ؛ إن مثل هذه الآيات القليلة على الرغم من أنها قد أوحيت قبل بقية السورة التى تحويها أو بعدها بعد سنوات ، فإن الشكل العام للسورة ككل يبدو غاية فى الإتقان والضبط ، كما أن توارد الأفكار « والذخيرة الضخمة من الإيقاعات الدقيقة المعقدة » كما حدث عنها (أربرى) (Arberry) ولد ذلك كله تدفقاً وسهولة ، من غير صدع أو إعاقة .

ولسوف نعرض الآن لبعض الأمثلة التى سنتناولها بالمناقشة ، كما أن (الملحق ٢) سيقدم قائمة بعدد أكبر من السور التى أوحى جزء منها بمكة والجزء الآخر بالمدينة .

١ - فى سورة (٩ - التوبة) ^{أحيت} الآيات المائة والتسع والعشرين على قلب النبى ﷺ فى المدينة ، عدا الآيتين الأخيرتين اللتين أوحيتا فى مكة قبل ذلك بأعوام ، وهما آخر ست آيات فى السورة :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون * أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون * وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون * لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾

[التوبة آية ١٢٤ - ١٢٩]

ويتضح من الآيات ذلك التمييز بين موقف الكافرين وموقف المؤمنين من أى سورة منزلة ، فالذين فى قلوبهم مرض فقدان الدين يتناقص إيمانهم بصورة مطردة لدى سماعهم لأى سورة ، ويولون الدبر سراعاً بسبب من عدم الوعى والفهم ، وهو ما نراه فى الآيات من (١٢٤-١٢٧) . أما فى الآية (١٢٨) فإن المؤمنين مخاصبون فيها بما يتعلق بوصف رسولهم المرسل إليهم من بينهم ، ثم يريح الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فى الآية (١٢٩) فيقول تعالى ما معناه : لو أعرض الكافرين عن قبول الرسالة فما عليك يا محمد إلا أن تتوكل علىّ - أنا الله - فأنا رب العرش العظيم .

والغريب أن يأتى مستشرق يدعى (لامنس) (Lammens) بنقد مريب ناجم عن عدم القدرة على فهم الهدف وتمييزه من الآيات السابقة، فيقول : « إن هذه الآيات مدنية التنزيل ، إنها ضلت طريقها وشردت لتدخل فى عداد الآيات المكية » !!

٢ - إن سورة إبراهيم ، وعدد آياتها ثنتان وخمسون آية ، قد نزلت كلها فى مكة ، عدا الآيات (٢٨)، (٢٩)، (٣٠) اللواتى نزل بهن الوحي فى المدينة ، بعد ذلك بسنوات ، وهى الآيات من (١٤-٣١) :

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * توتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء * ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار * وجعلوا لله أنداد ليضلوا عن سبيله

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٤٧ .

قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار * قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴿

[إبراهيم آية ٢٤-٣١]

ونرى أن هذه الآيات تناقش قضية المشابهة بين الكلمة الطيبة والشجرة الشامخة القوية ، ذات الجذور العتيدة ، وذات الثمرة الناضجة والوافرة فى جميع فصول السنة ، وكذلك المشابهة بين الكلمة الخبيثة والشجرة الفاسدة الضعيفة التى تجتث من فوق الأرض بكل بساطة ، وهذا هو المضمون حتى نهاية آية (٢٦) . بعد ذلك يأتى سيرة الكافرين وخاصة أولئك الجاحدين منهم ، الذين بدلوا نعمة الله وأحلوا محلها الكفر والعصيان فما كان مصيرهم إلا التيه والضياع كما جاء فى الآيتين (٢٨) ، (٢٩) ، ثم تأتى آية (٣٠) بتوضيح أن أولئك الجاحدين ابتعدوا عن الله تعالى الذى يخبرهم : إن تمتعوا الآن فماؤاكم بعد ذلك هو النار ، وأخيراً فى آية (٣١) أمر النبى ﷺ بأن يخبر عباد الرحمن أن يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقهم الله فى السر والعلن ، قبل أن يأتى يوم تحاسب كل نفس عما اقترفت من أفعال ، ولن يكون هناك أى نوع من المقايضة أو المنح على غرار ما كان يفعله الناس فى الحياة الدنيا .

٣ - لقد نزلت سورة الحجر بأياتها التسع والتسعين فى مكة ، باستثناء آية (٨٧) التى لها أصل مدنى ، ونستعرض الآن الآيات من (٨٥ - ٨٩) :

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل * إن ربك هو الخلاق العليم * ولقد آتيناك سبغاً من المثانى والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين * وقل إني أنا النذير المبين ﴿

[الحجر آية : ٨٥ - ٨٩]

والخطاب في هذه الآيات للنبي ﷺ ، وهو يؤمر فيها أن يتأمل خلق الله من حوله ، في السموات والأرض ، ويرى أن كل شيء قد خلق بالحق ، وأن كل دليلاً من الدلائل تؤكد حقيقة اليوم الآخر ، وهو ما تتضمنه آية (٨٥) ، أما آية (٨٦) فتجزم بأن الله تعالى هو الخالق العليم بكل شيء ، وتحتوي آية (٨٧) تذكيراً دائماً للنبي ﷺ بفضل الله تعالى عليه ومنتته ، وتشتمل آية (٨٨) على أمر للنبي بأن يخفض جناحه للمؤمنين ، يعنى أن يكون طيباً متجاوباً معهم ، وألا يحزن على من أعرضوا من قبل دعوته ، من أجل عالم شهواتهم المحدود ، وأخيراً تحتوى آية (٨٩) إرشاداً للنبي ﷺ أن يدعوا الناس وينذرهم من عذاب الله تعالى .

الروابط بين السور المتعاقبة :

وعلمية دراسة الروابط بين كل سورتين متعاقبتين في المصحف تعطى برهاناً آخر على حقيقة وحى الترتيب المصحفى للقرآن على قلب محمد ﷺ ، وأن ذلك لم يكن جزافاً ، وهامى بعض أمثلة لتوضيح هذه النقطة :

١ - إن العلاقة بين سورة (١ - الفاتحة) وسورة (٢ - البقرة) تبين أن الأولى تنتهى بتضرع إلى الله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فى حين تستهل السورة الثانية بإشارة إلى معنى الهداية نفسه ، وفى مطلع سورة البقرة : ﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ [البقرة آية ١ - ٢]

ونرى أنها تعطى إجابة إلهية عن توسل الإنسان فى نهاية سورة الفاتحة .

٢ - إن الآيتين الأخيرتين من سورة (الأنفال) تصفان السلوك التعاونى والأخوى للمؤمنين ، وتبشرهم بالثواب الإلهى ، ثم تأتى سورة (التوبة) التالية لها مباشرة فى المصحف فتستهل بالتحذير للكافرين

والمشركين والمنافقين ، وبذلك تمثل السوتان معاً تعارضاً مؤثراً ببناء
للقارئ المؤمن ، فيقنعه على الدوام باتباع الطريق المستقيم والبعد عن
الطريق المعوج .

٣ - تخاطب كل من سورتي (٩٣ - الضحى) و (٩٤ - الشرح)
الرسول ﷺ ، فتحدثه الأولى أولاً بصورة مريحة لينة ، يقول تعالى :

﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى *
وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم
يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى *
فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك
فحدث ﴾ [الضحى آية ١-١١]

فهو هنا يذكر النبي برحمته به ، وفضله عليه ، إذ آواه عندما كان
يتيماً ، وهدهاه عندما كان ضالاً حائراً ، وأغناه عن السؤال عندما كان في
حاجة إلى الناس ، وهو ما نراه في الآيات (٦ - ٨) ، ثم نراه في نهاية
السورة يحظر عليه تعالى أن يقهر يتيماً أو يرد سائلاً بقسوة ، وإنما ينبغى
عليه أن يعلن ربه عليه ، ويحدث بها الناس .

ثم نرى بعد ذلك من سورة (الشرح) نوعاً من التكملة لسورة
(الضحى) ، فنراها مبتدأة بتذكير النبي ﷺ ببعض ما أنعم الله تعالى به
عليه ، فيقول تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك
* الذي أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك ﴾ [الشرح آية ١-٤] ،
ولعل العلاقة بين السورتين تبدو قوية واضحة .

ومن أمثلة كهذه كثيرة ، ومن صفحات القرآن يبين لنا أنه ليس
مجرد كتاب تأريخ عادى ، بحيث ينبغى على كل جملة أن تتبع الجملة
السابقة عليها زمنياً .

ولا ريب الآن فى أن المستشرقين السابق ذكرها قد بذلوا قدراً هائلاً
من الوقت والجهد فى محاولتهم لترتيب آيات القرآن فى شكل آخر
مختلف عن هذا الموجود فى المصحف . ولنسأل ؛ هل وجه هؤلاء
المستشرقون جهدهم واهتمامهم لمادة القرآن العظيمة ، وإلى الثروة الهائلة
من الأفكار النبيلة التى يحفل بها هذا الكتاب المقدس

كم كانت نتائج مجهوداتهم الجبارة ستكون مثمرة ، لو أنهم
وجهوها فى هذه السبيل !!

* * *

الفصل الخامس

ترجمات القرآن الإنجليزية

جاء عن كلمة (الترجمة) في قاموس (أكسفورد)^(١) أنها التعبير عن معنى أو جملة أو كتاب تعبيراً كاملاً بلغة أخرى ، ولا شك في أن كل أولئك الذين حاولوا ترجمة القرآن من صورته العربية الأصلية قد وجدوا أن التعبير عن فيضه الهائل من الأفكار بالكلمات المحدودة القليلة التي لديهم يعد شيئاً مستحيلاً ، ومن ثم فقد أحجم بعضهم ، وهم أولئك الذين أدركوا هذه الصعوبة البالغة عن تسمية أعمالهم بالترجمة ، ومثالهم (بيكتال) (Pickthall)^(٢) الذي أطلق على طريقته الخاصة لترجمة القرآن اسم (معنى القرآن العظيم) ، أما المستشرق الألماني (محمد أسد)^(٣) فقد أطلق على ترجمته (رسالة القرآن) ، في حين أن (أربري) (Arberry)^(٤) قد أطلق اسم (تأويل القرآن) على مؤلفه ، مع العلم بأنهم قد قاموا بترجمته نقلاً مباشرة عن العربية ، وهو ما يجعلنا في غنى عن القول بأن الترجمات من الدرجة الثانية أو الثالثة ، كالتى نقلت عن العربية إلى اللاتينية أو الفرنسية ، ثم إلى الإنجليزية لا شك في بعدها كل البعد عن الأصل العربى .

وعلى الرغم من الخطأ الواضح فى ذكر كلمة (ترجمة) إلا أنها تبقى الأكثر ملاءمة ، مما يدفعنا إلى استخدامها تجاوزاً فى هذه الفصل . ولا شك أن القارئ يقدر ما نعى .

(١) (The concise Oxford Dictionary)

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Pickthall)

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Asad)

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry)

نبذة تاريخية :

كانت الترجمة الأولى للقرآن - إلى لغة من اللغات الغربية - هي إلى اللاتينية ، وكان الذي قام بها هما (روبرتوس روتنيسيس) (Robertus Rotensis) و(هرمانوس دالماتا) (Hermannus Dalmata) في عام (١١٤٣) ، وقد بقيت هذه بدون طباعة حتى عام (١٥٤٣) ، وفي عام (١٦٤٧) قام (أندري دي راير) (Andre' du Ryer) الذي كان قنصلاً بمصر لعدد سنين بترجمته إلى الفرنسية ، ولكن (سيل) (Sale) قد وصف هذه الترجمة باحتوائها على أخطاء في كل صفحة ، وكذلك على أخطاء في الترجمة نفسها فضلاً عن الإسقاطات والإضافات .

وفي عام ١٦٨٨ قام (ألكسندر روس) (Alexander Ross) بترجمة عمل (أندرودى راير) من الفرنسية إلى الإنجليزية مما جعلها تعد أول نسخة إنجليزية مترجمة للقرآن الكريم ، وقد وصف (سافارى) (Savary) هذه الترجمة بأنها تستحق الازدراء والاحتقار ، ونعتها (سيل) بالسوء والرداءة وأنها ليست بأحسن من أصلها الفرنسى ، وتوالت الترجمات الإنجليزية التي استند الكثير منها على ترجمة لاتينية قام بها الأب (لادوفيك ماراكس) (Fother Ludovic Maracci) عام (١٩٦٨) ، وكان كاهناً للاعتراف بالكنسية الكاثوليكية ، وتعلم العربية على يد أحد الأتراك !

ولعل من أشهر الترجمات الإنجليزية للقرآن تلك التي قام بها (جورج سيل) (Gorge Sale) في عام (١٧٣٤) ، وقد احتوت هذه على مقالة مفصلة مفسرة ، ويظهر فيها اعتماد (سيل) على ترجمة (ماراكسى) اللاتينية^(٢) وذلك لعدم تمكنه الكامل من اللغة العربية ، فقد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wollaston) وفي المرجع انظر ص ١١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (سورة من القرآن) ص ١٠ - ٤٠ .

تعلمها من إيطالي ويدعى (داديتشى) (Dadichi) وكان مترجماً للملك آنذاك .

وعلى الرغم من أن (فولتير) (Voltair) قد جزم بقضاء (سيل) لفترة « خمس وعشرين سنة فى الجزيرة العربية حيث حصل معرفة عميقة وعالية بلغة العرب وعاداتهم ، إلا أن المؤرخ (ر.أ. دافنبورت) (R.A. Davenport) نفى هذا الزعم نفياً قاطعاً ، وأفاد بزنه يتعارض تماماً مع البيانات الصارمة عن التواريخ والوقائع والأحداث » ، وبناء على ذلك « استحال وجود سيل فى جزيرة العرب لأية فترة تذكر ، وترتب عليه صرف النظر عن تلك القصة لنمضم إلى الأساطير التى كانت دائماً عبئاً على كاهل المؤرخين الصادقين » (١) .

ومن الأشياء التى لا يمكن إنكارها أن ترجمة (سيل) للقرآن تحوى العديد من الأخطاء التى يشير كل خطأ منها إلى عدم إدراك (سيل) نفسه للغة العربية ، وهو ما سوف نضرب أمثلة عليه فى جزء لاحق من هذا الفصل ، ولكن على الرغم من احتواء ترجمته على الوفير من المغالطات والأخطاء إلا أن كتابه هذا أعيد طبعه نيفاً وثلاثين طبعة ، وأعيدت ترجمته إلى الهولندية فى عام (١٧٤٢) ، ثم إلى الألمانية عام (١٧٦٤) ، وإلى الفرنسية سنة (١٧٥٠) ، والروسية فى عام (١٧٩٢) ، وكذلك إلى السويسرية عام (١٨١٤) ، وبعد ذلك ترجم فى عام (١٩٠٢) إلى اللغة البلغارية .

ولقد حاول كثير فيما بعد ترجمة القرآن إلى الإنجليزية ، وكان أغلبهم من الكتاب الإنجليز الذين اعتمدوا اعتماداً على ترجمة (سيل) أو على ترجمات أخرى ، وهكذا ظهرت ترجمة (رودويل) (Rawood) فى عام (١٨٦١) ، وترجمة (بالمر) (Palmer) فى عام (١٨٨٠) ،

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sweetman) وفى المرجع انظر ص ٥ .

وترجمة (بل) (Bell) وأسلوبه في الترجمة في عام (١٩٣٩) ، ثم ظهرت ترجمة (داود) (Dawood) في سنة (١٩٥٦) .

أما ترجمة (البروفسور أوبري) (Professor Arberry) للقرآن والتي نشرت في عام (١٩٥٥) فقد وصفها (وات) (Watt) و(ويليامز) (Williams) بأنها « أعظم النسخ المترجمة مكانة من ناحية الأسلوب »^(١) ، ولو أنه بفحص تلك الترجمة يتبين أن بها أخطاء كبيرة. أما ترجمة المستشرق (داود) فيمن أشنع أخطائها أنه تعمد التلاعب في ترتيب السور .، وتحريف بعض الكلم عن مواضعه ، ومن المؤسف أن هذه الترجمة من أكثر التراجم انتشاراً في إنجلترا وكندا والولايات المتحدة.

ومن ناحية أخرى فقد قام عدد من الرجال في البلاد الإسلامية بترجمة القرآن ، فكانت ترجمة (عبد الحكيم خان) في عام (١٩٥٠) وترجمة (ميرزا أبو الفضل) في عام (١٩١١) ، وترجمة (محمد علي)^(٢) في (١٩١٦) ، ثم ترجمة (عبد الله يوسف علي)^(٣) في عام (١٩٣٨) ، كما قام مستشرقان غربيان اعتنقا الإسلام هما (مارمادوك بيكثال) (Marmaduke Pickthall)^(٤) و(محمد أسد) (M. Asad)^(٥) بترجمة القرآن من العربية مباشرة في سنة (١٩٣٠) وسنة (١٩٨٠) على الترتيب .

تقييم الترجمات الإنجليزية :

يجب ألا نتوقع قدرة أية ترجمة على أن تنقل كل الأفكار المعبرة عنها في الأصل العربي للقرآن بحذافيرها ، ولعلنا نستشهد هنا بما قاله

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبي والحاكم) ص ٢٤٣

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A. Y. Ali) .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Pickthall) .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Asad) .

(وليامز) (Williams) في هذا الموضوع : « لا يمكن لأية ترجمة أن تكتب لها النجاح مهما بلغت دقتها في نقل المعنى »^(١) ، ولا شك في أن الإنسان عندما يقرأ القرآن بالعربية يجد نفسه مجبراً على التسليم بما قاله (وليامز) ، وذلك لأن استخدام العربية بصفة عامة في التعبير عن الأفكار يكشف دائماً أنها فعلاً لغة جامعة قوية خصبة ، كما أن عربية القرآن الكريم تبدو مدهشة ، رفيعة المستوى ، مفعمة بالحياة والقوة ، بل ومشبعة بالبرقة والدقة والشدة في آن واحد، فهي في الحق أخاذاة بالألباب، حتى لقد جاء على لسان (البروفسور جيب) (Gibb) قوله : « إنه لا يمكن لأي إنسان أن يعزف على هذه الآلة القوية العميقة الصوت - يقصد اللغة العربية - مثل عزف القرآن عليها بمثل هذه القوة، وهذا الوضوح ، ومصاحبة هذا المدى الواسع من العواطف المؤثرة »^(٢) ، كما قال (بودلي) (Bodley) : « إن من يستمع إلى رنين القرآن وهو يتلى بلسان عربي لا يستطيع أن ينقل هذا الرنين مترجماً إلي الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية »^(٣) .

ومع ذلك ؛ فإن بعض الترجمات قد أدت الغرض منها إلى حد كبير فعملت على تحريك مشاعر قارئ القرآن الصادقين الباحثين عن الحقيقة ، كما ساعدت على تقديم الكثير لغير المسلمين لكي يعتنقوا دين الإسلام وتؤمن به قلوبهم .

ولا ريب في أن مقارنة أي ترجمة للأصل القرآني العربي تشبه إلى حد كبير مقارنة صورة رسمها أحدنا بأظفره لمنظر طبيعي خلال غنى بأضوائه وبألوانه وظلاله ، ونابض بالحركة والأصوات من خريف المياه ، وحفيف الأشجار ، وتغريد الأطيوار ، حيث إن مفردات اللغة العربية كما

-
- (١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Williams) وفي المرجع انظر ص ٢ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٣٦ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bodley) وفي المرجع انظر ص ٢٣٧ .

استخدمت في القرآن تعطي ثروة ضخمة من الأفكار ذات الظلال والألوان الرقيقة ، والتي يستحيل التعبير عنها بصورة كاملة بعدد محدود من الكلمات في أية لغة أخرى .

ولتوضيح هذه النقطة ، لننظر إلى الكلمتين العربيتين ، (استطاع) و(استطاع) ، لقد قام كل من (سيل) (Sale) ومحمد علي و(بيكثال) (Pickthall) و(رودويل) (Rodwell) وآخرون بترجمتهما معا على أنهما إما (أصبح ذا قدرة) أو (كان قادراً) متغاضين بذلك عن الفارق الواسع بين معنيهما ، حيث إن كلمة (استطاع) تستخدم فقط في حالة الأفعال السهلة نسبياً كصعود تل أو جبل ، في حين تستخدم كلمة (استطاع) في المهام الأكثر جسامة كحفر نفق في جبل مثلاً .

وهذا مثال آخر يتعلق بصفات الله فهو (الخالق) وتعني أنه منشئ الأشياء من عدمها ، وكذلك هو (الخلاق) وتعني أنه منشئ كل شيء ، وكذلك هو (الفاطر) وتدل على أنه تعالى هو مبدئ أصل كل شيء إذ لم يحدث أن حاكى سبحانه مثلاً سابقاً عليه في الخلق ، وهو (البديع) بمعنى أنه هو الذي أبدع وأتقن الأشياء ؛ صنعها من غير اتباع أو تقليد لشيء ، وهو (البارئ) أي إنه هو الذي خلق وأنشأ المادة من عدم ، ولكننا نرى أن كل هذه الأسماء الحسنى قد ترجمت إلى (الخالق) (Creator)^(١) وإلى (الصانع) (Maker)^(٢) وإلى المنشئ (Originator)^(٣) أو إلى (المنتج) (Producer)^(٤) .

وبنفس الوتيرة تجيء الكلمات العربية (الملك) و(المالك) و(المليك) ، مختلفا كل منها عن الآخر في الكتابة والمعنى ، فنرى أن (الملك) هو السيد الأعلى منزلة ، على الرغم من أن (سيل) و(رودويل)

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Pickthall) وتحت (M. Ali) وتحت (Sale) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وتحت (Sole) وتحت (Rodwell) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وتحت (Roberts) .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٣٦ .

قد عبر كل منهما عن الكلمات الثلاث بكلمة واحدة هي (King)
وعبر (بيكثال) عن كلمة (مالك) بالذى يملك الأشياء (Owner)
بينما عبر (على) عنها بأنها (الرب) (Lord) .

وكذلك نجد كلمة (قادر) تعنى أن لديه المقدرة ، ولكن (قادر)
(مقتدر) هما صيغتان مختلفتان من إصفات المشبهة ، أى (الأسماء
الحسنى) ، والتي لها نفس الجذر ، مع العلم أن (سيل) (Sale) قد
فهم (مقتدر) على أنها الأكثر فعالية (Most potent) ، وفهمها
(رودويل) (Rodwell) بمعنى فعال (Potent) ، فى حين فهمها
(بيكثال) (Pickthall) على أنها قوى وجبار (Mighty) ، وفى
الحقيقة أن الصحيح الذى يمكن أن يترجم إليه هو الذى لديه القرة على
فعل عظام الأمور (Most capable of great) .

ولقد ترجم (على) كلمة مقتدر على أنها القوى (Powerful)
على حين ترجم (قادر) إلى مالك القوة (Possessor of power) ،
وذلك فى نفس الوقت الذى ترجمها (سيل) إلى المتناهى فى القوة
(Almighty) ، وترجمها (بيكثال) إلى المستطيع (Able) ، مع
العلم بأن التعبير الأقرب لهذه الكلمة هو ذو القدرة اللانهائية
(Infinitely capable) .

كذلك يوجد فى اللغة العربية كلمات مفردة من الصعب ترجمته
إلى أقرب من عدد كلمات فى اللغات الأخرى ، ومثال ذلك كلمة
(نطفة) التى نقلها (بوكاى) (Bucaille) إلى الإنجليزية بمعنى (كمية
صغيرة من السائل) (Small quantity of liquid) ، وكان (بوكاى) أسفاً
على عدم استعمال «المصطلحات الملائمة بصورة كاملة» ، فقد ترجم كلمة
(مكين) إلى « المسكن المستقر الثابت الوطيد » (Firmly established)
(lodging) ، ثم علق عليها بعد ذلك بأنها كلمة « صعبة الترجمة » (١) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bucaille) وفى المرجع انظر ص ٢٠١ .

ومع أننا قد قرأنا عدداً من الترجمات إلا أن الفارق البسيط بين (متى) و(أيان) لم يتم توضيحه في أى منها ، ذلك أن كلمة (متى) تعطى معنى الاستفهام ، فى حين أن كلمة (أيان) تتضمن إنكاراً لحادثة قد تحدث مستقبلاً ينص عليها فى السؤال .

الترجمات الإنجليزية الخاطئة :

ونقصد هنا أنه لم يتم أبداً التعبير عن الفهم الحسى للكلمة أو الآية، ولا شك أن ذلك ناتج عن أسباب عديدة ، منها :

- ١ - الجهل بالمعانى الدقيقة للكلمات العربية .
- ٢ - الفهم المقتصر على جانب واحد من المعنى .
- ٣ - الخلط بين الكلمات العربية المختلفة .
- ٤ - المعرفة المحدودة بالعربية ، والمقترنة بالتلفيق الخيالى .
- ٥ - الخلط بين العربية وكل من العبرية والسريانية .
- ٦ - بعض الخلط مع المعتقدات اليهودية .

وسوف نحاول فيما نستقبل من الحديث أن ندرس هذه النقاط بصورة مفصلة :

١ - الجهل بالمعانى الدقيقة للكلمات العربية :

وذلك كما نرى فى ترجمة (بالمر) (Palmer) لسورة الكهف ، الآية رقم (٢٦) ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَرِيكَ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ فيقول عن ﴿ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ ﴾ أنها تعنى : (أنه يستطيع أن يرى ويسمع) ^(١) (He can see and hear) ، على حين ترجمها (سيل) على أنها : « هل أنت الذى تستطيع أن تجعل الله تعالى يرى ويسمع » ^(٢)

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٢٤٩ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٢٧ .

(Do thou make him to see and to hear) ، و يترجمها (رودويل)
 بأنها « انظر وأصغ إليه تعالى وحده »^(١) (Look thou and hearken to
 him) ، بينما يمضى (بيكشال) فيقول فى معناها أنه « ما أنقى
 بصيرته تعالى وأقوى سمعه » (How clear of sight is he and keen of) ،
 مما يجعلنا نقول : إن هذا هو المعنى الوحيد القريب من المعنى المذكور فى
 الترجمة الصحيحة .

ولقد كتب (بالمر) (Palmer) فقال فى محاولة منه لترجمة الآية:
 ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل
 صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين
 فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ [التغابن آية ٩] ، وخاصة عن « ذلك
 يوم التغابن » فقال : « ذلك يوم الغش والاحتيال »^(٢) ، وأراد أن يوضح
 ويزيد فقال : « بمعنى أن كلا من الأخيار والأشرار سيخيب كل منهما
 ظن الآخر وذلك بتبديل مواضعهم ، فيعاقب الأشرار ، وينعم الأخيار » ،
 ولكن ما نعرفه أن القرآن الكريم يبين أن المؤمنين والكافرين لن يبدلوا
 مواضعهم مطلقاً ، كما أن المؤمنين لن تخيب آمالهم أبداً فى يوم الفصل
 وذلك لأن كلمة (التغابن) لا تعنى الخداع ولكن تعنى أن يقاضى
 كل طرف الآخر ويرفع ما يشبه الدعوى فى محكمة الفصل يوم القيامة ،
 كذلك إن الآية الكريمة لا تقول بأى حال من الأحوال بما جاء به
 المستشرق عن موضع كل من المؤمنين والكافرين .

ثم كتب (سيل)^(٣) فى محاولة لترجمة آية (٧٥) من سورة
 (الواقعة) وهى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ فقال : « علاوة على
 ذلك فإننى أقسم بأماكن النجوم » ، ولكن كلمة (فلا) هنا لا تعنى

-
- (١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ١٨٣ .
 (٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) وفى المرجع انظر ص ٤٨٦ .
 (٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٤٣٧ .

(علاوة على ذلك) ولكنها تعنى : (لذلك فإننى لا أفعل ...) ، كما أن مواقع النجوم لا تعنى بالضبط مكانها الفعلى ، وإنما تعنى ذلك المكان الذى تتواجد فيه ، أو تهوى إليه^(١) .

أما (جفرى) فقد أتى بمجموعة من الاستنتاجات الخاطئة لدى محاولته لترجمة الآيتين : ﴿ أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى ﴾ [القيامة آية ٣٤-٣٥] فقال : « أقرب لك ودائماً أقرب إلى الساعة ومن ثم فهى أقرب لك ولا تزال أقرب » (Nearer to thee, ever nearer to) the hour; then nearer to thee still nearer) ثم مضى (جفرى) ليقول : « إن هذه عبارة محاولة للربط بين هاتين الآيتين اللتين لا مكان لهما بعيداً عن الآيات السابقة عليها واللاحقة بها »^(٢) ، ولكن (جفرى) أهمل هنا نقطة هامة هى أن الآيات السابقة على هاتين الآيتين تصف أحوال أولئك الذين آذوا النبى ﷺ وكفروا به ، وتجذب انتباه القارئ إلى القيامة التى وصفت قبل هذه المجموعة من الآيات ، وكذلك تجذب انتباهه إلى الآيات اللاحقة بعد ذلك والتى تعطى دليلاً إضافياً على أن القيامة محددة بلا لبس كهذا العالم الذى نراه من حولنا كل يوم .

ولنستعرض مجموعة الآيات :

﴿ فلا صدق ولا صلى * ولكن كذل وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطى . أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى . أychسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يكن نطفة من منى يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ [القيامة آية ٣١ - ٤٠]

وكتب (رودينسون) (Rodinson) فى كتاب ظهر مؤخراً بعضاً

(١) انظر تفسير القرطبي الجزء السابع ص ٦٣٩٣ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (سور من القرآن) ص ٦٢ ،

من مفاهيمه الخاطئة حول الآية : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ [النجم آية ٤] فقال : « إن هو إلا إحياء يوعز به » بدلاً من أن يكتب (إن هو إلا وحى يوحى) ، وكتب كذلك عن الآية : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ [يسى آية ٦٩] فقال : « إننا لم نعلمه الشعر ولا يليق به أن يقرضه » بدلاً من أن يقول (إننا لم نعلمه الشعر ولا ينبغي له أن يتعلمه) ، كما ترجم معنى الآية : ﴿ أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون ﴾ [الطور آية ٤٣] ، فقال عنها : « هل لهم إله إلا الله ؟ ما أبعد الله عن أولئك الذين يشركونهم معه » بدلاً من أن يقول : « إن الله هو الأعلى بكثير من أولئك الذين يشركونهم معه » (١) .

إن (رودينسون) فيما يبدو قد ضل طريقه إلى القرآن ، ومن ثم فقد عمد إلى التناول عليه باصطناع فقرات مغايرة لأسلوبه أدخلها من عنده (٢) .

٢ - الفهم المقتصر على جانب واحد من المعنى :

لعل ترجمة (لين) (Lane) للآية : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بثسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [البقرة آية ٩٣] ، ونظرة خاطئة لذلك الجزء منها : « ... وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ... » توضح هذه النقطة ، فقد جاء على لسانه أنها تعنى : « أنهم قد رووا ظمأهم بأن وضعوا العجل في بطونهم » (٣) ولكن الآية لم تأت بشيء عن الشرب - بمعنى رى الظمأ -

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) ص ٧٢ ، ٩٦ ، ١١٤ .

(٢) المراجع السابق ص ٨٤ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) وفي المرجع انظر ص ٢١١ .

ذلك أن كلمة « أشربوا » تعنى أن قلوبهم قد امتلأت وتشبعت بحب العجل ، ومع ذلك يصر (لين) على أن « الكلمة التى تفيد معنى (القلب) ذات مغزى يفيد أنها (البطن) » ، وهذا تفسير خاطئ لأن المعدات فى اللغة العربية تدل على البطن ، ثم يمضى (لين) متشبثاً بإصراره فيقول : « إن الرواية تتفق مع توراة موسى حين جاء فيها [... ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار مسحوقاً ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل] (سفر الخروج - إصحاح (٣٢) رقم ٢٠) » ، ولكننا هنا نرى أنه لا علاقة لفحوى هذه الرواية كلها بما فى الآية القرآنية الكريمة .

وقد يتضح الفهم المقتصر على جانب واحد من المعنى لدى تناولنا لترجمة (سيل) (Sale) للآية : ﴿ وألقى فى الأرض رواسب أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ﴾ [النحل آية ١٥]

فقال فى معناها : « وألقىت الجبال على الأرض خشية أن تتحرك الأرض بكم »^(١) ، لكن جملة (فى الأرض رواسب) تعنى (أجزاء صلبة ثقيلة [فى الأرض] ، وليست [على الأرض]) ، كما أن (تميد) تعنى : أن حركتها قد تصير غير متزنة ، وهو ما يتعارض تماماً مع ما جاء به (سيل) الذى أكد أيضاً أن « كلمة (رواسب) تبدو وكأنها تعبر عن الكلمة العبرية (ميخانيم) (Mechanim) والتى تعنى القواعد أو الأساسات ، وهو ما يدفعنا إلى أن نفكر فى أن القرآن هنا ترجمة لعبارة جاءت فى سفر المزامير (Psalm) وهى : [المؤسس الأرض على قواعدها فلا تنزعزع إلى الدهر والأبد] (سفر المزامير - مزموور (١٠٤) رقم ١٥) .

ولكننا ولا شك نرى هنا اختلافاً جوهرياً عن المعنى الصحيح للآية .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) .

أما (بالمر) (Palmer) فقد أدرك وجهها واحداً فقط من المعنى فى ترجمته للآية : ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [الحج آية ٦٥] ، وذلك حين قال : « إن الله يمسك السماء أن تقع على الأرض ، اللهم إلا إذا أخذت الأمر منه فتستجيب ، ومن ثم فإن الله حقاً هو رؤوف رحيم »^(١) ، وهذه الترجمة صائبة إلى حد بعيد ولكن (بالمر) مضى فقال : « إن كلمات النص ربما تترجم على النحو : (يمسك المطر أن ينزل على الأرض) » وأضاف : « أنه لم يلتفت أى من الدارسين لفهم النص بهذه الطريقة » .

وفى الواقع ، إن كلمات النص لا يمكن ترجمتها إلى : « يمسك المطر أن ينزل على الأرض » وذلك لأن الكلمة العربية (السماء) فى هذا المضمون لا تشير بأى حال من الأحوال إلى المطر ، ولكنها تعنى السموات العلى ، والأماكن التى هى أعلى من الأرض أو فوقها كالسقف ، أما الكلمات التى يمكن أن تعبر عن نزول الماء من السماء فهى الماء أو الغيث أو المطر ، على الرغم من أن المطر قد يعبر عنه أحياناً بذلك « الماء النازل من السماء » ، ولكن يتم التعبير عنه بكلمة (السماء) وحدها ، وعلى ذلك فالآية التى نحن بصددنا الآن تتضمن بالفعل ما يلى : إنه - تعالى - يمسك السماء ، ويقصد الأجرام والأجسام السماوية أن تهوى إلى الأرض ، وهى لا تسقط إلا بإذنه ، وأن هذا ليس إلا مظهراً من مظاهر رحمة الله تعالى ولطفه بالإنسان .

وهناك اقتراح آخر أتى به (بالمر) (Palmer) من خلال تعليقه حول الآية : ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ [طه آية ١٥] ، فقال (بالمر) (Palmer) : « المعنى أن الساعة قادمة لا محالة ، وأنا - أى الله تعالى - دوماً أخفيها وذلك لتلقى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) وفى المرجع انظر ص ٢٩ .

كل نفس مصير ما جنته من أفعال » ، ولكن بعد هذه الترجمة الصحيحة يضيف : « إن هذه الآية يمكن ترجمتها كما يلي : « ... وأنا دوما أخفيها عن نفسي » ، ولا شك أن هذه الترجمة مستحيلة لدى تصور المرء من المتحدث هنا ، سبحانه وتعالى .

وكمحاولة منه لترجمة الآية : ﴿ واذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن وتخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ [الإسراء آية ٦٠] ، ارتكب (جفرى) (Jeffery) أخطاء مماثلة حينما قال : « حقاً إن الله محيط بالناس » ، ولكنه عمد إلى خطأ من نوع ما ندلل عليه حين قال : « أما عن صلاحية قدرات الله تعالى وخصائص إحاطته بالناس فذلك ما لا نعرفه »^(١) ، وما يظهر أن (جفرى) قد فهم كلمة (أحاط) على أنها (التف حول) ، على الرغم أنها تعنى فى اللغة العربية (هيمن) ، فيمكننا القول بأن الله تعالى له التحكم المطلق فى مخلوقاته ، وأن واحداً منهم لا يمكنه الفكاك أبداً من دائرة حكمه^(٢) .

ولقد حاول (جفرى) مرة أخرى ، فأكد بخصوص الآية : ﴿ وفرعون ذى الأوتاد ﴾ [الفجر آية ١٠] ، والتي تعنى : « فرعون صاحب الأهرام » فقال : « إن المقصود بفرعون أصحاب أوتاد الخيام والتكديسات الخشبية غير معروف »^(٣) .

ولكن هل أدرك خطأه هذا ؟ إن الفراعنة شيدوا أهراماً ضخمة كالجبال ، ولهم قبور ومعابد منحوتة فى الجبال ، كما أن كلمة (أوتاد) ذكرت مراراً فى القرآن بمعنى (جبال) كما فى المثال الآتى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً * والجبال أوتاداً ﴾ [النبأ آية ٦ - ٧]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٢٠٦ - ٢٢٣ .

(٢) انظر تفسير القرطبي الجزء الثامن ص ٧٠٨٩ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٢٠٦ - ٢٢٣ .

٣ - الخلط بين الكلمات العربية المختلفة :

توجد في كل لغة كلمات لها مسمع متشابه تقريباً مع أن معنى كل منها يختلف تماماً عن معنى الأخرى ، وقد تختلط هذه الكلمات على اللغويين غير المتمرسين ، ولا شك في أن هذا هو الذي حدث عند ترجمة القرآن .

ومثال لذلك ، لقد التبس على ذهن (جفرى) (Jeffery) ذلك الفارق بين كلمتي (قَدْر) و (قَدَر) ، فذكر أن « قَدْرُ تعنى القدرة التي يطلقها المسلمون على القضاء الذي يحدد مسبقاً قبل حدوث أى شيء سواء أكان شراً أم خيراً »^(١) .

وقد نتجاوز هنا ونقول عن ذلك : إنه صحيح ، ذلك أن (قَدْر) لا تعنى بالضبط القدرة بقدر ما تعنى القيمة والمقدار ، فضلاً عن أن (جفرى) قد أخطأ في المقارنة بين القَدْر والقَدَر .

ولقد وقع (جفرى) في خطأ تقليدى آخر يتعلق بكلمة (تقويم) والتي ذكرت في سورة (التين) في آية رقم (٤) ، ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ ، فذكر أنها (تقوين) وتعنى المثلية و«التشابه»^(٢) ، على الرغم من أن كلمة (تقوين) حقيقة لا وجود لها في العربية ، فهي ليست جذراً له تصريفه وخصوبته^(٣) ، وإنما أقرب كلمة لها هي (تكوين) ، وتعنى الإنشاء والخلق ، أما كلمة (تقويم) فهي تعنى الإقامة على خط مستقيم . كذلك لقد خلط (جفرى) بين كلمتي (سَرَبَا) و (سَرَابَا) مع أن (سَرَبَا) من المحتمل أن تكون الانطلاق بحرية ، أما (السراب) فهي ما يتخيله السائر في الصحراء من

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (سور من القرآن) ص ١٠ - ٤٠

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٢٠٦ - ٢٢٣ .

(٣) جاء في لسان العرب : أن القَوْنَة : القطعة من الحديد أو الصُّفْر (النحاس) يرقع بها

الإناء وقَوْنٌ وقَوِينٌ : موضعان . فلا علاقة لها بوجود جذر لغوى . (المراجع) .

أنه بحيرة من الماء^(١) ، ﴿ حتى إذا جاء لم يجده شيئاً ﴾ [النور آية ٣٩]

ويعتبر (منيزس) (Menezes)^(٢) مثالا على هذا النوع من الخلط ، فقد ترجم كلمة (أبو بكر) - وهى كناية صاحب النبي ﷺ وأول المصدقين به على أنها (أبو العذراء) ، وهو ما يتناقض تماماً مع ما فى العربية من أن العذراء هى (البكر) بكسر الباء - بينما (البكر) هو كلمة عربية تعطى معنى البكور والتبكير .

وكذلك أخطأ (سافارى) (Savary)^(٣) فى ترجمته لكلمة (حافين) فى سورة الزمر آية ٧٥ : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ فقال : إنها تعنى (حفاة الأقدام) كأنه قرأها (حافين) بتخفيف الفاء ، على حين أن المعنى الصحيح للآية - بتشديد الفاء - : « أنك ترى الملائكة يطوفون حول العرش معظمين مقدسين لربهم »^(٤) .

٤ - المعرفة المحدودة بالعربية المقترنة بالتلفيق الخيالى :

لقد هاجم (سيل) (Sale) القرآن من خلال فهمه الخاطىء لكلمة (أخ) ومؤنثه (أخت) وترجمته إياها حرفياً على أنها (شقيق) فقال : « إن القرآن يخلط بين مريم التى هى أم السيد المسيح ، ومريم أخت موسى وهارون ، مما يعد (مفارقة تاريخية مفرطة) ... ذلك أن هناك حوالى ألف وثمانمائة سنة تفرق ما بين عمران ، وهو أبو موسى ، وبين عمران الذى هو أبو مريم العذراء »^(٥) .

و(سيل) هنا لم يستطع أن يتصور أن كلمة (أخ) مع أنها قد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٢٠٦ - ٢٢٣ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٢٣ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Savary) وفى المرجع انظر ص ٣٧٧ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Pichall)

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) ص ٣٨ .

تعنى (الشقيق) إلا أنها يمكن أن يعنى بها وبنفس القوة (منتم ، أو ذو علاقة مع) . ولعلنا نلاحظ أن اتهام (سيل) هنا يركز على آية رقم (٢٨) فى سورة (مريم) وهى : ﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾ - حيث تتضمن اتهام اليهود لمريم العذراء التى تنتمى لعائلة هارون الشريفة ، عندما رأوها تحمل طفلها عيسى - الذى لم يعرفوا أباه - بين يديها ، فقد لاموها على اقترافها لهذا الفعل المشين .

ولقد تبنت قلة من المستشرقين رأى (سيل) الخاطىء ، وذلك لأنهم كانوا مدفوعين بغفلتهم عن أن (أخ) تستعمل فى القرآن على أنها (المنتسب إلى) وليس على أنها فقط (الشقيق بالدم) - والانتساب هنا يكون إلى نفس الأمة أو القبيلة ، حيث كان ينبغى عليه أن يلحظ أثناء ترجمته للقرآن الآيات الآتية :

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴾
[هود آية ٥٠]

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾
[هود آية ٦١]

ولا ريب أنه قد وجدت أخطاء أخرى فى الترجمة تحاكي تلك ، ولعل من أبرز أمثلتها ما جاء به (بل) (Bell) من أن « القرآن يختلف عن الفرقان والمثنانى والكتاب »^(١) ، والحقيقة أن القرآن والكتاب والفرقان هى ثلاثة أسماء بسيطة من خمسة وخمسين اسماً لنفس الكتاب ، وهو ما قد ذكرناه فى مقدمة مؤلفنا هذا .

وكمحاولة من (بل) لإثبات ما جاء به فقد استشهد بآيات كثيرة

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص ١٣٠ - ١٣٤

ثبت منها فى النهاية أن الأمر قد التبس عليه ، وإلى القارئ نسوق هاتين الآيتين ، وهما تبيينان تفريقه بين أسماء القرآن المختلفة (١) :

﴿ أكر تلك آيات الكتاب وقرآن مبین ﴾ [الحجر آية ١]

Alif, Lam, Ra: These are verses of the book and a manifest)

. (Quran (recitation)

وكذلك : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس
وبيّنات من الهدى والفرقان ﴾ [آل عمران آية ١٨٥]

(The month of Ramadhan in which was revealed the Quran,
a guidance for man - kind , and clear proofs of the guidance,
and the criterion Furqan) .

وهذا التناول الخاطىء للموضوع وجد صدى لدى (بارتون)
(Burton) مؤخراً (٢) ، حيث حاكاه بصورة حرفية ، ويمكن تشبيه وجهة
نظر (بل) للموضوع برجل قرأ تقريراً عن رجل آخر وليكن (السيد
فلان) جاء فيه : « إنه رجل أعمال ماهر وفنان حساس كما أنه رب
أسرة ناجح جداً » فهوى فى أخطود الفهم الخاطىء للموضوع فتخيل أن
السيد فلان هذا كأنه ثلاثة أشخاص مختلفين ، كذلك ينبغى لنا أن
نفهم أن كلمة (فرقان) هذه ، وهى اسم من أسماء القرآن ، تحمل معنى
التفريق بين الخير والشر ، وهو ما قد يظهر أحياناً جلياً واضحاً ، كما فى
الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر
عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ [الأنفال آية ٢٩]

ثم ينبرى (بل) (Bell) مظهراً عدم تفهمه للأسلوب القرآنى ،
ويطلق استنتاجاً بعيداً عن الصحة جاء فيه أن بعض الآيات قد حشرت فى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص ١٣٠ - ١٣٤ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Burton)

غير أماكنها المناسبة لها^(١) ، ويعطى مثلاً لذلك قائلاً : « إن الآية (٤٢) من سورة (المائدة) تبدأ بالتعبير (سماعون للكذب) وهو ما ليس له أى صلة بالسياق ، وقد نجد أن نفس التعبير موجود فى آية (٥١) من نفس السورة وهو ما يدفعنا إلى تبديله بها وبما جاء بعده فى الآية رقم (٤٢) .
ولكى نحكم على مقالة (بل) هذه دعونا نقرأ الآيتين المعنيتين ، لنرى كيف باتت عملية التبديل التى يدعو إليها غير صحيحة على الإطلاق :

﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يرد الله فتنه فلن تملك له من الله شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزي ولهم فى الآخرة عذاب عظيم * سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾ [المائدة آية ٤١ - ٤٢]

ولا شك فى أن الآيتين ، إحداهما تكمل الأخرى ، ولا يمكن أن تغنى عن أختها ، ولكن ما يبدو هو أن قراءة التعبير (سماعون للكذب) مرتين فى ترجمة ركيكة دفعت (بل) إلى هذه النتيجة الخاطئة ، مع العلم بأن هذا التكرار ما هو إلا مثال يحتذى به متذوقو اللغة العربية ، المفتونون بها على أن التكرار يؤكد المعنى ويضيف مزيداً إلى بريق الأسلوب ولمعانه .

لذا ؛ فإن المعرفة الهزيلة باللغة العربية الفصحى تحرم أى إنسان من

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص ٥٩ .

تقدير الظلال المختلفة للمعنى المقصود ، عندما تأخذ الكلمات معاني مختلفة في أماكن شتى .

ومثال آخر على النقد المبني على ضحالة المعرفة بمشتقات اللفظ العربي ومعانيه - ما أتى به (ر. ليفي) (R. Levy) الذي زعم بأنه « إن ثبت أن الأرض قد استقرت عند الخلق وأصبحت وكأنها البساط ... فإن ذلك يوحي بأن الرسول قد تخيلها مستوية »^(١) ، ثم عرض الآيتين الآتيتين في محاولة منه لإثبات هذه النقطة :

﴿ ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا ﴾ [النبا آية ٦ - ٧] ،
مع أن (مهاد) يفسرها اللغويون على أنها « مكان الاستقرار كمهد الطفل »^(٢) ، وكذا كروية الأرض هي أيضاً مناسبة للاستقرار وللحياة كما يعرف الجميع .

ثم مضى (ر. ليفي) في خطئه وسرد ترجمته للآيتين فكانت ،
« ألم نجعل الأرض مهادا منبسطة ونجعل الجبال عليها مباشرة كأوتاد الخيمة » (Did we not set out the earth a flat expanse and set there on mountains as tent pegs) .

ثم علق على الآية التالية : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ [يس آية ٣٨] ؛ فقال : « والشمس ترحل كل يوم إلى سكنها لراحتها » ثم يتهم المسلمين بأن لديهم مفاهيم خاطئة عن الكون - ولكن القرآن لا يذكر أبداً أن الشمس ترحل كل يوم .

ثم فسّر (ليفي) الآية : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ﴾ [الأنبياء آية ٣١] ، وأضاف إليها من خياله فقال : « وعلى الأرض ألقى الجبال لتعمل

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفي المرجع انظر ص ٢٤٦ .

(١) انظر تفسير القرطبي الجزء ٨ ص ٦٧٨٥ ، ٦٩٦٢ .

عمل أوتاد الخيمة لتثبيتها في مكانها ومنعها من الحركة ربما بفعل الماء البدائي «^(١) - أى الماء الذى يحمل الأرض طبقاً للنظريات العتيقة والمخاطئة عن الكون .

ثم يخلط (جفرى) (Jeffery) بين ما قرأه فى قصة خيالية من وحى الشرق وبين ترجمته للآية القرآنية الآتية التى تتحدث عن السموات، والتى تقول : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ [المؤمنین آية ١٧] ، فيفترض أن الآية تتضمن : « أننا بنينا سبع قباب سماوية » ، ثم يعلق قائلاً : « إنه لا يوجد سبع كرات بطليموسية »^(٢) ولكن توجد سبع قباب واحدة فوق الأخرى مثل الأوعية المقلوبة على سطح دائرى والتى تطوق ما تحجزه من مكان فى الفراغ^(٣) . ولا شك فى أن ما سبق يرينا كيف تم إكمال ترجمات القرآن بشيء من التلفيق الناجم عن تخيلات المترجمين قليلى المعرفة باللغة لدرجة يرثى إليها .

٥ - الخلط بين كل من العربية والعبرية والسريانية :

ومن الملاحظ أن بعض المعلقين وأصحاب الرأى من المستشرقين يكونون أفكارهم عن القرآن قبل دراسته ، أو حتى قبل قراءته ، فعندما يقررون أن كلمة ما هى فى الأصل سريانية أو عبرية تجدهم يسارعون ويحملونها معنى خاطئاً ، على الرغم من أن الكلمات عربية بلا شك كما أن معانيها وتأويلاتها تختلف تماماً عما أتوا به ، كذلك فإن المعانى العربية هى بطبيعتها الفريدة التى تنسجم مع الآيات ومع باقى الكتاب الكريم ككل .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ٤٦٢ .

(٢) بطليموسية : نسبة إلى بطليموس عالم الفلك والرياضة الذى سطر اسمه فى الإسكندرية (١٢٧ - ١٥١ ق.م) (المترجم) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٢٠٦ - ٢٢٣ .

ولتوضيح هذه النقطة : لقد تصور (فون جرنبوم) (Von Grune-)
(baum) أن كلمة (قرآن) هي الكلمة السريانية (قريانا) (Qeryana)
والتي تعنى (كتاب القداس) (Lctionary) - أى كتاب يتضمن
فصولاً من التوراة للتلاوة فى قداس .

ولكن كما جرت العادة فإن استعارة كلمة من لغة أخرى لا تضيف
على الكلمة أى تصريف ، أو تجعلها خاضعة للصرف داخل اللغة
الجديدة ، كما أنها لا تجعلها مستقرة ذات أصل فيها ، على العكس من
كلمة (قرآن) التى لها تصريفات كثيرة فهى (قرأ - يقرأ - اقرأ - نقرأ
... إلخ) كما أن لها (قارئ - قراءة - قرآن) وهذه الأخيرة بمعنى
الكتاب الذى عادة ما يقرأ كثيراً .

وينفس الأسلوب وصف (وات) (Watt) كلمة (رُجز) وتعنى
(التلوث) بأنها تمثل الكلمة السريانية (رجزا) (Rugze) وتعنى
(العقاب الإلهى) ويقصد الإشارة إلى العقاب الإلهى الذى سيحل^(١) ،
وهو أمر بعيد الاحتمال ، والآن دعنا نقرأ الآية التى تحوى هذه الكلمة :

﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر .
والرُجز فاهجر ﴾
[المدثر آية ١ - ٥]

وحالة أخرى تتعلق بكلمة (فرقان) ، حيث زعم كل من (بل)
(Bell)^(٢) و (جفرى) (Jeffery)^(٣) أنها الكلمة السريانية (برقانا)
(Perqana) وتعنى « الخلاص » ، مع العلم أن كلمة (فرقان) هى
تصريف للكلمة العربية (فرَّق) بمعنى (فصل) ، والفرق هو الفصل ،
وهو ما نفهمه بسهولة من الآيات التى تحوى كلمة (فرقان) حيث إنها

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٢١ -

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ص ١٢٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٢٢٨ .

المؤشر إلى الفصل بين الخير والشر ، وكذلك يمكن أن نقول : إنه لا يوجد أى معنى للكلمة (فرقان) بمعنى (خلاص) فى الآيتين الآتيتين على سبيل المثال ، وهما قوله تعالى :

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسته وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير ﴾
[الأنفال آية : ٤١]

وقوله تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾
[الفرقان آية ١]

لقد زعم (جيب)^(١) (Gibb) أن (الحنيفية) تدل على العقيدة التى بشر بها محمد ﷺ فى مطلع بعثته ، وأنها قد استبدلت بها الإسلام مؤخراً فقط ، ثم زعم بعد ذلك أن كلمة (حنيف) هى الكلمة السريانية (همبا) (hampa) وتعنى (الوثنى) ، هذا على الرغم من أننا نرى أن كلمة (وثنى) (hampa) فى قاموس أو كسفورد تعنى ذلك الذى لم يتنور روحياً ، أو ذلك الشخص الذى ليس بمسيحى ، أو يهودى ، أو مسلم .

وبالطبع ليس هذا هو المقصود بكلمة (حنيف) فى العربية ، خصوصاً أن القرآن يشير إليها على أنها صفة الإنسان ذى الفطرة السليمة^(٢) .

ونرى ذلك فى الآيتين : ﴿ إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾
[الأنعام آية ٧٩]

﴿ وأن أقم للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ﴾ [يونس آية ١٠٥]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (الحمدية) ص ٣٨ - ٤٠ .

(٢) انظر تفسير القرطبي الجزء الأول ص ٥٢٤ .

فحنيف إذن كلمة تعبر دائماً عن المسلم الورع في توجيهه إلى الله تعالى ، وفي الخضوع له مائلاً عن كل شرك وضلال ، وتصف الإنسان الذي يعيش في سبيل الله ويقبض بقوة على دينه ، وهو ما يختلف بدهاة مع الكلمة السريانية التي تعنى (الوثنى) ، وسوف نتعرض لذلك في الفصل القادم .

وتبعاً لتأثر (جيوم) (Guillaume) بدراسته العبرية والسريانية ، والتي فاقت معرفته بالعربية كثيراً ، فقد ادعى قائلاً : « إن هناك الكثير من الكلمات في القرآن لا يمكن توضيح معناها من العربية ، وإنما ينبغي أن ترجع إلى أصولها العبرية أو السريانية ، وذلك قبل أن يستقى منها أى معنى »^(١) ، ثم ساق العديد من الأمثلة محاولاً إثبات مزاعمه ، ولكننا نقول : إن بعض المعلقين - ممن ليسوا عرباً ، ولا يتقنون العربية إتقاناً تاماً - قد لا يتقبلون بعضاً من كلمات القرآن ولا يالفونها ، بيد أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن هذه الكلمات عبرانية أو سريانية الأصل .

ومن ثم فإن الافتراض بأن أتباع محمد ﷺ كانوا قد ألفوا العبرانية والسريانية لاعتيادهم التعامل مع اليهود والنصارى هو افتراض بعيد عن الواقع ، والأكثر منطقية أن نقول : إن لغات الأمم المتجاورة ، والتي تتجاور لأجيال كثيرة ، قد تتداخل أو تتربط في كلمات قليلة مشتركة بين كل من اللغتين ، بل ويمكن أن نقول : إن مثل هذه الكلمات تنتمى إلى كلتا اللغتين ، وهو ما يرى بوضوح وسهولة لدى مقارنتنا بين الإنجليزية والفرنسية أو بين الألمانية ولغات الدول الاسكندنافية ، كذلك قد تتكشف الحقيقة بدرجة أكثر في لغات بلدان شرقى أوروبا .

وهنا نستشهد برأى للأستاذين (توماس أرنولد وجيوم) (Sir Thomas Arnold and Guillaume) « بالطبع لا يمكن لأى دارس جاد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Guillaume) وفي المرجع انظر ص ٦٣ .

للعهد القديم أن يستغنى عن معرفته باللغة العربية معرفة مباشرة وجيدة ،
ذلك لأن الكثير من الكلمات العبرية لا يمكن فهمه جيداً إلا بالرجوع
إلى أصولها العربية «^(١) .

فما بالك بهذا الدارس وهو يطلب العلم بالقرآن الكريم .

٦ - بعض الخلط مع المعتقدات اليهودية :

يلاحظ قارئ القرآن عندما يقرؤه بالعربية أن آياته واضحة وسهلة
الفهم وذلك لأن كلماته تعطى المعنى المناسب والمفهوم ، إلا أن بعض
المستشرقين قد حاولوا أن يحرفوا معانى بعض الكلمات تأثراً بثقافتهم
العبرية ، وقد حاولوا ذلك بإصرار فى الكلمات التى وجدوا وقعها قريباً
من ألفاظ عبرية ، مما جعل الآيات التى تحوى مثل هذه الكلمات تتغير
معانيها إلى حد كبير ، بل لقد تبنى هؤلاء المستشرقون أفكاراً غريبة ، فى
محاولاتهم لإثبات فرضياتهم ، ثم دفعوا بأمثلة كالأيات الآتية :

﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع
إيمانهم والله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً ﴾

[الفتح آية : ٤]

ونجد هنا الكلمة العربية (السكينة) التى تعنى السلام والأمان
والطمأنينة القلبية ، ولكن (جفرى) (Jeffery) و (أربرى) (Arberry)^(٢)
يصران على خلطهما مع الكلمة اليهودية « شكينة » (Shekinah)
والتي تعنى فى العبرية وصفاً « للمجد الخفى للرب يهوه جالساً مستريحاً
على عرش الرحمة » ، ولكننا من المحال أن نخلط بين الكلمتين ، وذلك
لسبب رئيسى هام هو أننا لا يمكننا أن نقبل فى الإسلام أبداً ذلك
المفهوم اليهودى عن الله سبحانه وتعالى : أنه (جالس مستريح) ، فى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arnold and Guillaume) وفى المرجع انظر ص ٩

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry)

حين أن سياق الآية غاية في الاستقامة عند اعتبار المعنى العربى للكلمة ،
وللسبب الواضح وهو أن القرآن عربى .

وهذه آية أخرى ، قوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها
إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة
فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾

[الأنعام آية ٥٩]

ولنر هنا كيف خلط (بالمر) (Palmer) بين كلمة (مفاتيح)
وكلمة (مفاتيح) فقال : « إن الإشارة صريحة إلى المعتقد العبرى القائل
بأن هناك ثلاثة مفاتيح بأيدى الله »^(١) ، ونقول : إن مفهوم وجود إله
يحمل ثلاثة مفاتيح فى يده ليس بمفهوم إسلامى على الإطلاق ، كما
أن الآية لا تشير من قريب أو من بعيد إلى أية أعداد أو أيد .

أما عن الآيتين : ﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر ﴾ [المدثر آية ١-٢] ،
فقد علق (وات) (Watt) قائلاً : « لقد تلفع محمد بدثار ليحمى
نفسه - من الله - كعادة الساميين ، ... كما يمكن القول بأن هذا الدثار
كان لا ستنزال الوحي »^(٢) ، ويظهر هنا أن افتراضات المستشرق هذه
مرتكزة على تشبعه بالتقاليد اليهودية مع أن هذه الآية تشير إلى حادثة
وقعت بعد نزول النداء الأول وسجلها التاريخ الإسلامى حيث أحس النبى
ﷺ بانبهار شديد ، وبرودة فى جسده ، فهرع إلى بيته ، وسأل زوجته
وأولاده أن يدثروه بعباءته ، ثم نزلت هذه الآيات .

والإنسان بالمفهوم الإسلامى لا يتجنب عذاب الله تعالى بلبس
العباءة أو اللثام ، وإنما يحمى نفسه بالعمل الصالح والبعد عن الآثام ،
كذلك لا يمكن أن يحمى المصر على ارتكاب المعاصى نفسه من

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) وفى المرجع انظر ص ١٠٩ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) .

العقاب الإلهي إلا بالتوبة النصوح ؛ وأن يدعوته تعالى أن يغفر له ، وأن يهديه الطريق المستقيم في مستقبل حياته .

أما أن « هذا الدثار كان لاستنزال الوحي » فهو مذهب خاطئ خطأ فاضحاً ، لا مرية فيه ، لأن الوحي هو رسالة من الله تعالى ، وهو وحده سبحانه الذي ينزله على عبده ، فلا دخل لرجل أو لعباءة في عملية حث الوحي على النزول .

ثم يأتي بعد ذلك الدور على مثال خطير لدراسة قرآنية تمت تحت تأثير شديد للمعتقدات العبرانية ، ومن خلال المحاولة الأخيرة لتصنيف التفسير القرآني على أنه « تشريعي » (Halakhic) ، أو « نصي » (Masoretic) أو « أسطوري » (Haggadic) .

ولكن ذلك بالقطع يبدو عبثاً فاضحاً لأن تلك الدراسات العبرية بعيدة كل البعد عن القرآن الكريم .

وعلى ذلك ؛ وكما ذكرنا قبلاً ، يصعب على بعض الكتاب أن يؤولوا القرآن حق تأويله ، إما لمعرفتهم المحدودة بالعربية ، والتي أدت إلى إحداث خلط مع اللغات الأخرى ، وإما لأنهم مغممون ثقافياً بالعبرية أو بأية ثقافة شرقية أخرى ، أثرت على تفكيرهم ، وهو ما يبدو مألوفاً بالنسبة لأي دارس للعبرية ، إذ إنه عندما يكتب عن القرآن لا بد وأن يخضعه لنغمة العهد القديم ، حتى ولو كان الأسلوب مجافياً للحق بكل وضوح ، ومن ثم لا ينبغي أن نغفل مدى التشويه الذي يلحق بالأفكار داخل أي نص ، لدى نقله من لغته الأصلية إلى لغة ثانية أو ثالثة أو رابعة ، ولعل ما يحدث هو نفسه الذي حدث للمستشرقين عندما تناولوا الموضوع على أساس دراستهم للقرآن مترجماً ترجمة ثانية أو ثالثة ، وكان الأولى بهم تحري الحق بأن يدرسوا القرآن في أصله العربي فهو متاح للجميع دائماً ، وإننا لنأسف إذ نرى كتابات أمثال هؤلاء المستشرقين شائعة في الغرب ،

فكم تشبع قراؤهم بمنفاهيم خاطئة عن الإسلام ١٩ وكم من الدارسين
لعلوم الأديان المقارنة ارتكزوا على هذه الكتابات واستمروا في النسج
على منوال هؤلاء المستشرقين ، وضلوا وأضلوا الباحثين عن الحقائق
القرآنية ١٩

والخلاصة ؛ لقد استعرضنا بإيجاز في هذا الفصل الأخطاء العديدة
في الترجمة الإنجليزية للقرآن الكريم ، ولسوف نناقش ببعض التفصيل في
الفصل التالي مزيداً من استنتاجات المستشرقين المبنية على هذه الترجمات
وتأويلهم لها .

* * *

الفصل السادس

الأحكام المبنية على أساس التأويلات الخاطئة

زعم أكثر من مستشرق أن أسماء الله تعالى قد جاء بها الإسلام ولكنها ضاعت بعد ذلك ، ويؤكد بعض المعلقين منهم على وجود تغييرات في اسم الدين نفسه ، كما يتصور البعض الآخر وجود شرك ووثنية في الدين الإسلامي ، ذلك التصور الذي يمثل اتهاماً لا يعقل لقاعدة التعليم الإسلامية وهي التوحيد الخالص ، كذلك زعم بعضهم أن القرآن يحوى الكثير من التناقضات .

والآن ، لنناقش كلا من الاتهامات عل حدة .

أسماء الله الحسنى سبحانه وتعالى :

لقد اتهم البعض النبي ﷺ بتقديمه اسماً لله تعالى هو (الرحمن) ، وزعموا أن «هذا ربما يكون قد واجه صعوبة أدت إلى استبعاده بسرعة»^(١) ، ثم أضاف (تريتون) (Tritton) إلى هذا قوله : « إنه يبدو وكأن محمداً قد حاول أن يفرض شعبية لهذا الاسم بين أتباعه ولكنه فشل ، لذلك عمل على محوه »^(٢) ، ولكننا وبمجرد النظر بصورة علمية إلى أية نسخة من المصحف نستطيع أن نعلن أن لا مجال لبحث مثل هذه الاتهامات الخطيرة ، والتي لا أساس لها إلا جهل قائلها .

فنحن نرى أن عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) تقع في بداية كل من المائة والثلاث عشرة سورة في القرآن ، وكما نعلم فإن المؤمنين يرددون اسم الله (الرحمن) الموجود في هذه العبارة لدى شروعهم في

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ص ١١٦ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Tritton) وفي المرجع انظر ص ١٦ - ٢٠ .

قول أو عمل ، كذلك توجد سورة مشهورة فى القرآن هى سورة (الرحمن) وهو ما يعد دليلاً واضحاً على أن الله و(الرحمن) هما اسمان من أسماء الله الحسنى كما نرى من الآية : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ [الإسراء آية ١١٠]

وينفس الخلط يعلن (بل) (Bell) متحدثاً عن الرسول ﷺ فيقول: « إنه استخدم كلمة (رب) ثم استخدم كلمة (إله) ولكنه كان متردداً فى ذلك ، وهذا إما لأنها لم تكن كلمة عربية مناسبة ، أو لأنها كانت مندمجة داخل معتقدات أخرى تدعو إلى إله أقل مرتبة من الإله الذى يدعو إليه »^(١) ، مع العلم بأن كلتا الكلمتين (رب) (Lord) وإله (God) قد عرفت فى العربية قبل الإسلام بزمن طويل ، وقد ذكرت كل منهما فى القرآن مما يؤكد أن كلمة (إله) لا يمكنها أن تحتل محل كلمة (رب) . ولعلنا نعلم أن سورة الفاتحة تستهل بالآيتين :

﴿ الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم ﴾ [الفاتحة آية ٢ - ٣]

وهو ما يقطع بأن التردد الذى زعمه المستشرق بين (رب) و(إله) لا وجود له إلا فى مخيلته ، وذلك لأن كلتا الكلمتين لها استعمالها المناسب لمعناها ، وحيث لا يمكن استبدال إحداهما بالأخرى .

وفى العربية الفصحى سواء تلك التى جاءت فى القرآن أو قبله يشير تعبير (رب العالمين) إلى خالق الأكوان الذى منّ عليها بالوجود وتفضل عليها بالحفظ والصيانة .

ونزيد هنا فنقول : إنه لو نصّب كل كافر لنفسه إلهاً يعبده ويعكف عليه فإن ذلك لا يمكن أن يكون عذراً للمؤمنين ليتأرجحوا بين كلمتى (رب) و(إله) ، اسمين لإلههم سبحانه .

(١) تنظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) .

ولسوف نسوق هنا الآية الآتية دليلاً على أن (الرحمن وإله
والرب) كلها أسماء مناسبة ومستخدمة في القرآن : ﴿ كذلك أرسلناك
في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم
يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾
[الرعد آية ٣٠]

الإسلام والحنيفية :

وكما ناقشنا في الفصل السابق ما قاله بعض النقاد من خلط بين
الكلمة العربية (حنيف) والكلمة السريانية (هامبا) (Hampa) ، فإننا
سنمحص افتراضات المستشرقين عن الحنيفية وعن زعمهم أنها دين
مستقل بذاته . فلقد زعموا أن النبي ﷺ « قد بدأ دعوته محاكياً للنبي
إبراهيم ودينه الذي كان يسمى (الحنيفية) وباستخدام بعض الكتب
التي ظن أنها جديرة بالتصديق ... ولدى اكتشافه أن هذه الكتب هي
كتب محرفة حديثاً أسقط الاسم (حنيف) واستبدل به آخر هو
(مسلم) »^(١) .

ثم أضاف (منيزس)^(٢) (Menezes) و (وات)^(٣) (Watt) أن
اليهود والمسيحيين قد اعتادوا تطبيق الحنيفية في الوسط الوثني أو بين
أتباع الهلينية^(٤) ، والصورة الفلسفية التي كانت عليها الحياة الشرقية .

والواقع أنه بالنظر إلى القرآن يبدو واضحاً أنه لم يكن هناك دين
مستقل بذاته يدعى (الحنيفية) ، وذلك لأن الكلمتين (حنيف)
و(مسلم) قد استخدمتا متلازمتين في المعنى ، في زمن الأنبياء نوح

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفي المرجع انظر ص ٨ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفي المرجع انظر ص ٢٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبي والحاكم) ص ١١٧ .

(٤) الهلينية : التزام ومحاكاة للفكر الإغريقي والعادات والأساليب الإغريقية القديمة .

(المترجم) .

وإبراهيم ومحمد، وسائر الأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام ،
ورضى بها أتباعهم وأصحابهم . والكلمتان عربيتان ، وتعنى الأولى
(حنيف) : الميل إلى الطريق المستقيم والبعد عن طريق الشيطان ،
وتستخدم لتفيد باختصار معنى التمسك الشديد بحبل الله ورفض أى
معتقد آخر^(١) ، لذلك أمكننا القول بأن (إبراهيم) كان (حنيفاً لله)
كما أننا نصرف الثانية وهى (مسلم) على أنها صفة من الفعل (أسلم)
وتعنى (أذعن وخضع) بدرجة لا يمكن تصورها إلا مع الله تعالى ،
كما يتضح فى الآيات الآتية :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً
وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران آية ٦٧]

﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم
مسلمين ﴾ [يونس آية ٨٤]

ولكن بعض المستشرقين قذفوا بكل رعونة بانتقاداتهم وافتراءاتهم
حول الآيات التى تبين أن نوحاً وإبراهيم كانا مسلمين ، وذلك دون أن
يتحققوا مما تعنيه كلمة (مسلم) ، ثم استطردوا فظهر عجزهم عن
الربط بين هذه الآيات وتلك التى تصف كلا من محمد وموسى عليهما
السلام بأنه كان (أول المسلمين) فقالوا : « كيف يكون كل من
إبراهيم ونوح - مسلمين ، ومحمد كان أول المسلمين ؟ ... بل كيف
جاز لنوح ، وهو الذى سبق محمداً بما يزيد على ألفين وخمسمائة سنة ،
أن يكون مسلماً ؟ »^(٢) .

يُبد أن وصف (مسلم) كما أشرنا من قبل ينطبق على نوح وعلى
إبراهيم وعلى سائر الأنبياء مما لا يدع مجالاً للخلط والمغالطة ، ليتسربا

(١) انظر تفسير القرطبي الجزء الثالث ص ١٠٠٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Guillaume) وفى المرجع انظر ص ٦٤ .

إلى عقولنا ، حيث إن ذلك لا يعارض الحقيقة القائلة بأن كلا من محمد وإبراهيم وموسى كان أول من أذعن وأسلم وجهه لأمر الله ، في فترته الزمنية الخاصة به . ونستعرض هنا الآيات التي تثبت هذه النقطة :

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام آية ١٦٢ - ١٦٣]

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المسلمين ﴾ [الأعراف آية ١٤٣]

وكذلك يمكننا وصف كل الأنبياء الذين جاء ذكرهم في الكتاب المقدس بأنهم مسلمون ، وذلك لأنهم أذعنوا لله وخضعوا له :

﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾

[المائدة آية ٤٤]

الوساطة المزعومة في الإسلام :

إن مفهوم الوساطة غير مقبول في الإسلام على الإطلاق ، ولكن (تريتون) (Tritton)^(١) تصور وجودها فكتب : « توجد إشارات في ستة مواضع بالقرآن إلى وجود وساطة بين الله والإنسان ... » ، وذكر الآيات :

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء آية ٨٥]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Tritton) .

﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء
من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ [غافر آية ١٥]

﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها
وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾
[فصلت آية ١٥]

﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان
مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ [السجدة آية ٥]

﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في
أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [آل عمران آية ١٤٧]

﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو
إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه
أجراً عظيماً ﴾ [النساء آية ١١٤]

ثم مضى في خلطه المؤسف بين العربية والعبرية ، ولما لم يعلم
المعنى الصحيح للكلمة العربية قال : « إن (أمر) لها نفس الجذر
اللغوي في العبرية وهو لكلمة (ممر) (memra) والتي تشير إلى
الواسطة الشخصية التي تعبر الفجوة بين الإله المتعالى سبحانه وبين عالم
التغير والنمو والحياة » .

ولنبداً نحن بالنظر في الكلمة العربية (أمر) والتي لم تذكر في
القرآن ست مرات فقط ، وإنما مائة وستا وخمسين مرة ، وذكرت بصور
حرفية أخرى خمس عشر مرة ، وقد كان من الممكن للمستشرق
(تريتون) أن يتحاشى الخلط بين الكلمة العربية (أمر) والكلمة العبرية
(ممر) لو أنه أدرك المعنى الصحيح للكلمة العربية ، ولكنه كتب أن (ممر)
والتي تعبر عن الواسطة الشخصية هي نفسها (أمر) والتي هي في
الحقيقة تعنى وصية أو تكليف . ثم إن القراءة المتأنية الواعية والمستنيرة

لآيات القرآن التي تحوى كلمة (أمر) واشتقاقاتها تنفى وجود أية وساطة
مهما كانت بين الله سبحانه وبين خلقه . ولنرجع إلى الآيات التي قام
(تريتون) بالاستشهاد بها ، قوله تعالى :

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من
العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء آية ٨٥]

﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو
إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه
أجراً عظيماً ﴾ [النساء آية ١١٤]

﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في
أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [آل عمران آية ١٤٧].
ونرى فيها أن ذكر الكلمة العربية (أمر) بشتى صورها في القرآن
الكريم لا علاقة له بحديث عن وساطة أو غيرها .

اتهام الإسلام بالدعوة إلى التعددية :

عمد (ريكولدو) (Ricoldo) في القرون الوسطى إلى الافتراض :
« بأن القرآن يتحدث عن الله بصيغة الجمع ، لذلك فالله ليس واحداً
وإنما أكثر »^(١) ، والحقيقة هي العكس ، وذلك أنه عندما يتحدث الله
تعالى عن نفسه في القرآن الكريم (إنا) فإنه لا يزال واحداً حيث نرى
أنه حتى الملك من البشر يمكنه أن يسبق اسمه بلفظة (نحن) وذلك
في تصريح له أو إعلان أو قانون أو شيء من هذا القبيل .

ثم جاء (رودويل) (Rodwell) بزعم آخر غير ملائم على
الإطلاق جزم فيه أن الرسول ﷺ قد عبده بعض المسلمين مع الله تعالى ،
فقال : « سمعنا في المدينة عن إنعام الله وإنعام الرسول ... والصفات التي
لا بد وأن يوصف بها الله في مكان وجدناها قد وصف بها الرسول نفسه

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) ص ١٨٣ .

فى مكان آخر من القرآن « (١) ، غير أن ما حدث فى الواقع وباعتراف الجميع أن كلمة (نبي) أو (رسول) قد ذكرت فى القرآن مقترنة بلفظ الجلالة (الله) وفى نفس الآية ، ولكن من يفهم اللغة العربية لا يرى أثراً لوجود شرك هنا ، وهذه بعض الآيات التى توضح هذه النقطة :

﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتهم فإنما على رسولنا
البلاغ المبين ﴾ [التغابن آية ٢١٢]

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون
لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾
[الأحزاب آية ٣٦]

ولعل (رودويل) قد أيد اعتقاده الخاطىء والجائر فى نفس الوقت عن التعددية بأن جاء ببعض الآيات كهذه الآتية :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص
عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة آية ١٢٨]

فقال : « الرسول هنا يوصف بأنه واحد منا (بشر مثلنا) ويوصف أيضاً بأنه (رؤوف رحيم) وهما صفتان يوصف بهما الله فى آيات أخرى مثل : ﴿ ... وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [البقرة آية ١٤٣]

ولكن ؛ لا داعى لأن نؤكد مرة أخرى أنه عندما نصف الله تعالى - بوصف معين فإن هذا يعنى أن الوصف قد اتخذ بعداً لا نهائياً ، على العكس تماماً من وصف البشر به ، حيث يأخذ بعداً محدوداً ، حتى لو كان هذا البشر نبياً مرسلًا ، ذلك أن القرآن يرسم الاختلاف اللانهائى بين الله تعالى وبين الإنسان بوضوح شديد ، فيقولها صراحة : إن الرسل هم بشر وعباد لله يتسلمون رسالاته إليهم ليوصلوها إلى أممهم ، ووضع

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٨ .

النبي محمد ﷺ نراه ولا شك بوضوح ، عبداً من عباد الله الذين يعبدون الله تعالى فحسب :

﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ [الحديد آية ١٩]

ففى هذه الآية وآيات أخرى كثيرة يتحدد وضع محمد ﷺ بالنسبة إلى الله تعالى ، ولا يوجد مسلم يعانى إطلاقاً فى هذه النقطة أية شائبة من الضلال الذى عاناه المستشرق (رودويل) . ولعلنا نذكر هنا - إعلاناً للحقيقة - أن عدداً من المستشرقين والمؤرخين قد أبدوا إعجابهم بالمفهوم النقى للتوحيد الخالص والصفى فى الإسلام^(١) إلا أن أحد الكتاب المعاصرين تصور للأسف أن محمداً ﷺ قد أقر بالوحدانية فى المرحلة الأخيرة من بعثته عندما سمحت الظروف ، وذلك لتكون شعاراً يميز بين أتباعه وأعدائه^(٢) ، ولكننا نطرح هنا سؤالاً ؛ ألم يخطر ببال هذا الكاتب أثناء دراسته الإسلامية أن يقرأ القرآن ويرى كيف بدت الوحدانية فى كل صفحاته ساطعة معلنة منذ الآيات الأولى من الوحي ؟

تناقضات مزعومة :

تظهر من بين الاستنتاجات الخاطئة التى أتى بها المستشرقون مجموعة من الاتهامات التى ترى أن القرآن يحوى تناقضاً فى مواضع كثيرة منه ، وجاء بذلك (ريكولدو) (Ricoldo) و (سان بدرو) (San Pedro) فى القرون الوسطى ، ثم جاء به مؤخراً (ليفى) (Levy) و (جاردر) (Gardner) و (تريتون) (Tritton) وآخرون من المتأخرين .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) وكذلك تحت (Parrinder)

فى ص ٢٢ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) ص ١١٨ .

المزاعم القروسطية^(١) :

لقد زعم أن : « القرآن قد حرم وحلل نوعاً من الكهانة والتنبؤ بالغيب ، وأنه يقول : إن الخير من عند الله وإن الشر من الإنسان ، ولكنه يعود فيقول : إن كلاً من الخير والشر هو من عند الله ، ويقول القرآن : إن من كان غنياً في الدنيا فسيفقد الغنى في الآخرة ، مع العلم بأنه أيضاً يذكر أن إبراهيم كان غنياً في الدنيا ، وأنه يعد من الأخيار^(٢) .

ويمكننا توضيح هذا الخلط بسهولة وذلك بالاستشهاد بالآيات الكريمة .

١ - بالنسبة لمسألة التنبؤ والكهانة وهو الخلط الأول فيما سبق من زعم فإن ما سببه هو الكلمتان العربيتان (التطير) و (الطيور) واللذان تبدوان بنفس الجرس ، ولهما جذر مشترك ، ونراهما في الآيتين :

﴿ قالوا اطينا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾
[النمل آية ٤٧]

﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾
[الإسراء آية ١٣]

ولا نرى في أى منهما ما يفيد معنى التكهن والعرافة والحث عليهما ، ولكن الإسلام يدين الرجم بالغيب عن طريق زجر الطير أو بأية طريقة أخرى ويحرمه وهو ما سبق أن أجازاه دين الرومان ، وذلك أن الإسلام يقرر أن الغيب بيد الله ، وأنه وحده الذى يعلم المستقبل ، بل ويطوع الأحداث وفق قواعد وسنن وضعها سبحانه وتعالى ، وهو ما ندركه من الآيتين السابقتين من أن ﴿ طائركم عند الله ﴾ .

ولسوف نتناول موضوعات أخرى أكثر تعقيداً كالقضاء والقدر

(١) نسبة إلى (القرون الوسطى) وهو نحت طريف . (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) ص ٦٧ .

والإرادة من بين ما ستم مناقشته تفصيلاً في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

٢ - لقد قرر بعض المستشرقين أن الخير يأتي من عند الله وأن الشر يأتي من عند الإنسان !! فكيف هذا مع أن الله تعالى هو الذي خلقهما معا - وعموماً بدراسة الآيتين التاليتين يمكننا توضيح هذه العبارة التي قد يرى قليلو العلم فيها تناقضاً :

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً * ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً ﴾ [النساء آية ٧٨-٧٩]

يتبين من هاتين الآيتين وآيات أخرى كثيرة أن الله هو المهيمن على كل من الخير والشر ، وأن الإنسان يتلقى الحسنة نعمة من الله تعالى ومكافأة له على العمل الصالح ، وتنزل به السيئة للتذكير وللاعتبار ، وعقاباً على بعض أفعاله السيئة ، أو إبتلاء لإيمانه .

٣ - وإجابة على النقد الذي يرى أن « أولئك الذين كانوا في الدنيا سيفقدون ما كان لديهم في الآخرة ، هذا على الرغم من أن إبراهيم كان غنياً ثم هو في الآخرة من الأخيار »^(١) ، نورد هنا بعض الآيات ، فعن الغنى والأغنياء :

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً ﴾ [الكهف آية ٤٦]

وعن إبراهيم عليه السلام : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) ص ٦٧ .

ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط
مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين ﴿

[النحل آية ١٢٠ - ١٢٢]

ومنها يتضح أن القرآن الكريم لا يقول « بأن الأغنياء سيفقدون
غناهم فى الآخرة » ، وإنما كما تظهر الآيات المذكورة وآيات أخرى
كثيرة أن السراء والضراء هما ابتلاءان لنا فى هذا العالم وأن كل من
كان شاكراً لربه على نعمه كإبراهيم سيجازى خير الجزاء فى الآخرة .

المزاعم المعاصرة :

من المزاعم التى تشير إلى تناقضات فى القرآن وجدنا أن (تريتون)
(Tritton) يشير إلى آلهة مزعومة ، وأن (جاردنر) (Gardner) قد
أثار نقطة تتعلق بالقبلة ، ثم جاء (ليفى) (Levy) بزعم عن خلق
الإنسان ، وكذلك أتى (وانزبروخ) (Wansbrough) بأخر ضمّنه
حديثاً عن الآخرة .

فعن الآلهة المزعومة عبّر (تريتون) عن حيرته حين قال : « بالتناول
الأدبى للقرآن نجد أن ما يذكره عن الآلهة المزعومة يعد من المتضارب ،
حيث إنه يلح على أنها ليست بشيء ، فى حين يصر على أنها ستحشر
يوم الحساب لتدين أولئك الذين انحرفوا بسببها »^(١) . ولكننا نسأل هنا
لماذا يصر (تريتون) على أن يتهم القرآن بالتضارب عندما يقرر بأسلوب
أدبى أن الآلهة المزعومة هى (لا شيء) ؟ إن الآيات الآتية تتعلق
بالموضوع :

﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا
يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾

[الفرقان آية ٣]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Tritton) وفى المرجع انظر ص ١٦ - ٢٠ .

﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون *
لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ﴾ [الأنبياء آية ٩٨ - ٩٩]

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل
أفرايتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات
ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه
يتوكل المتوكلون ﴾ [الزمر آية ٢٣٨]

﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا
هم منا يصحبون ﴾ [الأنبياء آية ٤٣]

ونجد لدى قراءتنا هذه الآيات فقط - على الرغم من وجود الكثير
غيرها فى القرآن - أنه يشجب وجود آلهة مزعومة على طول الخط ، وأنه
يكرر عدم أهميتها وجدواها ونفعها لأولئك الوثنيين العاكفين على
عبادتها وتقديسها ، بل إن هذه الأوثان ستكون حجة دامغة ضدهم يوم
القيامة ثم تؤخذ إلى السعير زيادة فى النكال بها .

ثم لنر موضوع القبلة الذى تناوله (جاردنر) على أن القرآن قد
أضفى على هذا الموضوع هالة من التعقيد ، فقال عن الرسول عليه
الصلاة والسلام : « لقد أمر أن يتوجه فى صلاته إلى القدس - هذا فى
موضع من القرآن - ثم أمر فى موضع آخر بأن يتوجه إلى مكة ، على
حين أنه قد تلقى تعليماً ثالثاً فى موضع جديد بأنه لا قيمة للإتجاه الذى
ينشده فى صلاته »^(١) ، ثم كرر (ليفى) هذا الاتهام بعد أربعين سنة
من (جاردنر)^(٢)

للرد عليهما أولاً سنقول : إنه لا توجد آية واحدة فى القرآن تأمر أو
تقترح على المؤمنين أن يقصدوا القدس فى صلاتهم ، ذلك أن المسلمين
قد أمروا بالتوجه إلى المسجد الأقصى فى بداية فترة المدينة ، واستمروا

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gardner) وفى المرجع انظر الجزء ٢ ص ٢٧٩

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ١٦٣ .

على ذلك ستة عشر شهراً ثم أمروا بالتحول إلى المسجد الحرام ، وهو القبلة التي كانوا يصلون إليها في مكة ، وذلك عندما نزل قوله تعالى :

﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ [البقرة آية ١٤٤]

نرى إذن أنه لا يوجد أى تناقض فى تحديد قبلة المسلمين ، وذلك أن القبلة هى الكعبة بينت الله الحرام .

ولعل (جاردنر) قد اختلط عليه الأمر بسبب الآية الآتية التى هى فى الواقع تشرح نفسها :

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [البقرة آية ١٧٧]

ويدور لنا منها أنها لا تقول أى شىء عن « عدم الأهمية للاتجاه الذى يقصده المسلم فى صلاته » كما استنتج (جاردنر) خطأ .

ثم نأتى إلى موضوع خلق الإنسان كمادة لتناقض زعم وجوده فى القرآن الكريم ، حيث قرر (ليفى) (Levy) أن « الرسول يعلن من خلال الوحي أن كل الأشياء الحية قد خلقت من ماء بينما الإنسان قد خلق من صلصال كما جاء فى موضع آخر »^(١) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ٤٦٩ .

﴿ وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسبا وصهراً وكان ربك قديراً ﴾ [النور آية ٥٤]

﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ [العلق آية ٢]

﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ [الرحمن آية ١٤]

﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ [غافر آية ٦٧]

وهنا يعلن القرآن أن الإنسان قد خلق من صلصال كالفخار أو من التراب مشيراً هنا إلى خلق آدم عليه السلام أبى الإنسانية ، ويعلن كذلك أن الإنسان قد خلق من (نطفة) مشيراً إلى ماء أبيه ، ومن (علقة) مشيراً إلى المرحلة المبكرة للجنين فى رحم أمه .

ومن ثم لا يظهر هنا أى تناقض ، بل على العكس ، إن هذه الآيات تعد دليلاً ساطعاً على ألوهية وحى القرآن الكريم ، وإلا كيف تمكن رجل أمى فى جوف الصحراء منذ أربعة عشر قرناً أن يكتب ، أو حتى يفكر ، فى مثل هذه الحقائق العلمية ، والتي لم تثبت إلا منذ بضعة أعوام ، والتي ترى أن تسعين بالمائة من الجسم الإنسانى يتركب من الماء ؟

ثم يلحق حديث الآخرة بركب التناقضات المزعومة !! فعلى حين يعتقد المسلم أن يوم القيامة ليس بالحدث اليسير ، وأنه لا يمكن لأى مخلوق أن يوفيه حقه فى وصف ما سيحدث فيه أو فى تصوره ، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم يصنف الكثير من مشاهد الحياة بعد الموت ، آخذاً بالبابنا إلى أقصى حد ، لتصوير المقاييس المتناهية للزمن والمسافة المتعلقة بتلك الحياة - على الرغم من كل ذلك فإن هناك تعليقين جاءا على لسان مستشرقين نذكرهما ونناقشهما . فقد جاء (رودينسون)

(Rodinson) مستشهداً بتعاليم السيد المسيح^(١) فقال : « لأن يمر الجمل في ثقب إبرة أهون من أن يدلف مترف إلى ملكوت السموات » ، ثم أضاف أنه قد وجد في بعض مواضع القرآن المكي ما يشير إلى « عداء مستحکم للثروة » وتهديد ووعيد للأثرياء بعقاب الله^(٢) ، ولكن الحق هو أن القرآن لا يدين الأغنياء من حيث إنهم أغنياء في هذا العالم ، ولكنه يتهم أولئك الذين عشقوا الثروة ونسوا المحتاجين ، ولا شك أن هذا هو شعور المستشرق (رودينسون) عندما أشار إلى ما نادى به المسيح ، حيث إن الأغنياء المتوعددين هم الذين يرفضون التسليم بحقيقة الثروة باعتبارها نعمة من الله ، ولا يكلفون أنفسهم شكره عليها ، بل يحرمون السائلين ويزدرونهم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ [البقرة آية ٢٥٤]

أما الآية القرآنية التي تشير إلى (سم الخياط) فهي لا تدين الأغنياء وإنما تدين المتكبرين المكذبين بآيات الله :

﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين ﴾ [الأعراف آية ٤٠]

وعلى ذلك فالذي يعنينا هو كيف يستغل الإنسان المال الذي لديه؟ إن عبده وكذسه واختزنه ويات يحرم الفقراء والمساكين فإنه يكون بذلك قد اقترف ذنباً فاحشاً يستحق به عذاب الله تعالى ، على حين أنه لو تعامل مع الثروة والممتلكات الدنيوية على أنهما ليسا بأكثر من زينة للحياة الدنيا وأن أفضل ما يتبقى له هو عمله الصالح ، فسوف يثاب بكرم

(١) جاء في إنجيل متى الإصحاح التاسع عشر ، فقرة ٢٣ - ٢٤ : (فقال يسوع لتلاميذه الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات ، وأقول لكم أيضاً أن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله) . (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (الإسلام والرأسمالية) ص ٢٤

الله ويدخل الجنة على تسخيرهِ لثروته لفعل الصالحات . لذا فالتناقض الذى رآه (رودينسون) ليس إلا فى مخيلته ولقلة إمامه باللغة والعلم المناسب .

وفى الآخرة ، يقف بعض الأثمين مواقف الحرمان من الكلام وقد منح الجميع فرصة للدفاع وللجدل ، وأحياناً يقفون مع شركائهم الذين شاركوهم ليذكروهم بما اقترفوه فى الدنيا ، ويلقى كل فريق تبعة إثمهِ على الآخر .

وعلى الرغم من أن مشاهد الآخرة قد أذهلت المستشرقين أمثال (ونزبروخ) (Wansbrough) إلا أنه بدلاً من محاولة الفهم انطلق فى اتهاماته وافتراضاته لوجود متناقضات ، وما لبث أن أورد هاتين الآيتين بعد أن اقتلعهما من مكانهما وقطع كل صلة بينهما وبين الآيات السابقة عليهما أو اللاحقة بهما :

﴿ وقال الدين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ [سبأ آية ٣١]

﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾

[المرسلات آية ٣٥ - ٣٦]

فكما ذكرنا آنفاً ، ستشكل القيامة هزة رهيبية فى الأحداث الكونية ، وسيكون هناك جماعات لا حصر لها من الأنفس ، تواجه كل نفس ، ذكراً كانت أم أنثى ، إما بالثواب أو بالعقاب ، عن كل ما صدر منها فى الحياة الدنيا .

ونسأل هنا سؤالاً ؛ ألم يكن مناسباً لـ (ونزبروخ) ولمن معه أن يتناولوا تلك الصورة باحترام ، وأن يتأملوا فيها وفى مختلف نواحيها فى

ضوء ضخامتها وبعدها الغيبى الميتافيزيقى ؟ إنهم للأسف زعموا على الرغم من إدراكهم القاصر المقترن بالخلط وعدم تناول الصحيح للأمور - زعموا لأنفسهم السلطة المطلقة لإصدار الأحكام ، وبكل جرأة أعلنوا أن القرآن الكريم يحوى تناقضاً !!

* * *

الفصل السابع

النسخ والمنسوخ في القرآن

بدا موضوع النسخ ذا أهمية كبيرة ، إذ وجده كل المستشرقين على اختلاف مشاربهم ، وكذلك الكتاب المسلمون - مادة مهمة ومثيرة ، وذلك بالطبع مع اختلاف وجهات النظر لدى كل من الفريقين ، حيث نجد أن الاختلاف بينهما ربما ينبع أساساً من الفرق بين الكلمة الإنجليزية (abrogation) والتي تعنى (الإلغاء) أو المحو ، وبين المعنى القرآني العربي وهو (النسخ) ، فعلى حين تشير الكلمة الإنجليزية إلى مفهوم الإزالة والحذف والمحو ، لم تتطرق الكلمة العربية الأصلية للدلالة على شيء من هذا ، وهو ما سوف نتناوله الآن .

فالشيء المثير للاهتمام حقاً فيما يتعلق بموضوع النسخ هو ما قد علمناه من أنه بدأ الاهتمام به بعد زمن طويل من وفاة الرسول ﷺ ، مما يطرح في ذاته موضوعاً للسؤال وللبحث ، فإما أنه لم يكن له وجود في بداية العهد الإسلامي ، وأنه كان مما ابتدعته الأجيال وأتت به بعد ذلك بزمن ، وإما أنه لم يكن ملحوظاً كحدث يحدث ، عندما كان الرسول ﷺ ينسخ قانوناً أو تشريعاً ويأتي بآخر ، وهو ما يعد بعيداً جداً عن ترجيحنا ، وذلك لأننا ينبغي أن نأخذ في الاعتبار مدى الأهمية القصوى لكل وحى منزل في حياة المجتمع الإسلامي الناشئ .

والنسخ بمعنى التنقيح أو حتى بمعنى إلغاء تعليم أو سلوك كما جاء في آية قرآنية يمكن تصنيفه إلى ثلاثة أقسام : فهو إما أن يكون بمعنى إحلال آية قرآنية مكان أخرى ، أو بأن يستبدل بتعليم غير قرآني تعليماً آخر قرآنياً ، أو العكس ، لقد فاز القسم الأول بنصيب الأسد من اهتمام المستشرقين - أما القسم الثالث فقد جاءت به عن غير دراية قلة

من المستشرقين ، وهو ما سنشير إليه بعد ذلك ، حيث اعتمدوا بالفعل على وجود كلمة (نسخ) فى آية قرآنية .

كيف تم طرح الموضوع فى القرآن :

إن كلمة (نسخ) بمعنى تعديل الآيات - لم ترد إلا فى موضع واحد فى القرآن ، هو قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾^(١) ، وجاءت فى القرآن كلمة أخرى بمعناها فى سورة الرعد ، وسوف نناقش ذلك ، ولكن الموقف يدعونا إلى أن نضع آية البقرة فى سياقها ، وسياقها حتى يتضح المراد بها .

فى سورة (البقرة) نجد تناولاً مسهباً لعصيان اليهود لتعاليم الله سبحانه وتعالى ، واستخفافهم بموسى عليه السلام وتآمرهم وعدائهم لملائكة كثيرين^(٢) ، ورفضهم لرسالة الله إليهم إذ يقولون عن القرآن الكريم : كيف يرسل الله رسالة جديدة ، وعلى رجل من غيرهم ، بعد أن أرسل إليهم فعلاً واحدة من قبل ؟ إنها لو كانت - والكلام على لسان اليهود - رسالة مشابهة لما لديهم فهى إذن شىء زائد على الحاجة ، وإن كانت مختلفة عنه فهى شىء غير منطقى لا يرضون به ، ولا شك فى أن هذا ما جعل بنى إسرائيل مذكورين فى السورة فى الآيات (١٠٥ - ١٠٧) على أنهم أهل الكتاب ، وهامى الآيات :

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم

(١) الآية القرآنية هى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾ (البقرة آية ١٠٦) (المترجم) .

(٢) يقصد هنا قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين * من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ (البقرة آية ٩٧ - ٩٨) (المترجم) .

تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿ [البقرة آية ١٠٥ - ١٠٧]

وفى الآية الأولى منها تأتي الإجابة على إنكار أهل الكتاب للرسالة، فتقول بأن الله يصطفى من يشاء ليلقى إليه بالوحي ، وفى الآية الثانية يذكر أنه لو حدث ونسخت شريعة جاءت فى العهد القديم فإن محمداً ﷺ يلقي إليه بشريعة أفضل منها وأحسن^(١) ، ثم يلفت الانتباه فى الآية الثالثة إلى ملكوت الله تعالى وهيمنته على السموات والأرض وسائر الكون وسننه التى تحكم الطبيعة ، وأنه سبحانه الفعال لما يريد وهو العليم الحكيم ، ولعلنا الآن نسأل : ألم تثبت الطبيعة لنا أن الأشياء الأقدم تخلى السبيل لما هو أحدث ، والأدنى للأفضل ، وهكذا ؟ إن ما نراه هنا طبيعى جداً وهو أن يستبدل بالشريعة الموسوية^(٢) التى جاءت لأناس معينين فى وقت معين لتلائم احتياجاتهم الخاصة فقط - شريعة جديدة أخرى تتصف بالشمول وبالعالمية - نسبة إلى العالم - وهو الذى جاء به الإسلام، سيما وأن الشريعة القديمة قد طمست وتنوسيت تعاليمها مما أذن بنسخ ما تبقى منها بالأصلح الذى يشابهها فى نواح معينة .

ثم يأتى دور الآية الأخرى التى تحوى مفهوم النسخ والبطلان ، فهى تشتمل على كلمة (يمحو) وتتضمن رداً على طلب الكافرين من محمد ﷺ أن يأتى بمعجزة تؤيد رسالته :

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتى بأية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ [الرعد آية ٣٨ - ٣٩]

وعملية الإحلال الجزئى للدين الجديد محل ما سبقه من قديم

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) فى المرجع انظر ص ٤٧ .

(٢) نسبة إلى موسى عليه السلام (المترجم) .

لا ينبغي أن نعجب لها بأى حال من الأحوال ؛ ألم يشر اللاهوتيون المسيحيون إلى أن الله قد أنزل الأناجيل أحياناً مصدقة وأحياناً ناسخة لما أتت به التوراه ؟ ولقد تأكد هذا بالآية القرآنية :

﴿ ومصدقاً لما بين يديّ من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾ [آل عمران آية ٥٠]

إذن فقد قوّض ببيان الأولى لِيُشَيِّدَ ببيان الثانية .

ويمكننا الآن تطبيق نفس القاعدة بين القرآن من جهة والإنجيل والتوراة من جهة أخرى ، على الرغم من أن بعض الدارسين المسلمين المتأخرين قد بسطوا مجال النسخ ليشمل بعضاً من آيات القرآن وعلاقتها بآيات أخرى فيه ، وهو ما حدا للأسف ببعض المستشرقين إلى إشباع رغباتهم في الافتراء^(١) .

بعض تعليقات المستشرقين :

يشمل المنظور الإسلامى لله تعالى وأسمائه الحسنى قوته تعالى المطلقة القادرة على تغيير أى شىء يريد في الوقت الذى يشاء^(٢) ، وهو ولا شك يعتبر على النقيض تماماً مما أتت به مجموعة من المستشرقين من تصورات ترى أن « الله يغيّر رأيه »^(٣) (God changing his mind) ومن ثم فهو « متقلب » وأن « ما يأتى به اليوم يلغيه غدا »^(٤) ، ثم وصفوا كثيراً من المقاطع القرآنية « بالتناقض »^(٥) حتى تساءلوا « كيف يدعن الإنسان لتلك النظرية القائلة بأن أى تناقض فى القرآن هو حق متى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Hughes) وفى المرجع انظر ص ٣٩ .

(٢) كتاب الإتيقان فى علوم القرآن للحافظ جلال الدين السيوطى - الجزء الأول .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) وفى المرجع انظر ص ٥٣ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bethman) وفى المرجع انظر ص ٤٧ .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) فى ص ١٦٠ ، وكذلك تحت

(Margoliouth) ، وكذلك تحت (Baljon)

تم وحيه ١٢» ، وقالوا : « إن كل شيء أبدي لا يد وأن يكون ثابتاً لا يتغير أو يتحول أو ينسخ » ، وساقوا دليلاً اقتلعوه من الآيات التي تم عرضها قبلاً ، والتي تشير إلى النسخ للبرهنة على مزاعمهم متغاضين عن الحقيقة التي تمت مناقشتها بالفعل ، وهي أن النسخ المشار إليه هو علاقة بين القرآن والرسالات السابقة .

ولا ريب أن أولئك المستشرقين وقد تصوروا النسخ بمعنى أن تلغى آية قرآنية جديدة آية قديمة تختلف معها وتناقضها - قد تورطوا في اتهام أبسط ما يوصف به هو أنه قذف وعيب في الذات الإلهية ، وهو ما يظهر جلياً من قولهم : « إن الله يغير رأيه »^(١) . وعلى ذلك فإننا نعلن أن ذلك غير صحيح بالمرّة .

فإن ما بدا لبعض المستشرقين أنه تغير في المشيئة الإلهية لا يراه المسلمون إلا جزءاً من خطة إلهية أزلية . وهذا المفهوم الإسلامي للنسخ لا ينطبق فقط على الآيات القرآنية أو على القواعد الإسلامية وقوانينها إزاء تلك التي جاءت في الكتب السابقة ، ولكنه ناموس ينطبق على الكون بأسره .

ولن نجد وسيلة لتوضيح هذه النقطة إلا بذكر حادثة اتفق على صحتها كل من اليهود والنصارى والمسلمين ، فقد سجلت في الكتاب المقدس في سفر التكوين - الإصحاح الثاني والعشرين ، وكذلك في سورة (الصافات) بالقرآن الكريم^(٢) ، وتروى هذه الحادثة أن إبراهيم

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) وفي المرجع انظر ص ٥٣ ، وكذلك تحت (Bethman) ، وكذلك تحت (Menezes) في ص ١٦٠ .

(٢) جاء في سورة (الصافات) : « فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعى قال يا بني إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناها أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين * إن هذا لهو البلاء المين * وفديناه بدبح عظيم * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم » (الصافات آية ١٠١ - ١٠٩) * (المترجم) .

عليه السلام قد أوحى إليه أن يذبح ابنه وهو ولا شك أمر رباني ينبغي عليه طاعته ، كذلك لم يكن يتوقع مطلقاً أن يقوم الله سبحانه بنسخه ، فالذى حدث هو أن إبراهيم وابنه قد ذهبا بإذعان تام لإرادة الله إلى المكان المحدد، وقد شحذا السكين معهما ضاربين بذلك أروع مثال على الإيمان الحقيقي والطاعة المطلقة لله، يتردد صدهاء في أرجاء الدنيا إلى يومنا هذا .

فأمر الله الأول لإبراهيم لم يكن سوى أمر مؤقت ، كما أن تضحية إبراهيم بابنه عليهما السلام لم تكن إرادة ماضية لله ، وإنما كانت تمثل اختباراً وامتحاناً لطاعتهم لربهما ، ومن ثمّ جاء النسخ للأمر الإلهي الأول في الوقت المناسب ، وكذلك جاء الفداء بالكبش لإسعاد الأب الحزين وراحته .

وعلى ذلك لو اعتبر الغربيون هذه الحادثة المهمة مثلاً يضربونه على أن الله سبحانه يغير رأيه ، فإننا نرى أن المسلمين لم يخطر لهم قط أن يعتبروها كذلك ، وإنما هي مرحلة من مراحل القدر الإلهي الأزلي .

هذا وسنتناول هذه النقطة في الجزء الثاني من عملنا هذا من خلال موضوع القضاء والقدر وحرية الإرادة الإنسانية ، وهو الموضوع الذى يمس هذه النقطة .

والآن ، لننظر إلى بعض حالات النسخ الذى ادعى بعضهم وجوده فى القرآن ، ومن الأفضل أن نطلق عليه التنقيح أو التأكيد^(١) ، ولندرس الأمثلة الآتية :

النسخ المقول به فى القرآن :

لقد عدّد الدارسون المسلمون^(٢) قرابة عشرين حالة من حالات النسخ بمعنى التنقيح والتأكيد ، وجاءت كلها ضمن الوحي المدنى ،

(١) كتاب الإتقان فى علوم القرآن للحافظ السيوطى ج ٢ ص ٢٠ - ٢٣ .

(٢) انظر المرجع السابق .

ومختلفة في موضوعاتها ودرجة نسخها ، وسوف نعرض فيما يلي لدراسة كل ما يتصل بثلاثة موضوعات كانت مما انتقده المستشرقون ، وهي تحريم الخمر، وحقوق الأرمال ، وإلغاء عبادة الأوثان ، كذلك سنتحرى في كل حالة عن وجود تناقض بين الآية الناسخة وتلك المنسوخة ، ثم ندرس بعد ذلك حالة رابعة تناقض تصوراً لأحد المستشرقين رأى أن تعاليم الرسول ﷺ قد جاءت ناسخة لآيات قرآنية .

١ - الخمر :

لقد انتقد (ليفي)^(١) (Levy) تحريم الخمر فقال : « إن الخمر ليست فقط ذلك المشروب الذي كان يستخرج من ذلك الغذاء الصحي من نخيل البلح ، وإنما هي أيضاً من المباحج الحسية الموجودة في الجنة نفسها حيث تتدفق فيها أنهار الخمر ، تماماً كما تتدفق أنهار الماء واللبن والعسل » .

والحقيقة أن الخمر باعتبارها مسكراً ذكرت في القرآن في ثلاث صور ، أولها يتعلق بتحريمها في الدنيا ، وجاء ذلك في سورة البقرة آية (٢١٩) وفي سورة النساء آية (٤٣) وفي سورة المائدة الآيتين (٩٠-٩١) ، وثاني هذه الصور تتعلق باعتباره لها من ضمن المباحج التي سيلقاها المؤمنون الصالحون من نعيم الجنة ، وذلك في سورة محمد آية (١٥) ، ثم جاء ذكرها مرة أخرى في ذكر قصة يوسف عليه السلام وصاحبيه في السجن في سورة يوسف (٣٦-٤١) ، ولكن ينبغي ألا نغفل أن خمر الجنة ليست على الإطلاق هي الخمر الموجودة في الدنيا ، كما أن تحريم المسكرات لم يسن قانوناً إلا بعد سنوات من الهجرة . عندما بدأ المسلمون في تكوين دولتهم المستقلة في المدينة ، وجاء هذا التحريم بصورة تدريجية ، وعلى مراحل ، أولها :

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفي المرجع انظر ص ١٦٣ .

إقضاء الخمر واستبعادها من قائمة الطعام الطيب (الآية ٦٧ من سورة النحل)^(١) ، ثم أعلن بعد ذلك أن الإثم فيها أكبر من النفع (سورة البقرة الآية ٢١٩) ، ثم جاءت المرحلة الثانية بتحديد الأوقات التي يسمح فيها بشرب الخمر ، ذلك أن المؤمنين قد أمروا أن يقلعوا عن شربها عند الاستعداد للصلاة ، ليعلموا ما يقولون فيها (سورة النساء آية ٤٣) ثم تجيء بعد ذلك المرحلة النهائية التي فيها تم التحريم المطلق بدون قيد أو شرط (سورة المائدة ٩٠-٩١) .

وقد يعتبر بعض الكتاب المسلمين أن الآية الأخيرة قامت بنسخ الآيتين السابقتين عليها ، ولكننا يجب أن ننظر إليها على أنها مكملة لهما وليست متناقضة معهما كما يتضح جلياً عند دراسة هذه الآيات :

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل : العفو ، كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ [البقرة آية ٢١٩]

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابزى سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً ﴾ [النساء آية ٤٣]

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون * وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا

(١) جاء في سورة النحل : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ ، وسورة النحل سورة مكية التنزيل عدا الآيات (١٢٦ - ١٢٨) (المترجم) .

فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴿ [المائدة آية ٩٠-٩٢]

أما الآية التي استشهد بها (ليفى) ليربط بين المسكرات وبين (الغذاء الصحي من نخيل البلح) فهي تفرق بينهما ولا تقرن ، ولنقرأها ثانية : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ [النحل آية ٦٧]

ثم تأتي المفاجأة ؛ لقد انطلق كل من (منيزس) (Menezes) و (ليفى) (Levy) بادعاءات ترى أن هناك تناقضاً بين الآية (٢١٩) من سورة (البقرة) والآية (٤٣) من المائدة !! بل لقد أكد (ليفى) أن واحدة منهما ينبغي أن تحل محل الأخرى .

ونحن نرى أنه لا وجود لأي تناقض بين هاتين الآيتين ، كذلك لا وجود لأي تناقض بينهما وبين أي آية أخرى في القرآن الكريم ، كما يتبين لكل ذى عقل وملم باللغة .

٢ - حقوق الأرامل :

لقد أكد (هيز) (Hughs) قائلاً : « لقد اعترف كل المفسرين أن الآية (٢٣٤) من سورة البقرة قد نزلت بعد الآية (٢٤٠) من نفس السورة والناسخة لها » ، ولكن لا شك أنه بالدراسة المتأنية يمكننا الكشف عن المغزى الحقيقي لموضوع هاتين الآيتين :

﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير ﴾ [البقرة آية ٢٣٤]

﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم ﴾ [البقرة آية ٢٤٠]

إننا بصدد مناقشة حالتين مختلفتين تماماً تتعلقان بفئة الأرمال ،
الآية الأولى تشير إلى أنه لا ينبغي للأرمل أن يتزوج لمدة أربعة أشهر
وعشرة أيام من بعد موت زوجها ، وهو ما يعد فترة كافية للتأكد من
براءة رحمها من ابن له ، ثم توجز الآية الثانية ذكر حق مؤكد من
الحقوق الاقتصادية للأرمال ، فهي تعطيهما الحق بأن تبقى في مسكن
الزوجية لمدة عام بعد موت زوجها - هذا إن لم تقرر هي أن تذهب إلى
مسكن آخر تأوى إليه .

والآن وبعد أن قرأنا الآيتين وتحققنا من أن إحداهما تكمل الأخرى
بقي لنا سؤال ، أين هو هذا التناقض الذي ادعى (هيوز) وجوده ؟
تقديس الأوثان - نسخ آخر مزعوم :

يتعلق هذا الادعاء بسورة (النجم) المكية التنزيل ، والتي جاء في
آياتها (١٩-٢٣) تناول لأهم الأصنام التي قدسها كفار مكة ، والآيات
هي : ﴿ أفرايتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله
الأنثى . تلك إذن قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم
 وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى
 الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ [النجم آية ١٩-٢٣]

فقد زعم كل من (السير مارك سايكس) (Sir Mark Sykes)
وفق ما جاء على لسان (هـ . جـ . ويلز)^(١) (H. G. Wells) ، وكما
زعم (وات)^(٢) (Wall) وأخرون^(٣) أن قد كانت هناك آية أو اثنتان
محشورتان أصلاً في هذه السورة ، ومكانهما بين الآيتين (٢٠ ، ٢١) وقد
جاء فيهما ثناء على الأوثان^(٤) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) ج ١ ص ٤٧٩ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبي والحاكم) ص ٢٦ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفي المرجع انظر ص ٩٥ .
(٤) نص هاتين العبارتين الموضوعتين هو : (تلك الفرائق العلى ، وإن شفاعتهن لترجى) =

ولكنهما حذفنا بعد ذلك ، كما أن بعض المفسرين كرروا هذه الرواية أمثال (البيضاوى) ، وذلك دون أن يأتوا بدليل من إسناد حقيقى أو حتى بحجة منطقية ، مغفلين بهذا الحقيقة الناصعة القائلة بأن كل آية هنا - وحتى اللاتى سيقال عنهن إنهن ناسخات بعد هذه الآيات - كلها دوت فى المصحف على عهد الرسول ﷺ ، وأنها ظلت محفوظة فى صدور المسلمين منذ ذلك الحين ، مما لم يدع مجالاً لحذف كلمة واحدة ، أو حتى حرف واحد ، كما وضحنا فى الفصل الثالث .

ثم زعم (وات Watt) أن الآيات قد أعلنت على الملأ فقال : « إنه لا يمكن أن يخطر ببال أن أحداً يمكنه أن يلفق مثل هذه القصة »^(١) ! قال هذا دون أن يتحقق من أنه قد نسب إلى الرسول ﷺ بعد وفاته بحوالى خمسين إلى مائة عام آلاف من الأحاديث المكذوبة التى وضعها العرب وغيرهم من ذوى الخلفيات الدينية والسياسية المتباينة ، وقد توفر أمثال البخارى ومسلم على جمع الصحيح من الأحاديث ، واستبعاد المكذوب .

ويظل (وات) هائماً فى تصوراته متناسياً واجبه من الدراسة العلمية للموضوع ، فهو يتهم الرسول ﷺ بالشرك فى السنوات الأولى للبعثة فيقول : « إنه لم يخرج توحيدده فى تلك المرحلة عن إطار أداء بعض أنواع الصلوات لموجودات فوق طبيعية ثانوية ولعلها كانت ذات علاقة بنوع من الملائكة »^(٢) ، ولكن هذه الحجة قد ثبت فشلها فى إقناع أحد فى ضوء إنكارها القاطع فى الآية فى نفس السورة موضوع الدراسة :

﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾
[النجم آية ٢٦]

= وقد ثبت كذب هذه الرواية - انظر كتاب (تاريخ القرآن) ص ٨٤ تأليف الدكتور عبدالصبور شاهين (المراجع) :

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٥٩ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٦٩ .

ويتساءل (وات) : « هل يعنى ذلك أنه - أى محمداً ﷺ - كان مشركاً ؟ » !! وهو فى حقيقة الأمر مدفوع بتصوره أن النبى عليه الصلاة والسلام قد تعلم مفهوم الوجدانية بعد أن احتك باليهود والنصارى فى المدينة ، وهو تصور سخيّف يدفعنا إلى الدهشة والتساؤل : كيف يهمل (وات) فى دراساته التعاليم الأساسية للإسلام ، ويغفل الحقيقة المؤكدة التى تجزم بأن المحور الرئيسى لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام فى نشأتها كان التوحيد الخالص ، لا إله إلا الله ، وهامى هذه آيات سورة الإخلاص ، نزل بها الوحي فى المرحلة الأولى للبعثة :

﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾

[الصمد آية ١-٤]

فالذى يجب أن نعلمه هو أن هذه السورة نزلت قبل سورة (النجم) ، وهى السورة موضوع المناقشة الحالية ، وكلتا السورتين تؤيد التوحيد الخالص ، وتدعو إليه .

ولعلنا ندرك أن كثيرين من صحابة محمد ﷺ لاقوا عذاباً رهيباً بسبب تشبههم العنيد بدين يركّز على الوجدانية المطلقة ، ولا شك فى أن قصة بلال بن رباح رضى الله عنه ، وهو العبد الحبشى تعتبر من أشهر القصص فى تاريخ هذه الفترة ، فقد عذب بوحشية فى شمس الصحراء الحارقة فى محاولة يائسة لإجباره على سب دينه الجديد ، ولكن النفس الشجاعة كانت تردد دائماً : « أحد ، أحد » ، غير مبالية بالحجر الضخم الذى يكاد يسحقه ، والرايض فوق عظام صدره ، إلى أن تمت نجاته على يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه الذى اشتراه ثم أعتقه .

والأكثر من ذلك ؛ أننا لم نعرف مطلقاً عن الرسول ﷺ أنه قد رضخ فى تسوية للصراع مع الكافرين على حساب عقيدة وجدانية الله تعالى ... لم يقبل هذا فى أية مناسبة حتى لقد نجاءت واحدة من تلك

السور التي نزلت في فجر الدعوة مسجلة لموقف الرفض التام لعقيدة المشركين في الوقت الذي تصوروا فيه أنهم يمكنهم أن يلتقوا مع محمد ﷺ في منتصف الطريق ، وترتيبها التنزيلي هو (الثامن عشر) :

﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين ﴾ [الكافرون آية ١ - ٦]

وإذن ؛ فنحن نمضي واثقين بأن هذه الآيات والحقائق الأخرى السابق ذكرها هي براهين قاطعة على الوجدانية الصافية المركزة في لب الإسلام منذ نشأته ، ولكن هناك شيئاً يحتم علينا الإشارة إليه وهو أن المسلمين يعتبرون كل الرسل الذين جاءوا برسالات من ربهم كانوا أيضاً داعين إلى الوجدانية الخالصة : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء آية ٢٥]

وبعد هذا كله نجد أنفسنا مضطرين لسرد قصة مختلقة حول الآلهة المزعوم وجودها ، وقد ساقها إلينا وكررها (دانيال) (Daniel) و(وات) (Watt) و(جاردنر)^(١) (Gardner) ، وآخرون ، بل إن (هـ.جـ. ويلز)^(٢) (H.G. Wells) كرر أيضاً نفس الإدعاء ، وهو أن « النبي قد آمن بآلهة تحمل روح (منيف) ، وهو اسم أطلقه على ابنه » !!!

وهنا ارتكب (ويلز) خطأ بالزعم أن اسم (منيف) كان لابن الرسول عليه الصلاة والسلام ، مع أنه اسم جده الأكبر (عبد مناف) ، ولقد أورد (سافاري) (Savary) الأسماء الصحيحة لأبناء الرسول السبعة والتي يعرفها المسلمون جيداً ، وهي (عبد الله) و(القاسم) و(إبراهيم) و(فاطمة) و(زينب) و(رقية) و(أم كلثوم) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gardner)

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) الجزء الأول ص ٤٨٢ .

ثم يأتي أبو حيان فيذكر في مؤلفه (البحر المحيط) أن ابن إسحاق قد فضح القصة بأكملها بعد مائة وخمسين سنة من الهجرة على أنها اختلاق من اختلاقات الزنادقة ، وهي تلك الطائفة التي لا تعترف بالإسلام ، وإنما تنتسب إليه أو إلى أى ديانة أخرى بالاسم فقط ، ويقرر أبو حيان أنه ليس لها - أى لتلك الطائفة - أى تأثير على كتب الحديث الموثوق بها مثل صحيح البخارى ، كما لم تؤثر على كتب التفسير المعروفة مثل تفسير ابن كثير ، كما قرر القاضى الشهير (عياض) فى كتابه (الشفا) : أن تلفيقات الزنادقة لم تكن لتصل إلينا لاعتمادنا على كتاب الحديث الموثوق بهم ، والمذكورين فى أى من سلاسل الإسناد .

وبعد ذلك تأتي تقارير المستشرقين كلها تتعارض وتتضارب ، فنرى واحداً يزعم أن النبى ﷺ قد تلفظ بالآية المزعوم وجودها فى سورة النجم أثناء صلاته ، ويصف آخر كيف أنه صلى الله عليه وسلم قد أعلنها فى جمع من صحابته ، فى حين ينسبها آخر إلى الشيطان فيقول من بين ما قال : « إنه هو ولا شك الذى نطق بها على لسانه » ، ويدعى رابع أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يتمنى أن تكون هذه الآية بين الوحي حتى أتاه جبريل فأخبره « بأن ليس هذا ما علمتكم إياه » ... ، ودعاوى أخرى ربما تكون أقرب إلى التسلية منها إلى أى شىء آخر .

ونتعرض الآن للنقطة الأهم وهى كيف يمكن للآية المزعومة أن تنسجم مع باقى الآيات ؟ إننا من خلال القراءة المتأنية نرى أن أية إضافة يمكن أن تشكل تمزيقاً فى الانسياب المعنوى والموسيقى :

﴿ أفرايتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذن قسمة ضيزى * إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى * أم للإنسان ما تمنى * فلله الآخرة والأولى * وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً

إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى * إن الذين لا يؤمنون
بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى * وما لهم به من علم إن
يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى عن الحق شيئاً ﴿ [النجم آية ١٩ - ٢٨]

وبعد ذلك ، يأتي دور الآية المزعومة وهي « تلك الغرائق^(١) العلى
وإن شفاعتهن لترجى » والتي يفترض أنها قد جاءت بين الآية رقم
(٢٠) والآية رقم (٢١) ، وهي لا شك تبدو باطلاً صريحاً .

ولعل من أهم النقاط أن نضيف أن سورة النجم - وهي موضوع
ادعاء المستشرقين - قد استهلت بالإعلان الصارخ عن عدم أحقية النبي
ﷺ لأن يغير أى جزء من القرآن أو يضيف إليه أو يحذف منه وفق ما
يرى .

﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق
عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى ﴾ [النجم آية ١ - ٥]

ومن ثم يبدو واضحاً - على ما قرره ابن إسحاق أن إدراج الآية
المزعومة لا يعنى أكثر من أنه مجرد تلفيق قام به كاتب أبسط ما يوصفون
به أنهم غير مؤمنين ، وغير منطقيين ، وللأسف لم يفهموا القرآن جيداً .

السنة المقول بنسخها لنصوص القرآن :

لقد عبر مستشرق معاصر^(٢) عن شكوكه إزاء تخلى النبي ﷺ عن
قاعدة قرآنية وترسيخه بدلا منها سنة من سننه ، وتعلق هذه القاعدة بحد
الزنا ، حيث تملى بأنه ينبغي جلد الزانى غير المحصن وكذا الزانية غير
المحصنة إن اقترفا جريمة الزنا ، فقد جاء فى القرآن الكريم :

﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة

(١) غرائق : جمع غرنوق وهو الوثن . (المترجم) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Burton) وفى المرجع انظر ص ٧١ .

ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر
وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴿ [النور آية ٢٢]

لذلك فقد قام الرسول وخلفاؤه من بعده بإنفاذ هذه العقوبة ، أما
في حالة الزناة المحصنين فإن القرآن لم ينسخ العقوبة التي وردت في
الكتاب المقدس والتي تنص على رجم طرفي الجريمة المحصنين كما جاء
في سفر التثنية في الإصحاح (٢١-٢٤) ، وأن الرسول ﷺ نفسه قد
أنفذ هذه العقوبة باعتبار أن القرآن الكريم لم يتم بنسخها ، ولعل
(بارتون) (Burton) قد اختلط عليه الأمر لسوء حظه وذلك أن
الحالتين مختلفتان تماماً اختلافاً لم يفتن إليه المستشرق .

خلاصة :

يتضح من الأمثلة السابقة مدى بطلان الافتراضات المتجنبة التي أتت
بها المستشرقون ، إذ ثبت الخطأ في مزاعمهم لوقوفها على أرض رخوة ،
فضلاً عن أنها جائرة ، فكيف يتم (النسخ) الإلغاء والإبطال ؟ ، والنبى
ﷺ كان ذلك الرجل الذى يصدر تعليماته لصحابته فينفذوها بحذافيرها
بقمة التفانى والإخلاص .

والتاريخ الإسلامى سجل لنا كل الملابس والظروف التي أحاطت
بكل عملية نسخ ، فذكر أنه لم يحدث مطلقاً أن أصدر الرسول عليه
الصلاة والسلام أمراً لكتاب الوحي أو إلى صحابته بوجه عام بأن يبدلوا
آية جديدة مكان آية أخرى سبقتها في التنزيل^(١) ، وإنما لو كانت هذه
الجديدة معدلة أو مكملة لها فإن كليهما ما زالت داخل المصحف الذى
تم جمعه ، بحيث يستطيع أن يقرأها أو يتعلمها كل إنسان يريد الحق .

* * *

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفي المرجع انظر ص ٤٧ .

الفصل الثامن

وقفة لتلخيص النقاط الأساسية

والآن وبعد أن تناولنا التعليقات العديدة المتعلقة بحقيقة القرآن وأسلوبه وموضوعه وترتيبه التنزيلي والمصحفي وبالخطأ التي حفلت بها بعض الترجمات الإنجليزية له وما ترتب عليها من نتائج ، دعونا نقف برهة لتأمل هذه التعليقات من المستشرقين .

لقد اتضح أن كل الكتاب غير المسلمين والذين قرأنا أعمالهم قد أنكروا الحقيقة الإسلامية من أن القرآن الكريم هو كلام الله ، سواء في ذلك الذين عاشوا في القرون الوسطى أو في العصر الحديث . ولهم في هذا الموقف بعض العذر ، فهم لم يعرفوا مطلقاً كتاباً ذا وحى إلهي بما في ذلك الأناجيل والتوراة .

وإنه لمن أعجب العجب أن ترى الملايين من الغرب يؤمنون بما تحتويه رسالات سماوية بشر بها الأنبياء المذكورون في العهد القديم ، بل يؤمنون بأصوات سمعت ورؤى ذكرها بعض القديسين أمثال (القديس بول) (St. Paul) و (القديس فرانسيس الأسيسيني)^(١) (St. Francis of Assisi) والقديسة (جوان الأركية)^(٢) (Joan of Arc)^(٣) ، وفي نفس الوقت تجدهم ينكرون كل الإنكار الأصل الإلهي للقرآن بدون أي تردد أو تفكير .

(١) الأسيسيني : نسبة إلى (Assisi) وهي مدينة بإيطاليا (المترجم) .

(٢) اسمها بالفرنسية (Jeanne d'Arc) وعاشت في فرنسا في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، وقادت الفرنسيين وانتصرت على الإنجليز وحررت مدينة (أورل) إبان حرب السنين المائة ، وأسرها اليرجنديون بعد ذلك وحوكمت وماتت حرقاً عام ١٤٣١ . (المترجم) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Champion and Short) ، وكذلك تحت (Chesterton) وفي المرجع انظر ص ٦٣ ، وأيضاً انظر تحت (Caiger) .

ويبقى الآن أن نقدم تقريراً عن طريقة تقديم الوصايا العشر - تلك التي أوصى بها الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام في العهد القديم :
« وقال الرب لموسى اصعد إلىّ إلى الجبل وكن هناك ، فأعطيتك
لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعلمهم » (سفر الخروج -
الإصحاح الرابع والعشرون ١٢)

والقرآن يدعونا لأن نتأمل نفس هذه الحقيقة من خلال الآيات :

﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء
قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه
قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم
قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك
مصدق الذي بين يديه ولتندر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون
بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ [الأنعام آية ٩١-٩٢]

أوليس الله بقادر على أن ينزل القرآن على قلب رسوله محمد ﷺ
كما أنزل الألواح إلى موسى عليه السلام ؟

ومن المعروف أنه لا يمكننا أن نجد النسخة الأصلية - باللغة الأولى
للوصايا والقوانين التي أنزلها الله على موسى ، وغاية ما نملكه عبارة عن
ترجمات لترجمات ، تحوى كل منها تغييرات ناجمة عن النقل عبر
القرون ، بعد أن ضاعت واختفت النسخة الأصلية فلم تعد في متناول
أيدي الناس منذ دهور .

وعلى الجانب الآخر ، بقى القرآن - كما ذكرنا قبلاً - ثابتاً
محفوظاً بكلماته وحروفه لم يتغير منه حرف مطلقاً ؛ نعم ؛ لقد بقى
القرآن دائماً معروضاً للدراسة ، وللتحقق من صحة كل ما جاء فيه ،
حتى صار من الواجب أن يتأمل الإنسان هذه المعجزة ، وهي سلامة
القرآن وبقاؤه كما هو ، طوال هذه الحقبة الطويلة ، على الرغم من

حدوث قفزات وتغيرات رهيبه في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتي أثرت في كثير من البلدان والأمم واللغات .

والقارئ الإنجليزي لا يقرأ القرآن إلا من خلال التراجم التي أعطينا أمثلة لها ، مشيرين إلى أنه لماً توجد حتى الآن ترجمة أعطت القرآن قدره ، لدرجة أن بعض الترجمات الإنجليزية ، والتي بلغت شهرة واسعة لعقود من الزمن ، كانت منقولة للمرة الثانية ، أو حتى للمرة الثالثة ، فراها قد نقلت من العربية إلى الإنجليزية مروراً باللاتينية ، أو تترجم إلى اللاتينية ثم الفرنسية ثم إلى الإنجليزية بعد ذلك فيما عدا تلك الترجمات التي نقلت مباشرة عن العربية ، مثل تراجم محمد يوسف علي ومحمد أسد ، و(أربري) (Arberry) و(بيكثال) (Pickhall) ، ولكنها للأسف لم تتعد أن تكون صوراً أحادية اللون لطبيعة ملونة غنية تفوق الوصف ، ومن ثم لا يكفي الإنسان أن يقرأ ترجمة أو ترجمتين ليقدر القرآن حق قدره ، ويرى بنفسه ثراء أفكاره وتأثيره الساحر على العقل والعاطفة والخيال .

وكما رأينا سابقاً ؛ إن كل التعليقات التي نشرت في الغرب كانت من أعمال مستشرقين لم يلموا بالقرآن بصورة جيدة ، وهو ما أدى إلى كثير من الخلط والغلط، فنرى أن غالبية المستشرقين قد اتهموا محمداً ﷺ بوضع القرآن وتأليفه بنفسه أو بمساعدة من غيره، والذين عاشوا منذ حوالي نصف قرن مثل (منزس Menezes) و(جاردنر Gardner) يرون أن النبي عليه الصلاة والسلام قد لقي المساعدة من اليهود والنصارى ، وهو بالطبع ما ثبت خطؤه ، في حين استنتج بعض الكتاب الذين جاءوا بعد ذلك (كأندرسون Anderson) و(وات Watt) أن القرآن الكريم هو حصيلة تفكير الرسول عليه الصلاة والسلام الحالم ، وتصوره الخلاق ، وهو ما استطعنا دحضه بالحقيقة التي تملئ : أنه لا يمكن لبشر أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو كان ذا تفكير حالم ، أو تصور خلاق ، أو أي شيء آخر.

ثم يصل (نولدكه) (Noldeke) بنا إلى فهم مشوش عن القرآن، وقد اتبعه آخرون في أوائل هذا القرن ومنهم (رودويل) (Rodwell) ، وبدلاً من أن يحاولوا الوصول إلى عمق محتواه قرروا أن يعيدوا ترتيب سورة . ولا شك في أننا نعرف الآن تمام المعرفة أن الترتيب المصحفي للسور يختلف تماماً عن الترتيب التنزيلي لها .

وقد تم تنفيذ الترتيب المصحفي للسور بتوقيف من النبي ﷺ ؛ وبه استمسك المسلمون .

ثم نضيف أنه لا يمكن الأخذ بالشكل الرياضي للحروف الأبجدية الموجودة في القرآن إلا بالطريقة التي هو مرتب بها الآن .

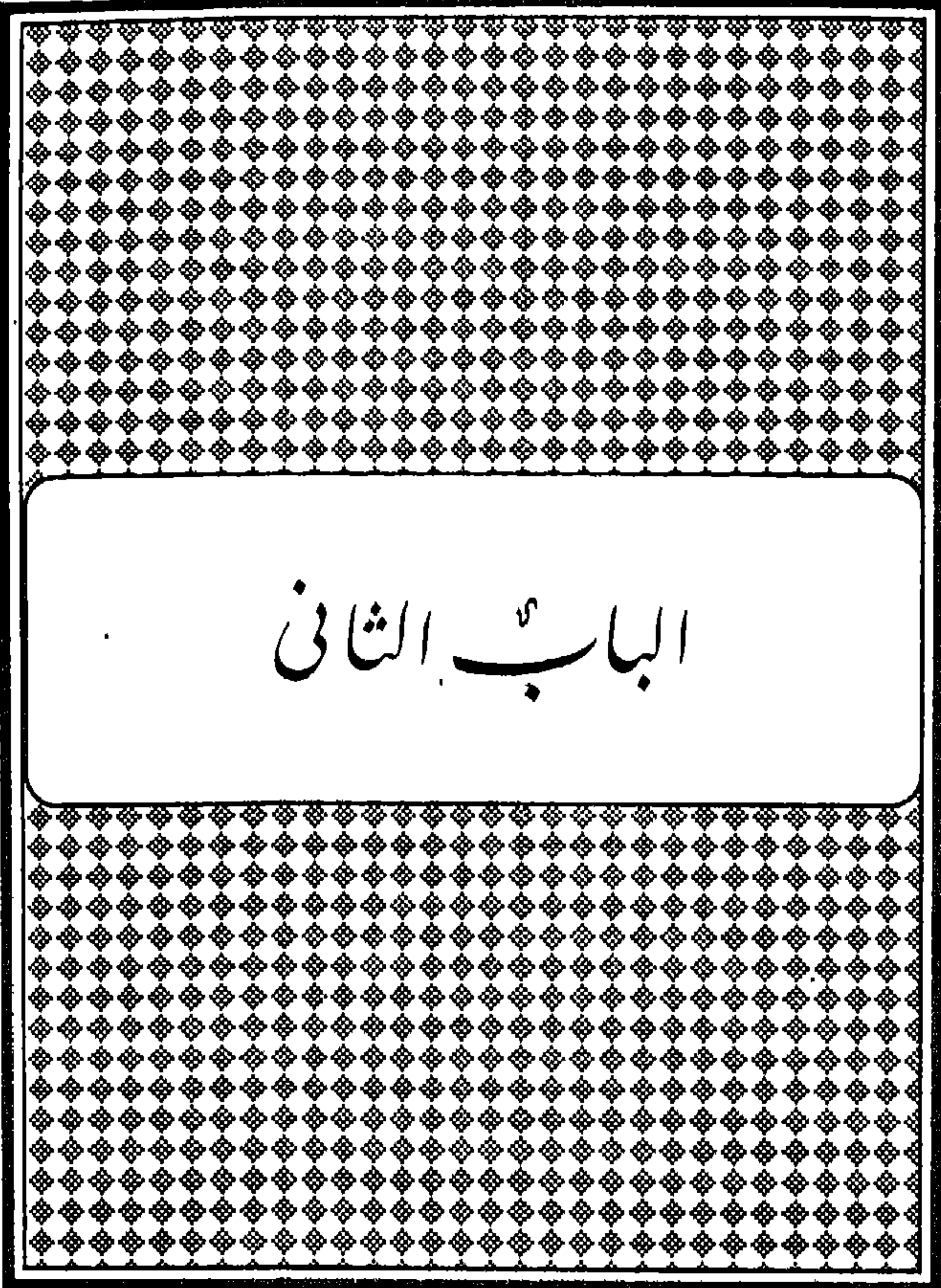
ولا ريب أن كل ما لدى هؤلاء الكتاب الذين حاولوا إعادة ترتيب السور واتبعوا فرضيات ونظريات أودت بهم إلى قرار سحيق - كل ما لديهم هو الرفض الأصم لكل من الترتيب المصحفي والترتيب التنزيلي الصحيحين ، وهو ما جعلهم في سعيهم لإعادة الترتيب يبدون وهم يتعدون كل البعد عن طريق الفهم الحقيقي .

ومن المؤسف حقاً رؤيتنا للأعداد الهائلة من القراء الذين أصابتهم حالة من الحيرة لدى اصطدامهم بهذه الكتلة الهائلة من الانتقادات والانتقادات التي حجبت بالفعل حقائق القرآن ، حيث إن الهجوم على القرآن وعلى الإسلام ككل إبان القرون الوسطى لا يزال يتردد صداه منذ ذلك الحين ، وحتى إنه ليبدو محزناً أن كثيرين من الكتاب الغربيين وجدوا من الأيسر عليهم أن يكرروا نفس الأقاويل والظنون الشائعة بدلاً من أن يخوضوا في دراسة علمية جادة تعتمد على مراجع ملائمة ، وكافية لتغطية جميع الأحداث وحيثياتها وخلفياتها . ولو قاموا بالدراسات العلمية المتأنية لكان ذلك أكثر إنصافاً لقراءتهم ولأنفسهم ، وفوق ذلك للحقيقة التي يتظاهرون بالبحث عنها .

والآن ؛ وبعد أن انصب اهتمامنا فى أوائل المناقشة على موضوع مصدر القرآن وتعبيره وأسلوبه الأدبى وتاريخ كتابته وتنظيم السور فيه ونسخه وترجماته ، حان الوقت لكى ننزل فى جولة بين الموضوعات البارزة فى القرآن ، وبخاصة تلك التى لاقت اهتماماً لدى الغربيين ، فالقرآن كما ذكرنا قبلاً يجسد روح الإسلام الذى هو الطريقة الصحيحة والمكتملة والشاملة للحياة ، على عكس ما غرسته الأديان الأخرى فى نفوس الناس من ملل وعشوائية لا منطقية .

لذلك ففى الجزء الثانى من هذا الكتاب سوف نستعرض بإيجاز المفهوم القرآنى عن الله سبحانه وتعالى ، وعن الدستور الأخلاقى ، ومفهوم القضاء والقدر ، ثم نتعرض أيضاً لانطباعات القرآن حول العالم الغيبى .

* * *



الباب الثاني

الفصل التاسع

المفهوم القرآني عن الله سبحانه وتعالى

ربما يتصور رجل الشارع في الغرب أن الله هو مجرد معبود اتخذ محمد ﷺ وأتباعه ، بيد أن الإسلام يعلن أنه لا شيء كمثل الإله الواحد الحقيقي ، الذي خلق الكون وحفظه ، والذي أرسل رسالات الهداية والراحة النفسية رحمة ورأفة ببني الإنسان ، ثم يحاسبهم في الآخرة على ما ارتكبوا من أعمال بعدله المطلق الرحيم .

وقاموس أوكسفورد والموسوعة البريطانية يترجمان كلمة (الله) على أنها تلك اللفظة العربية التي يستعملها المسلمون من كل الجنسيات وصفاً للإله الواحد الحقيقي ، فكلمة (الله) هي كلمة فريدة لا يمكن ترجمتها كما لا يمكن الاشتقاق منها ، ذلك أنها تحمل في طياتها كل صفات الكمال والجمال في أبهى صورها ، ولا ترمز لشيء إلا إلى الرب الواحد المتفرد. وقد نرى أن الكلمة الإنجليزية (God) - وتعني (إله) - لا تعطي نفس معنى كلمة (الله) ، مع أن الأخيرة ليست شائعة ، ونعترف بعدم شيوعها رغم أننا نقر بأنها الكلمة المناسبة التي تعبر عن التفرد والامتياز ، ذلك أن كلمة (الله) لا يمكن جمعها ولا تأنيثها ، في حين يمكن ذلك لكلمة (God) التي تنقلب إلى جمع فتصبح (Gods) وتؤنث على (Goddess)^(١) .

وحدانية الله وصفاته :

يعد التصور القرآني عن وحدة الله معجزاً ، وهو ما يبدو بارزاً عند اللجوء إلى تحكيم المنطق الحقيقي والذهن النقي ، في حين يتضاءل الشرك بجانب هذه الحقيقة .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Doi)

فصفات الله بطبيعة الحال هي الأعلى والأعظم لدى أى تصور لناحية تتعلق بكل صفات الكمال . فهي تظهر فى القرآن بصورة مهيبه متمثلة فى أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، تلك الصورة التى لا يمكن ترجمة جلالها البادى فى اللغة العربية إلى أية لغة أخرى بأى درجة من الدقة .

وقد تمت مناقشة موضوع وحدانية الله فى سور كثيرة من القرآن ، منها هذه السورة التى نعرفها جميعاً :

﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد . لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾
[الإخلاص آية ١ - ٤]

كما جاء ذكر صفاته تعالى وذكر حقيقة استحالة وجود شركاء له فى سور عديدة أيضاً :

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾

[البقرة آية ٢٥٥]

وكذلك نستخرج من السور : البقرة وآل عمران وهود وفاطر والطور والحشر والطلاق والبروج بعضاً من أسماء الله الحسنى فهو الله الرحمن الرحيم المهيمن القدوس الحفيظ الوهاب السلام الهادى المعطى العظيم القوى الجليل الرؤوف الودود الحكيم الكريم الغنى الغفار الصبور المقتدر القادر السميع البصير العليم .

ولقد ذكر الأستاذ عبد العاطى^(١) : « يوجد العديد من الوسائل التى نعرف بها الله تعالى ، بل وتوجد أشياء كثيرة تدل عليه » ، ولكننا نرى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H. Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

بين أيدينا أن العالم يفتح كتباً ليقرأ عن الله ، ومع أن الله ظاهر بذاته ، فقد عرف الإنسان بوجوده سبحانه من خلال الرسالات والرسول والأنبياء الذين أرسلهم إلى كل البشر ، وعليه فلو أن الناس ارتدوا إلى الفطرة وسمعوا كلام رسل الله ، وقرأوا وحيه تعالى - لو فعلوا هذا لأمكنهم حينئذ أن يصلوا إلى ما يشفى غلتهم من معرفة الله وصفاته .

أما المستشرقون ؛ فإلى جانب تلك الطائفة منهم التي أبدت إعجابها الكبير واستحسانها للمفهوم القرآني لوجود الله - ظهرت طائفة أخرى قد أثقل كاهلها الفهم الخاطيء كما سنرى في الصفحات القادمة، وظهرت مجموعة من الملاحدة الذين يسمون أنفسهم بالعلميين الذين افتخروا بإنكارهم لوجود الله ، وزعموا أن الكون وليد ظاهرة عشوائية صدفية ولا أكثر من ذلك .

ونعلم جميعاً أن ذكاء الإنسان واستعداده القوى لأن يستنبط ويتعلم ويكتشف هما اللذان يرفعانه فوق عالم الحيوان والنبات والجماد ، ويؤهلانه لينظر في الكون مفكراً في الله وصفاته ، لذا ؛ وبالنظر في واحدة من الظواهر الطبيعية التي تحوط الإنسان يجد نفسه محاصراً بسؤال هو : لماذا ؟؟

ولنأخذ ظاهرة من تلك الظواهر اللانهائية ، ولنتصور كيفية دوران هذا الكوكب الذي نعيش عليه حول محوره بهذه السرعة الهائلة الانسيابية الثابتة وبهذا الأداء الرائع الذي لم نشعر معه - حتى الآن - بأى خلل أو اهتزاز ، فكيف تم اتزانه بهذه الدقة مع ضخامة حجمه ؟ ثم لنعقد مقارنة بسيطة ، فنسأل : كم عدد عجلات وإطارات كل من السيارات والشاحنات والدراجات وغيرها التي تم تصنيعها منذ بداية هذا القرن ؟ لعله يتجاوز مئات الملايين بكل الأحجام والأوزان والتصميمات ، ونقول بذلك : إن الصناعة قد بلغت شأواً كبيراً من التقدم والإبداع ، وذلك لوجود فرق كثيرة من المهندسين والفنيين الذين يملكون الذكاء

والعلم والخبرة المتوارثة ، والذين تتعاون فرقهم فيما بينها للتصميم وللكشف عن صلاحية كل المنتجات والآلات والأدوات اللازمة لعملية التصنيع ، ومن ثم لا نجد أن عجلة واحدة تم إنتاجها بلا وسائل وآلات ، أى نتيجة صدفة عشوائية طبقاً لنظرية الملاحظة . بل نلاحظ أن كل ذلك التقدم فى الصناعة ، ورغم كل الإمكانيات ، يفرض أن نضع قطعة من الرصاص لكل عجلة ، ونثبتها على حافتها المعدنية فى نقطة معينة بها ، من أجل منع تذبذبها وارتعاشها عند دورانها بسرعات عالية .

فإن اتبع الإنسان مقارنة منطقية بسيطة يسأل نفسه : ألا تحتاج الأرض لذكاء أكبر بكثير وإلى قوة أعظم لتصميمها وصنعها ؟ إن كتلتها وحجمها ومدارها حول الشمس وتركيب قشرتها وسمكها وتركيب غلافها الجوى وكثافته ، وكذلك دوران قمر واحد حولها بسرعة ثابتة ؛ كل هذا بلا شك جعلها مناسبة للحياة فوقها للدرجة التى نتمتع بها ، ألا تحتاج هذه الخصائص والمواصفات لتخطيط وتصميم وقوة ليتم تحقيقها ؟ وهل يمكن أن يكون هذا بفعل ظاهرة عشوائية لا شأن لأحد بها ؟ ألا يوجد خالق لها يملك صفات عظمى ؟

مزاعم المستشرقين حول وحدة الله :

لقد أتى بعض الكتاب الغربيين بافتراض خاطئ يقول بأن المسلمين قدسوا محمداً ﷺ على أنه إله ، ودعوا بعد ذلك المسلمين خطأ بأنهم (المحمديون) (Mohammedans) (١) ، ولكن بتطور وسائل النقل والاتصال بدأت الحقائق والمعلومات المتعلقة بالإسلام تصل إلى الغرب ، وأدانت بالتالى هذا المبدأ الخاطئ الذى بات هذه الأيام عاراً على أى شخص متعلم أن يصدقه مهما كانت خلفياته الثقافية .

ولا ريب أن عدداً من المعلقين الغربيين منذ القرن السابع عشر قد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) وبالمرجع انظر ص ١٠ .

أعجبوا بالمفهوم القرآني لوحدة الخالق ، كما دافع عنه القرآن ، ففي سنة (١٦٩٨) جاء على لسان (الأب مازاكسي) (Father Maracci) : «تعتبر أية محاولة لإثبات أن رب محمد يختلف عن الرب الحقيقي ، - هي من باب تضييع الوقت»^(١) ، ثم أتى (جيب) (Gibb) في عصرنا بفكرة أن القرآن يعتبر هو السجل والأداة في عملية بناء الفكر الديني فقال : « للعملية جانبان ؛ الأول يحوى اقتلافاً لكل المذاهب المصاحبة لأى تقديس أو اعتقاد ، أما الثانى فيحوى عملية إحلال لمفهوم الوحدة الإيجابى للكون ولكل شىء فيه »^(٢) ، أما المؤرخ والفيلسوف (هـ. جـ. ويلز H. G. Wells) فقد أعجب كثيراً بالتجرد الكامل من « كل المعتقدات اللاهوتية ومن التقرب عن طريق الكاهن والكنيسة »^(٣) .

وعلى النقيض تماماً وصف (زويمر) (Zwemer) مفهوم القرآن عن وجود الله بعبارة : « توحيد الإسلام العقيم »^(٤) ، ووصف (أندرسون) (Anderson) الله بأنه إله المسلمين فقال : « إن أحسن حالات تقبل هذه الحقيقة ، وهى حقيقة وحدانية الله وجبروته - هى عندما يكون الإنسان فى الصحراء بشساعتها وجلالها وقسوتها وغموضها ، فيأتيه عندئذ إحساس بتفاهته وحقارته ، فيبدأ فى الخضوع والتسليم »^(٥) ، هذا ولا شك فى أن شعور الإنسان بتفاهته وحقارته وضالته قد تضخم هذه الأيام بشكل هائل ، إثر ارتياده أعماق المحيطات واختراقه أجواز الفضاء ، فرأى الكيفيات الساحرة والأخاذاة للحياة فى قيعان المحيطات ، كما وجد الفراغ عندما انقشع الغلاف الجوى عنه معرضاً إياه لخطورة النيازك والشهب والإشعاع ، وأدرك أن عمره قد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) فى مقدمة المرجع .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (الحضارة الإسلامية) ص ١٨٨ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) ج ١ ص ٤٨٤ - ٤٨٦ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Zwemer) كتاب (المسيح الإسلامى) ص ١٨٨ .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفى المرجع انظر ص ٧٩ .

يوازي فترة تافهة للغاية بالمقارنة إلى الزمن اللازم للسفر إلى بعض الكواكب والنجوم البعيدة ، ومعلوم أن الرحلات الفضائية التي تجرى إلى القمر أو كوكب الزهرة أو المشتري بالنسبة لما وراء هذه الكواكب من أبعاد شاسعة للفضاء الزاخر بالنجوم والمجرات - يمكن تشبيهها برحلات بحرية في زوارق قرب شاطئ المحيط . بل إن الإنسان رغم ما له من علم لم يستطع أن يتصور واقعياً كيف وأين تكون الحدود لهذا الفضاء ، ولكنه أدرك الأخطار التي تحدق به فيه ، أو في أعالي البحار حينما تصبح أعتى السفن تقنية وتصميماً مهددة بالاضطراب واليأس في خضم أمواجها العاتية التي تثور بفعل العواصف ، فيهرع الإنسان إلى ربه ويتضرع له تماماً كذلك التي ابتلعت الصحراء باتساعها ، وشعر أنه قد ضل الطريق فيها .

وليس شرطاً للإنسان بعقله المنطقي أن يجوب الفضاء الخارجي أو أن يغوص في قاع المحيطات ، ولكن يكفيه أن يتأمل في ذرات المادة في أى من حالاتها الثلاث : الصلبة أو السائلة أو الغازية ، وينظر إلى الكثروناتها وجسيماتها وكيفية تصرفها وفقاً للتغيرات الطبيعية والكيميائية... ، يكفيه هذا حتى يجد الدليل القاطع على وجود الله وعلى صفاته سبحانه ، وإن أصر على طلب دليل آخر فما عليه إلا أن يتفكر في ذلك الأداء العجيب لجسم الإنسان رغم تعقيد جهازه العصبى والتحكمى ، وجهازه التنفسى ودورة دمه وجهازه الهضمى ، وذلك ليدعن لوحداية الله تعالى ولصفاته العليا .

ويرينا (دانيال)^(١) (Daniel) و (مينيزس) (Menezes) بعض الخلط المتعلق بموضوع الوحداية في الإسلام ، وخاصة (مينيزس) ذلك الذى انتقد تقديس الرسول ﷺ للكعبة وللحجر الأسود الموجود فى أحد أركانها ، وليس ضمن محتوياتها كما هو مدون خطأ فى قاموس

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ٤٨ .

أو كسفورد ، فيعلن : « إن كل هذا يجعلنا نشك متسائلين هل كان محمد يحارب الوثنية كلها أو أنه اكتفى بمحاربة جزء منها ، بحيث لا يتعارض هذا مع ميله وولعه الشخصي ؟ » (١) .

ولكننا نوضح هنا أن الكعبة المشرفة قد بناها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، لإقامة الصلاة توحيداً لله تعالى ، ويعلمنا الإسلام أن إبراهيم قد وضع الحجر الأسود بيديه في المكان الذي لا يزال يحتله إلى يومنا هذا ، كواحد من أحجار الركن في الكعبة . ونسأل : ألم يكن إبراهيم عليه السلام أول مثال يحتذى به كل مسلم ورج مخلص ؟ إنه ولا شك كان شجاعاً للغاية حتى في صباه عندما واجه ممارسة قومه لعبادة الأوثان ، وكان منهم أبوه ، ثم ترك وطنه وأرضه قاصداً أرضاً مقفرة تسليماً وإذعاناً لإرادة الله ، مصطحباً معه زوجته وطفله ، ثم أقدم على ذبح ابنه وفق أمر الله تعالى له ، مقدماً نموذجاً لكيفية الطاعة .

فالكعبة في الإسلام ليست لها أية علاقة بالخرافة ، وإنما علاقتها وطيدة مع دين ينبض به قلب كل مؤمن ، فهي أول مكان وضع للناس وخصص لعبادة الله وحده ، ومن ثم فهي الجديرة بأن يتوجه إليها مباشرة كل المسلمين ، قبة لهم في صلاتهم .

ثم نجد بعد ذلك كثيراً من النقاد من أمثال (بل) (Bell) و (ستوبارت) (Stobart) و (وات) (٢) (Wall) يزعمون أن مفهوم الوحدانية الذي جاء به الإسلام هو منقول أصلاً عن اليهود والنصارى !!
والحقيقة أن هذا المفهوم قد ظل ثابتاً لم يتغير في الإسلام منذ أن بشر به إبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعاً السلام ، حيث لا يوجد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes)

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ص ١١٦ ، وكذلك انظر تحت (Tritton) وفي المرجع انظر ص ٢٠ ، وأيضاً انظر تحت (Stobart) وفي المرجع انظر ص ٥٢ ، وتحت (Watt) كتاب (محمد النبي والحاكم) ص ٦١ .

أى جديد يمكن أن يستحدث فى جوهر الوحدانية المتمثلة فى رسالة الله تعالى إلى خلقه ، كما أنه لا يمكن تصور أن يتغير هذا الجوهر ، وهو الحقيقة الكونية الثابتة مع الزمان والمكان، ولقد ذكر المستشرق (جيب) (Gibb) : « إذا كان المقصود بالتجديد التوصل إلى مجموعة جديدة ومبتكرة من الأفكار عن الله وعن الإنسانية والعلاقة بينهما والمعنى الروحى للكون فإن الابتكار لا قيمة له ولا مكان فى دين التوحيد »^(١) .

إن ما جاء به محمد ﷺ لبعيد كل البعد عن أن يكون عقيدة جديدة ، ويظهر جلياً حينما أعلن أنه قد أعاد بناء دين التوحيد الذى جاء به الأنبياء من قبله وجاءت به كتبهم :

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة آية ١٣٦]

وعليه يصعب وصف الإسلام بأنه من إبداع اليهود والنصارى ، ولعله من المناسب أن نسردهنا بعض المقاطع من نسخ التوراة والإنجيل الحديثة التى تتعلق بمفهوم الوحدانية .

من العهد القديم والعهد الجديد :

لقد علق (أندرسون) (Anderson) قائلاً : « لقد ثبت لدى قراءتنا للعهد القديم وجود وثنية مرتبطة بكل من مملكتى إسرائيل ويهوذا حيث عرفنا أن الملك منسى^(٢) (King Manasseh)^(٣) » قد نصب المذابح التى يذبح فيها لآلهة أخرى فى كل معبد للرب ، حتى إن

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) ص ٦٩ .

(٢) هو ملك من ملوك مملكة (يهوذا) واشتهر عنه أنه كان يأتى بكل ما يفضى الرب وتم أسره من قبل البابليين فاستجار بالرب الواحد فعاد إلى أورشليم وأمر الناس أن يذبحوا لله (المترجم)

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفى المرجع انظر ص ٢٦

الشعب كله كان تواقاً للأخذ بهذه الوثنيات ، ولم ينقطع عنها إلا بعد السبي البابلي عندما عادت نسبة ضئيلة منه إلى فلسطين ... عندها فقط انقطعوا عن عبادة الإله (بعل) وآلهة أخرى » ، وقد جاء ذكر ذلك في سفر الملوك الثاني في الإصحاح الحادى والعشرين وفى سفر أخبار الأيام الثاني في الإصحاح الثالث والثلاثين .

وجاء فى سفر الخروج أن الله قد جعل موسى رباً لفرعون : « فقال الرب لموسى انظر ، أنا جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيك » (الخروج - الإصحاح السابع - ١) .

ونجد كذلك أن الله يوصف أحياناً بأنه (إله العبرانيين) وحدهم دون سائر البشر ، كما نلاحظ أن تمثيل عملية تعدد الآلهة قد ظهر بصورة صارخة فى سفر (إرميا) : « لأنه على عدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا » (سفر إرميا - الإصحاح الثانى ٢٨) .

أما عن تعاليم السيد المسيح التى جاء ذكرها فى الأناجيل الأربعة فإننا نجد أنها لم تؤيد أبداً أى شىء مما جاء به الثالوث المقدس^(١) . ونحن نعلم أن كلا من المصريين والرومان اعتقدوا فى بعض أنواع الشرك قبل المسيح وزاردشت^(٢) بزمن كبير ، وبعد أن استولى اليونانيون على مصر وأصبحت الإسكندرية مركز الحياة الدينية للعالم الإغريقى ككل ، ظهر إلى ساحة العبادة والتقديس ثالوث من الآلهة يتكون من سيرابيس وإيزيس وحورس ، بيد أنها لم تتخذ على أنها ثلاثة آلهة مستقلة وإنما على أنها ثلاثة أشكال لإله واحد ، وللعلم ، سيرابيس هذا تم تعريفه وحده على أنه ثلاثة هم زيوس إله اليونان وجوبيتر إله الرومان ثم إله

(١) الثالوث المقدس هو الأب والابن والروح القدس (المترجم) .

(٢) زرادشت هو نبي فارس الذى بشر بالوحدانية ودعا لها فى مجتمع كان مملوءاً بالشرك وعبادة آلهة كثيرة . (المترجم) .

الشمس عند الفرس^(١) .

وحسما لقضية حقيقة المسيح الأحادية أو الثنائية بالنسبة إلى الرب ،
اجتمع مجمع نيقية عام (٣٢٥) ميلادية ليوقفوا النزاع الذي نشب بين
الطوائف المسيحية ، حيث تعتبر حقيقة عيسى عليه السلام من أهم
الموضوعات التي تشغل بال المفكرين في العالم المسيحي^(٢) ، ونادراً ما
يطلع علينا موسم نشر إلا وقد أخرجت المطابع أدلة جديدة فحواها يؤكد
أن يسوع الناصرة ليس بابن لله ، كذلك خرجت علينا لنا مؤخراً ضمن
النظريات التي تبعث على الأسف نظرية تقول : إن المسيح لم يكن سوى
ثائر يهودي تم استئصال شأفته ، أو أنه كان رمزاً لعبادة هلوسية فطرية -
نسبة إلى الفطر - والآن يظهر بروفيسور بجامعة كولومبيا ليعلن نظرية فوق
الاحتمال منطوقها هو : « أن عيسى كان مشعوذاً استخدم طقوس تعמיד
سرية »^(٣) .

ولا شك في أنه من المستحيل أن نتصور أن النبي عيسى عليه
السلام قد أخبر حواريه ولو لمرة واحدة أن يدخلوا في دوامة هذا الصراع
الشديد حول طبيعته كشخص .

تعليقات المستشرقين حول صفات الله تعالى :

كان (أربري) (Arberry) من ضمن أولئك الذين أبدوا
إعجابهم بما للإسلام من فكر نقى عن الإله ، فقال : « هو واحد فرد
ثابت خالد ولا شيء باق إلا هو ولا إله معه ، كما أنه ليس جسماً ولا
شكلاً ولا تكويناً ولا شخصاً ولا عنصراً ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا
يمكن أن يسعه فضاء ، ولا يؤثر فيه زمن ، ثم إنه لن يكف عن أن يكون

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفي المرجع انظر ص ٨٤ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Galwash)

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Newsweek) عدد ١٩٧٣/٦/٤ ص ٥٤ .

أبدياً ، إذ إنه هو المحيط بكل شيء ، ولا شيء باق مثله «^(١) .

وعلى الرغم من أن بعض الدارسين مثل (هويز) (Hughes)
احترموا « المفهوم الإسلامى عن الطبيعة الإلهية ، حيث إنه يثق بقدرة
الإله ثقة متحمسة كبيرة »^(٢) ، واحترموا قول المسلمين فى صلاتهم :
« سبحان ربي العظيم » إلا أن هناك ناقداً يدعى (س . د . ديل)^(٣)
(C.D. Dale) زعم أن « عدم اتساع الإسلام لأن يحتضن مفهوم قدسية
الإله يعد من بين خصائص الإسلام السيئة » .

والمسلمون يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى يختلف عن الإنسان
اختلافاً لا نهاية له ، فالله هو الخالق ، والإنسان مخلوق ، هذا على
العكس من اعتقاد أهل الكتاب فى الإنسان أنه ابن الله^(٤) ، ووفق ما جاء
به (جيردнер) (Gairdner) من أن « الإسلام قد صان وحدانية الله
وعظمته وقوته ولكن ذلك كان على حساب حرمانه من الحب
والتقديس » ، ومضى يعلن بقوة : « إن استحالة حب الله أو الوثام معه
جاءت من الطريقة الشكلية والرسمية الواضحة والواقعية الموجودة فى دين
المسلمين ، ولنسأل ؛ كيف يمكن لله مع هذا كله وهو المختلف كلية
عن الإنسان والبعيد عنه أن يصل إليه ؟ »^(٥) .

ثم يؤكد زعم تجديفى آخر - وهو بالطبع بعيد كل البعد عن
مفاهيم المسلمين - أن تصور المسلمين لله تعالى هو : « أنه ذو النفوذ
والسلطة النزوية ، وأنه بهذه الضخامة والقوة والكيان غير المسئول لا يمكن
لشئ آخر أن يتجاوب معه ، ولا يستطيع الإنسان أن يبدل ولو جزءاً

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry and Landau) ص ١٨٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Hughes) وفى المرجع انظر ص ٦ ، ص ١٠٨ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Glubb) وفى المرجع انظر ص ١٢٤ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bethman) وفيه انظر ص ٤٧ ، وكذا تحت

(Zaehner) وكذا تحت (Macdonald)

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وفى المرجع انظر ص ١٥٠ - ١٥٥ .

صغيراً جداً من نصيبه المقدور ، ولقد كان تمثل محمد لربه أنه ذلك الإله المرعب الذى لا تفهم تصرفاته المبهمة ، والذى يكمن بصورة أبدية فى كل شىء مفزع وفضيع على هذه الأرض - ولم يكن تصويره له على أنه اللطيف الرحيم «^(١) . هذه المزاعم التى أتى بها (بيثمان) (Bethman) و(ديل) (Dale) التى تشير إلى موضوع افتقار المفهوم الإسلامى عن الإله إلى الحب والتقديس - لا مبرر لها ، لوجود تناقض شديد بين الوصف القرآنى لله تعالى وبين وصفه بصفات محددة فى كتب أخرى ، فنحن نقرأ مثلاً فى العهد القديم عن إله يمشى فى الجنة بين الأشجار ، وعن آدم وحواء يختبئان منه لكى لا يراهما وهو ما جاء فى (سفر التكوين - الإصحاح الثالث ٨ - ١٠) وفى نفس السفر ولكن فى (الإصحاح الحادى والعشرين) نرى الرب يوصف بأنه يتنسم رائحة الرضا ويندم من قلبه على إيذائه للإنسان ، ثم نرى موسى يمتدح الرب فى (سفر الخروج) بقوله : « الرب رجل الحرب » (الخروج - الإصحاح الخامس عشر - ٣) ، ثم يوبخه بعد ذلك على غضبه الجبار من شعبه ويسأله أن يندم متذكراً عهده لإبراهيم وإسحاق ويعقوب فى (سفر الخروج - الإصحاح الثانى والثلاثين ١٠ - ١٤) ، كما نقرأ فى سفر الخروج أيضاً : « لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها ، واستراح فى اليوم السابع » (سفر الخروج - الإصحاح العشرون - ١١) ، كذلك لقد وصف الرب فى سفر (نحميا) على أنه « العظيم الموهوب » (نحميا - الإصحاح الرابع - ١٤) .

ولقد قمنا باقتباس هذه المقاطع التى لها صلة بالموضوع من نسخ متداولة الآن فعلاً للعهد القديم ، وفيها يظهر أن الصورة المجسمة التى يمثل بها الإله تشابه تماماً تلك الممثلة لجوبيتر - وهو أبو الآلهة عند

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Draycott) وفى المرجع انظر ص ١٣ ، وكذلك تحت (Bethman)

اليونانيين الوثنيين - وهو ينزل إلى الأرض ليرى بنفسه كيف تسير الأمور عليها^(١) .

أما (أندرسون) (Anderson) و (زويمر) (Zwemer) و (لويس) (Lewis) فقد أشبعوا المفهوم المسيحي عن الإله دراسة وتمحيصاً ، فعلق (أندرسون) : « لقد نزل الإله الابن إلى الأرض وبعث نفسه إلى الناس وأعطاهم الخلاص والحياة التي كلفت الرب حياته »^(٢) ، وجاء في إحدى عظات (الأب جريجورى) (Pope Gregory) : « إن الرب يتكلم مرة واحدة فقط ولا يكرر نفسه أو يجيب على أسئلة منفردة بأجوبة منفردة »^(٣) .

ثم أتانا (لويس) بتوضيح قال فيه : « من المؤكد أن الاعتقاد بالتجسد المتكرر للإله بحيث يتمثل بصورة بشرية وفق الاحتياج يبدو بصورة جلية فى الديانة الهندوسية ، بيد أنها تمثل فكرة تجسيد مختلفة تماماً عما نجده فى المسيحية ، وذلك لأن فكرة المسيحية عن التجسد تملئ بأن الرب يصبح رجلاً حقيقياً »^(٤) ، ويعرض صورة أخرى فيقول : « إن الأفكار المسيحية المتميزة تبدو الآن غريبة جداً على الناس فى العالم الغربى رغم سيادتها فى الماضى ، ذلك أن التجسيد وفكرة تكفير المسيح بآلامه عن خطايا البشر والفداء ، والطعام المقدس ، والتخلص من الخطيئة ، ناهيك عن غسل الإنسان فى دم الحمل ، فكلها كلمات لا تكاد تحمل أى معنى ليصل إلى عقول الأجيال الشابة اليوم ... لذلك فعلى المسيحي أن يبحث عن الفهم العميق لما ينادى به اليوم »^(٥) .

والآن ؛ وبعد أن استعرضنا المفهوم اليهودى المعاصر عن وجود الله ،

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Hyde)

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفى المرجع انظر ص ١٩٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ١٣٠ .

(٤)(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lewis) وفى المرجع انظر ص ١٨٤ - ١٩٤ .

وذلك من خلال العهد القديم وحده ، وتم كذلك سرد المفهوم المسيحي من خلال ما فى كتبهم ، فإن من الإنصاف بلا شك أن ننظر إلى أقوال المستشرقين غير المسلمين ، حول التصور الإسلامى عن الله تعالى فى ضوء آيات القرآن الكريم ، وينبغى التشديد أولاً على أن من المعتقدات الإسلامية الأساسية أن نسلّم أن موسى وعيسى قد جاءهما الوحي الإلهى أمراً لهما بأن يشرأ بالوحدانية ، وهو ما فعله كل منهما بقمة الحماس والتفانى ، إلى آخر لحظة كتب أن يكون موجوداً فيها على الأرض .

﴿ واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليهم شهيذا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم * قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم * لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير ﴾

[المائدة آية ١١٦ - ١٢٠]

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين * قال يا موسى إنى اصطفىك على الناس برسالتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من

الشاكرين * وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين * سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴿

[الأعراف آية ١٤٢ - ١٤٧]

لقد أعلن (فون جرونوبوم) (Von Grunebaum) أن : « الإسلام لم يأت لإيجاد طقوس أو أسرار غامضة ، ولم يساعد على ذلك ، ولكنه بقى ذلك الدين الذى جوهره أن يرى الإنسان المذنب طريقه إلى الجنة بصورة عقلية ومنطقية ، بل وتقنية أيضاً ، فالإنسان هو الإنسان سواء عاقبته أو أثبته ، والرب لم يكن لينزل إلى الأرض ليرفع الإنسان بدلاً منه ، وهو ما يجعلنا فى الواقع نوقن بأنه - حتى يومنا هذا - لم يستطع مفهوم معاناة الرب فى مقابل مفاهيم الخطيئة الأولى والخلاص من الإثم أن يضارع ما جاء به الإسلام ، لما فى هذه المفاهيم من غموض ، وإبهام لا يسبر غورها » (١) .

والإسلام - كما جاء على لسان كثير من الكتاب - يعتبر الإنسان بالطبيعة باقياً كإنسان سواء فعل الخير أو الشر ، بيد أنه يمكنه أن يصبح أكثر شفافية وروحانية بإيمانه بربه ، وبأدائه للعمل الصالح ، وبمساعدة من الرؤوف الرحيم - فيصبح لديه عقل صاف ، وقلب نقى ، ومشاعر شفافة واضحة ، على العكس تماماً من حالته عندما يفقد الدين ، فتراه عندما يصير على اقتراف الشرور والآثام دون توبة أو ندم قد صار أكثر مادية وتعلقاً بالحياة الدنيا الأرضية ، وتزداد المسافة اتساعاً بينه وبين الطريق القويم .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Von Grunebaum) ص ١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A. Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

وكما ذكرنا قبل ذلك : إن الله تعالى له الأسماء الحسنى ، وأنه عظيم المكانة والقدرة ، ولا حاجة به أن ينزل إلى الأرض ، ليتجلى للخلق فى صورة مادية ، وذلك ليميز الإنسان ويرفعه فوق آثامه ، فالله هو الذى خلق الإنسان كما جاء فى (سفر التكوين) ، بل وخلق الكون بأكمله ، ثم صانها وحفظها ، ولم يعيه الخلق أو الحفظ ، فلم يحتج معهما إلى راحة ، وهو القادر أيضاً على أن يحيى الخلائق كلها بعد موتها .

﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير ﴾

[الأحقاف آية ٣٣]

فلا يمكن للإنسان أن يتصور مدى علمه تعالى وقدرته ورحمته فى حدود مفاهيمه عن الزمان والمكان ، ذلك أنه يمكنه أن يصل إلى أى إنسان رجلاً كان أو امرأة ، دون حاجة منه إلى أن يتصوره هابطاً عليه ، متشخصاً بأية صورة .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾

[ق آية ١٦]

﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم * هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير * له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور * يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى

يبين لنا إذن لدى النظر فى هذه الآيات مقدار الخطأ الذى سقط فيه (جيردнер) (Gairdner) عندما صرخ وقال : « كيف يستطيع الله البعيد عن الإنسان والمختلف عنه أن يصل إليه ؟ وما هى أداة الربط التى يشكلها ؟ »^(١) ، مغفلاً تلك الحقيقة القائلة أن الله يستطيع الوصول إلى أى إنسان بسهولة واقتدار مع أنه مختلف عنه تماماً ، ذلك لأنه هو الذى خلقه وحفظه ، ويحفظه دائماً فى كل حالة ، ومن لحظة لأخرى .

ومن بين المخطئين من المستشرقين (بيثمان) (Bethman) و(درايكوت) (Draycott) و(أندرسون) (Anderson) و(ستوبارت) (Stobart) أولئك الذين وصفوا الله تعالى عندما حاولوا ذلك - بأنه «مبعد بالكلية عن مخلوقاته» ، ويقف (تريتون) (Tritton) ، ويا لها من مفاجأة ؛ ليعلن - وقد كان أستاذاً للغة العربية بإحدى جامعات بريطانيا - أن «الإله بعيد جداً بالنسبة لمسلمين كثيرين»^(٢) ، واستشهد على ذلك بآيات من القرآن لم يفهما .

ولا ريب أن نظرية العدالة المطلقة المتمثلة فى قضاء الله ورحمته الواسعة وفى كرمه تعد من بديهيات الإسلام ، فكل فرد - سواء فى ذلك الرجل والمرأة - مسئول مسئولية مباشرة أمام الله عن عمله هو ، فلو كان عمله خيراً يثاب ويضاعف له فى الدنيا والآخرة ، أما لو اقترف سيئة فإنه لا يزال لديه الفرصة للندم وطلب المغفرة ، على العكس مما لو كانت السيئة نوعاً من الإصرار والخوض فى تحدى الله ، إنه حينئذ ينبغى أن يتوقع العقاب ، وهو ما نراه مسطوراً فى آيات كثيرة من القرآن الكريم :

﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وفى المرجع انظر ص ١٥٠ - ١٥٥ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Tritton) ص ٦٣ .

﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى ﴾

[النجم آية ٣٨ - ٤٢]

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾

[الأنعام آية ١٦٠]

وعلى ذلك ، فعندما ارتكب آدم وحواء خطيئتهما وأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الاقتراب منها ، كانت خطيئتهما وحدهما فقط هي التي ندما عليها ، ولكن الله الرحيم الكريم غفر لهما ذنبيهما ، وأقر بعدله أن خطيئة آدم لن تكون في أصل نشأته ، ومن ثم لن تكون الخطيئة الأولى الأصلية التي ينبغي على كل إنسان أن يبحث عن وسيلة للخلاص منها ، ذلك أن نوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وسائر الأنبياء والرسل عليهم جميعاً السلام - مغمورون بالسعادة الأبدية ، وبحب الله تعالى ورحمته ونعمته ، لما أتوا من الأعمال الصالحة ، ولإيمانهم العظيم بربهم ، حتى إننا نقول : إن كلا منهم قد أوشك أن يضمن الخلاص والنجاة . وعليه فلا يمكن أن يحمل تبعة خطيئة آدم إلا آدم نفسه .

فمفاهيم أهل الكتاب الصعبة والعجيبة حول معاناة الرب وتضحيته بنفسه وتوبيخه لها وندمه ، كلها بعيدة كل البعد عن الإسلام ، وليس ذلك بسبب أنها مبهمه وغريبة ومخالفة لطريقة الإسلام في التفكير ، وإنما لأنها تعتبر تجديفاً .. إذ نتساءل : لماذا يعانى الله ؟ وما الأسباب الخارجة عن سطوته وتحكمه لتجعله يعانى ويضحى بنفسه ؟ إن الله تعالى بكرمه السابغ ورحمته الشاملة يغفر بصورة بديهية لأولئك الذين عصوه ثم تابوا من بعد ما عصوا ، واستغفروا لذنبيهم ، أفلا يعد هذا دليلاً - من وجهة النظر الإسلامية - على بطلان القول بأن الله يجب أن يضحى بنفسه فى سبيل أن يحرر جنس الإنسان من آثامه ، ليحملها بدلاً عنه ؟

يقول الله سبحانه : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر
الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ [النساء آية ١١٠]

إن الإنسان عندما يندم ويؤنب نفسه ويوبخها لدى اقراره لذنوبه ،
لا بد وأن يكون قد اترفه إما بدون قصد أو بدون علم كاف ، أو بدون
ضبط النفس أو بدون حكم صائب على الظروف والملابسات .. وعليه
فعندما يقوم هذا الشخص ذو المعرفة المحدودة أو المندفع بعمل ما فإنه -
رجلاً كان أو امرأة - يكتشف أنه كان من الممكن أن يؤديه بصورة
أحسن ، أو كان ينبغي ألا يقوم به على الإطلاق ، ولكن المسلمين لا
يطبقون نظرية (اللاعصمة) الإنسانية هذه على الله تعالى ، وهو الذي
يملك الحكمة والقدرة ، وله كل الصفات الحسنى اللامحدودة .

لقد زعم (بيثمان) (Bethman) وآخرون أن الرب من المنظور
الإسلامي هو إله غير معروف !! فهو يستبد استبداداً شديداً ، إنه جبار غير
مسئول لا حكم لأحد عليه ولا يمكن لأحد أن يغلبه ، ويكمن دائماً
وراء كل سبب للتعنيف بالأرض وليس وراء الرحمة والشفقة بها^(١) ،
ولكننا لدى قراءتنا المتعمقة للقرآن الكريم ، ولدى تأملنا فيه بذهن متفتح ،
نرى بوضوح مدى كذب هذه المزاعم .

فالحق تعالى قد أمرنا أن نتفكر في كل شيء تقع عليه أعيننا ، وفي
أنفسنا أيضاً :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك
التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء
فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح
والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾

[البقرة آية ١٦٤]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Stobart) ، وتحت (Anderson) ، وتحت
(Gairdner) ، وكذلك تحت (Draycott) .

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا
دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون ﴾ [البقرة آية ١٨٦]

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين
كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك
أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [البقرة آية ٢٥٧]

وتوضح الآيات السابقة بدون شك ، كآيات كثيرة فى القرآن ،
مدى رعاية الله تعالى واهتمامه بالكون وبالإنسان ، ورحمته اللامتناهية
به ، وعلمه اللامحدود ، وعطفه الشامل عليه .

وسوف تبرز الآيات الآتية أدلة أخرى على رعاية الله وكرمه تجاه كل
مؤمن .

فعلى لسان إبراهيم عليه السلام جاء : ﴿ الذى خلقنى فهو
يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقنى * وإذا مرضت فهو يشفين *
والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم
الدين ﴾ [الشعراء آية ٧٨ - ٨٢]

وجاء كذلك : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾
[النحل آية ٩٧]

فالمسلم إذن لا يقبل أن يتصور صفات الاستبداد ، والطغيان ،
والشهوانية متمثلة فى ربه ، فهذا ليس إلا كفراً .

والإنسان عندما تأتبه أنعم الله وأفضاله فلا يعنى هذا بالضرورة أن
تكون جزاء له على عمل صالح قام به ، وإنما قد تكون نوعاً من
الاختبار والابتلاء ، هذا بالإضافة إلى أن العسر والشدة ربما يكونان عقاباً
إلهياً ، أو لتذكيره بأساليبه الفاسدة فى حياته . وقد نجد مؤمناً جعله البلاء

أكثر نقاءاً وإخلاصاً في دينه ، وهو ما نراه في أمثلة عديدة من قصص
أنبياء بني إسرائيل (انظر سفر التكوين) .

وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم
بالشر واخبر فتنة وإلينا ترجعون ﴾ [الأنبياء آية ٣٥]

ومع ذلك فالإنسان يمكنه أن يتخلص من البلاء بالصلاة الضارعة ،
حيث إن الله يتقبل الصلوات والتوسلات ، أما أولئك الذين ينقلبون
متكبرين فلسوف يحرمون حتماً من بعض رحمة الله وكرمه ، إن عاجلاً
أو آجلاً ، ومع ذلك فرحمة الله وسعت كل شيء :

﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال
عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين
يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ [الأعراف آية ١٥٦]

﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن
رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ (الأعراف آية : ٥٦)

فيجب على الإنسان إذن أن يعلم أنه بمعرفته وقوته وإدراكه الحسى
محدود وقاصر من نواح كثيرة ، فهو لا يزال يكتشف مجاهيل في
المحيطات الموجودة على كوكب وجد هو عليه منذ ملايين الأجيال ،
كما أنه لا يستطيع أن يزعم إحاطته العلمية الكاملة بأية ظاهرة طبيعية
لأن حواسه ما زالت محدودة ومحصورة داخل قيد غامض ... ولكن على
الرغم من وجود هذا القيد نجد بعضهم يلصق صفة التشخيص بالله تعالى ،
وينكر عليه صفاته بأنه عز وجل يحكم الكون الذي خلقه ويحفظه
بالصورة التي يريد .

ثم يأتي أناس ينكرون وجود الله وينسبون لأنفسهم السيادة على
الكون الذي يعدونه مجرد ظاهرة صدفية عشوائية ، ونسأل : كيف يتجرأ
الإنسان بمنظوره وهو يرى عجائب الخلق أن يحكم على أعمال الله ،
ويزعم أنه تعالى مستبد وطاغية وشهوانى ؟

إن القرآن يعلمنا أن الإنسان قد يتصور شيئاً الآن على أنه خير ، ولكنه ما يلبث أن يراه شراً ، والعكس كذلك ، وعليه فمن المؤكد أنه من غير المعقول أن نرى الإنسان ، وهو المحدود الإدراك ، يطالب الله تعالى ، وهو اللانهائي ، بأن يجعله - أى الإنسان - السيد والحكم ، زاعماً أن الله نزوى الطباع - وليس هذا إلا كفراً وجحوداً كما يرى المسلمون .

حب الله :

زعم بعض المستشرقين أن المفهوم القرآنى عن الإله ينقصه الحب والتقديس^(١) ، ويظهر بطلان هذه المزاعم وسطحياتها فى ضوء الآيات القرآنية الكثيرة التى ترينا مدى اللطف والحب والرحمة والكرم والرعاية التى يفيضها الله تعالى على عباده المؤمنين ، فنجد فى آية كالاتية حجم الجود الإلهى عندما يضاعف ثوابه للمؤمنين من أجل أعمالهم الصالحة:

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾
[الأنعام آية ١٦٠]

ونرى فى آية أخرى كيف يغفر الله تعالى ذنوب التائبين المتضرعين المتطلعين إلى عفوه :

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴾
[الزمراء آية ٥٣ - ٥٦]

﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾
[النساء آية ١١٠]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bethman) ، وكذلك تحت (Zaehner) .

وكذلك الذى يفعل الخير فإنه يجده مضاعفاً عند الله : ﴿ ... وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ [المزمل آية ٢٠]

فالله - الرحيم الكريم اللطيف - الذى يحب الإنسان ، كان كريماً معه عندما سخر الطبيعة وكل شىء فى السماء والأرض لخدمته .

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ [إبراهيم آية ٣٢ - ٣٤]

فالقُرآن يرينا أن حب الله للإنسان بلا حدود ، وهو يرشدنا إلى أن نحب الله ، ويضع أيدينا على الطريق ويرينا كيف نصل إلى أن يغفرنا حبه : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ [آل عمران آية ٣١]

﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ [البقرة آية ١٩٥]

﴿ ... إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ [البقرة آية ٢٢٢]

﴿ بلى من أوفى بعهدده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾

[آل عمران آية ٧٦]

﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾

[المائدة آية ٤٢]

ثم تأتى الصورة المقابلة وهى أن الله لا يحب الكافرين الظالمين المتبجحين الذين يؤذون الخلق ويفسدون فى الأرض :

﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾

[آل عمران آية ٣٢]

﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا

[آل عمران آية ٥٧]

يحب الظالمين ﴾

﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم

[النساء آية ٥]

فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا

وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا

[القصص آية ٧٧]

يحب المفسدين ﴾

إن حب الله يملأ قلب المسلم ويجعله ينأى بنفسه بعيداً عن أى

عمل مشين ، بل يجعله يبذل قصارى جهده فى سبيل الخير ، حتى إن

المسلم الورع يحاول بقدر الإمكان أن يكون مطيعاً لشرع الله على أحسن

ما تكون الطاعة ، واضعاً فى اعتباره أن القوة الدافعة له هى حب الله ،

حيث إنه يلمس النعم الهائلة التى يمتعها الله بها فيشعر بحب قاهر ،

ويدين كبير يطوق عنقه ، ولو حدث ولم يطع ربه فى أمر من الأوامر فإن

حبه له يدفعه ليسارع إلى التوبة وعمل الصالحات ليعود عبداً صالحاً كما

ينبغى له أن يكون .

ويعرف المسلمون من قصص القرآن أمثلة للعباد المخلصين الذين

اصطفاهم الله وهم : إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ويعقوب وموسى وعيسى

ومحمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام ، بيد أنه وفى نفس الوقت

الذى اختلط فيه تاريخ الأنبياء الآخرين بسحب كثيفة من الأساطير ، نجد

أن سنة محمد ﷺ ظلت ناصعة نقية بكل تفاصيلها ودقائقها ، ومن ثم

جعل المسلم الورع يبذل غاية جهده لمحاكاة النبى فى فعله وهو يعلم فى

قرارة نفسه أن هذا ليس بالأمر الهين .

إذن ؛ فحب المسلم لربه ، واقتناعه بحب الله له هو أمر منطقي ، لا يورطه في عقيدة مبهمه ، إذ إنه لا يزال عبداً لربه ، ولا يتخيل نفسه على الإطلاق أن يصبح ابناً له ، كما أنه موقن بأنه لو تاب عن ذنوبه توبة نصوحاً فإن الله يمنحه نعمة المغفرة ، رحمة ورأفة ، دون أن يسأل : هل تم التخليص من الخطيئة أم لا ؟ فذلك سيكون في المحاسبة الفردية يوم القيامة .

ولقد افتتن كثير من أئمة الصوفية بعشق الله ومنهم : الغزالي وذو النون المصري وجلال الدين الرومي ، ورابعة العدوية ؛ تلك المرأة المتصوفة التي اشتهرت في القرن التاسع الميلادي ، ولقد قرر الغزالي - الذي كتب العديد من الكتابات الجميلة المتعلقة بموضوع العشق الإلهي - أن : « الصورة المعقولة والمقبولة التي يخاطب بها الناس هي أن الله وحده هو الجدير بالحب الحقيقي » ، ورابعة تقول : « لقد امتلكني حب الله إلى درجة أنه لم يعد في قلبي مكان لأحب أو أكره أى شيء دونه ... والآن وفي جوف الليل عندما يغلق كل ملك بابه ، وينفرد كل عاشق بمعشوقه ، تبقى أنت يا رب لا تغلق بابك في وجه أحد مرحباً دائماً بالضارعين إليك » .

* * *

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Williams) وفي المرجع انشر ص ١٨٨ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) وفي المرجع انظر ص ١٣٣ .

الفصل العاشر

الإسلام وفق تعريف القرآن

إن الذين يؤمنون بالإسلام وبمفاهيمه التي تجمع كل معاني الطاعة والخضوع للإرادة الإلهية ليسوا فقط محمداً ﷺ وصحابته ، أولئك الذين تلقوا عنه الرسالة ، بل إنهم كل إنسان نفذ كل ما هو داخل هذا الإطار في أى فترة من فترات التاريخ ، ويبين لنا ذلك من الأمثلة البارزة كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الرسل عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، ومن الأمم التي اتبعت وصاياهم وتعاليمهم ، وقد أكد القرآن أن كل رسول أرسل من عند الله جاء مبشراً بالوحدانية : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء آية ٢٥]

وكنتيجة طبيعية لهذا ؛ يؤمن المسلمون بالله وبكل رسالاته التي أرسل بها الأنبياء من قبل محمد ﷺ : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة آية ١٣٦]

ومن ثم فقد كان حواريو عيسى عليه السلام مسلمين أيضاً نظراً لأنهم أسلموا وأذعنوا لله : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ [المائدة آية ١١١]

فالإسلام إذن - وهو الدين الذى شكّل تاريخ الإنسانية - ليس جبرية^(١) تشاؤمية ، بل إنه يبدو ديناً يجعل مقاومة الشيطان فى مقابل طاعة الله الحق ، وهو فى نفس الوقت عقيدة تحول الأسرار إلى علانية ، « فسر

(١) الجبرية : مذهب يرى أن كل ما يحدث للإنسان قد قدر عليه أولاً ، فهو مسير لا مخير ، وتطلق على معتقئ هذا المذهب . (المترجم) .

كل المخلوقات مستعلن، وليس في هذه الدنيا ولا في الآخرة غير الله»^(١)، ويقول (الأسقف كراج) (Bishop Cragg) متسائلاً : « ما الذى يصلح للتعامل مع ذكاء الإنسان أفضل من هذا ؟ إن الإسلام قد أزال كل ما يؤثر في العلاقة بين العبد وربّه ، وما على الإنسان إلا أن يطيع ربّه ويعمل عملاً صالحاً في إطار أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فلا أوثان ، ولا كهّان ولا وسطاء »^(٢) .

عالمية الإسلام :

يعد الإسلام - منذ كان - ديناً للعالم كله ، بغض النظر عن أن القرآن قد نزل بالعربية ، وأن السنة بطبيعة الحال باللغة العربية ، و(جب) (Gibb) يقرر : « أن الإسلام لم ينسب نفسه إلى العرب مطلقاً ، بل إن العرب في وقت من الأوقات هم الذين نسبوا أنفسهم إليه »^(٣) .

ولكن (بل) و(منزس) و(ليفى) زعموا أن الإسلام منذ بدايته لم يكن يعد ديناً عالمياً^(٤) ، وتصوروه ديناً محلياً تمت حياكته لمكة^(٥) ، ولمكة فقط ، بيد أن العكس هو الصحيح ، وهو ما نراه حتى في الآيات الأولى للوحي فنرى : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [التكوير آية ٢٧]

وكذلك : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [الفاتحة آية ٢]

ولقد ناقشنا هذه النقطة في الفصل الثالث ولا داعى للتكرار ، ولكننا ينبغي أن نضيف هنا أن الرسول ﷺ إكمالاً لدعوته وتبليغه وجه السفراء إلى الملوك والحكام من حول الجزيرة العربية ، فضلاً عن كسرى الفرس وعظيم الروم ، وقد كانا أعظم ملكين لدولتين وجدتا في ذلك

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lammens) وفي المرجع انظر ص ١١٥ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Cragg) كتاب (الإسلام المعاصر) ص ٩٢ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٦٩ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ، وتحت

(Menezes) ، وكذلك تحت (Levy) وفي المرجع انشر ص ٢ .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) ص ٧٢ .

الوقت ، وذلك لدعوتهم جميعاً للدخول للإسلام^(٦) .

فالمفهوم الإسلامى لا يرى الله تعالى إلهاً لأمة أو قبيلة بذاتها -
عربية كانت أم عبرانية ، وذلك لأنه ليس إلهاً للمؤمنين فحسب ، وإنما
هو رب الكون بأسره ، فهو إله العالمين ، ما نعرفه وما لا نعرفه ، ولا شك
فى أن هذا المفهوم لا يمكن أن يكون أكثر شمولية .

﴿ أولئك الذى هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً
إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾
[الأنعام آية ٩٠]

﴿ ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾
[العنكبوت آية ١ - ٢]

وعليه فالإسلام لا يشمل فقط الرجال والنساء من كل جنس ولون
ولسان وإنما يتجاوز هؤلاء إلى كل بقعة ومخلوق فى السموات والأرض :
﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً
وكرهاً وإليه ترجعون ﴾
[آل عمران آية ٨٣]
العقيدة الإسلامية :

تسمو العقيدة فى الإسلام عن كونها عملية إذعان وتسليم آلية ،
وذلك لأن قلب المؤمن ينبغى أن يقتنع بوحداية الله وصفاته وكتبه ورسله
وملائكته وحسابه فى الآخرة ، وأن تخترق عقيدته هذه مشاعره فيتحول
عمله صالحاً بناء ، ويستحيل كلامه خيراً وموضوعياً ، ويرجو رضوان الله
تعالى ومغفرته ورحبه .

ويجد المسلم الحق سعادته فى أداء الشعائر بكل الطاعة والحب لله ،
وفى أن يكون نور حياته مستقى من توجيهات الله عز وجل له فى القرآن ،
ولعل المثال الرائع على الإيمان هو إيمان النبى محمد ﷺ الذى هو
بالفعل أحق أن يتبع ، وأن يهتدى به .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٣٨ - ٦٠ .

فالمسلمون يعتقدون أن البشر هم أبناء آدم عليه السلام الذى خلقه الله تعالى من تراب ، وأنهم ليسوا مخلوقات عشوائية - كما حدد مبدأ التطور لداروين - منحدره من سمكة أو قرد ، كما أنهم مقتنعون بأن الله قادر بصورة مطلقة على خلق كل جنس فى الوجود بصورته الحالية المتقنة دون حاجة إلى إجراء تجربة سابقة عليه أو تطوير طبقاً لنظرية التطور^(١) .

فسبحان الله العليم القدير الحكيم الخبير الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً ، وخلق كل إنسان له شخصيته المتميزة وله قدراته الطبيعية، بل حتى وله بصمات أصابعه الخاصة به وحده . فلن نجد أبداً اثنين من الناس متطابقين تماماً فى خواصهما وخلقتهما مما يؤكد بطريقة علمية ومنطقية واضحة أن خلق الإنسان ليس ظاهرة عشوائية كما يزعم الملاحدة ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ [آل عمران آية ٥٩]

فخلق الله تعالى له معنى ومغزى ، ولم يأت به الله عبثاً أو مصادفة أو بدون هدف أو بصورة عشوائية ، وإنما لابد وأن يحيط علمه الشامل بكل حادثة وبكل شىء يحدث : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ [الكهف آية ٢٩]

﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو ألمات وأحيا * وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن عليه النشأة الأخرى * وأنه

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bronowski)

هو أغنى وأقنى * وأنه هو رب الشعري * وأنه أهلك عاداً الأولى *
 وثمرود فما أبقى * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى *
 والمؤتفكة أهوى * فغشاهما ما غشى * فبأى آلاء ربك تتماهى * هذا
 نذير من النذر الأولى * أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة *
 أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون
 * فاسجدوا لله واعبدوا ﴿ [النجم آية ٣٨-٦٢]

ومن بين حاجات الإنسان الطبيعية ونشاطاته المادية يكمن الجانب
 المكمل للدين وهو الهدف الأسمى من هذه الحياة ، فعن ابن عباس
 رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الإيمان هو ما وقر فى
 القلب وصدقه العمل »^(١) ، وهو ما يمكن أن نستخرجه من آيات قرآنية
 عديدة تتحدث عن العقيدة وتربطها دائماً بالعمل الصالح : ﴿ إن الذين
 آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ [البينة آية ٧]

الشعائر الإسلامية :

يرتكز الإسلام على خمس عمد ، أولها وأهمها إعلان اعتناق
 الدين بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أما بقية العمد
 فهي بالترتيب : أداء الصلاة وإيتاء الزكاة لمستحقيها وصوم شهر رمضان
 والحج إلى البيت الحرام بمكة مرة واحدة فى العمر عند الاستطاعة .

وتعمل هذه الشعائر على تحريك المشاعر النبيلة فى قلب المسلم ،
 وتجعل ذكره لربه أشبه بمنبه يطغى على حسه الأخلاقى ، وتزيد من
 شفافية روحه التى تصله بالله ، وتربطه برابطة قوية مع المسلمين جميعاً
 سواء أولئك الموجودين فى مجتمعه المحدود ، أو فى العالم ككل ... وفى
 دفة هذه الأخوة الروحية تذوب حواجز الجنس واللون واللغة وتتلاشى .

وقد ذكرت هذه الشعائر كثيراً فى القرآن ولكنها لم تجتمع فى

(١) انظر صحيح البخارى الجزء الأول ص ٥٢ .

مكان واحد فيه أبدأ ، أما الصلاة والزكاة فقد ذكرتا في الغالب مقترنتين ، مع أن نظرية تطبيقهما فقط هي التي جاء ذكرها فيه :

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾

[البقرة آية ٤٣]

﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع

[البقرة آية ١٥٣]

الصابرين ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ [المائدة ٦]

أما التفاصيل المسهبة حول طريقة أدائها فنجدها في سنة النبي ﷺ وفق ما جاء عن أصحابه في حالات الصحة والمرض والسفر والإقامة ونقص المياه أو توافرها^(١) .

الدخول في الإسلام :

حين يشهد المرء بحقيقة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكون قد وفى بروح الإسلام أو كما يعتقد المسلمون بأنها روح أى رسالة إلهية أرسلت إلى البشر . ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء آية ٢٥]

ويحذر القرآن دوماً من عاقبة الشرك ويعتبره أعظم الكبائر : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ [النساء آية ٤٨]

(١) انظر فقه السنة للأستاذ الشيخ سيد سابق .

وتناشد بعض الآيات عقل القارئ ومنطقه ، وتسأله أن يتفكر ملياً في مدى ما يقدم عليه من خطأ ونكران للجميل وعدم إنصاف إن هو أقبل على عبادة شيء آخر من دون الله، بغض النظر عن ماهية هذا الشيء إن كان وثناً أو شخصاً أو عائلة أو ملكية ، بل حتى لو كانت عادة .

﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون * وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم * قل غير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴾

[الأنعام آية ١٢ - ١٤]

وهنا نلاحظ وجود دعوة إلى التوحيد بأن الله هو الرب والإله ، وأنه وحده تعالى الجدير بالعبادة ، فهو مصدر الخير دائماً ، لذا ينبغي أن نقصده هو في كل الأمور وأن يكون التقرب إليه هو الهدف والطموح ، لأن حبه هو الراحة الكبرى للقلوب ، ويجب على المسلمين كذلك أن يصلوا وأن يسجدوا له وحده وليس لمخلوق آخر حتى لو كان هذا المخلوق هو البابا الذي يسجد له المطارنة والقسس حديثاً التنصيب (١) .

ثم بشهادة أن محمداً ﷺ هو من رسل الله كما ظهر ذلك في القرآن حيث ذكر أنه رسول الله تعالى في أكثر من مائة موضع ومثالاً عليه : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾

[آل عمران آية ١٤٤]

فالإقرار أن محمد رسول الله هو جزء مكمل للدين : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾

[الأعراف آية ١٥٨]

(١) انظر مجلة (Time) عدد ١٩٧٥/٧/١٤ ص ٣٤ .

الصلاة :

وأهمية الصلاة في الدين معروفة جداً ، فهي تقوى الاعتقاد بوجود الله وعظمته وتنقل هذا الاعتقاد إلى أعماق القلوب ، وأداؤها بخشوع يرقى الروح ويهذبها ، وينمي العقل ويقوى الضمير ويريح النفس وذلك لارتباط العضلات في الصلاة الإسلامية مع النفس والعقل تقديساً وعبادة لله .

والفرد في الإسلام - رجلاً كان أو امرأة - يصلى بالأصالة عن نفسه ، متصلاً مباشرة بالله السميع البصير ، إذ لا وجود للكهانة في الإسلام - فلا حاجة إليها ، كذلك لقد تمت التوصية المؤكدة بأداء الصلاة في جماعة وخاصة صلاة الجمعة ، ويسمح بصلاة الفرد بمفرده في أى مكان بشرط طهارته ، كذلك لا حاجة للمعابد ولا للقرايين .

ولقد أمر الله المؤمنين لا بترديد الصلاة وقراءتها فحسب ، وإنما بإقامتها وأدائها على الوجه الأكمل : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة آية ٢٧٧]

﴿ ... وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ [المزل آية ٢٠]

وقبل أن يشرع المسلم في الصلاة ينبغى عليه أن يتأكد من طهارته ومن وضوئه ، وهو الفرض المشابه للتقليد الإبراهيمي الذي أيده عيسى كما جاء في إنجيل (مرقس) : « لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعثناء لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ » (إنجيل مرقس الإصحاح السابع - ٣)^(١) ، فهو يلفت نظر الإنسان إلى نظافته

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفي المرجع انظر ص ٦٣ - ٨٠ .

الحسية والروحية ، ثم يتوجه المسلم بعد ذلك إلى مكان طاهر ليؤدي صلاته ، قبلته الكعبة بمكة ، وقلبه متوجه إلى الله ، وقد وعى أنه عنصر فى أخوة الإسلام العالمية التى يؤدي كل عضو فيها عبادته لإله واحد ، وفى حالة واحدة ، وفى اتجاه واحد ، بل إنهم فى صلاة الجماعة يشكلون معاً صفوفاً مستقيمة .

ولدى شروع المسلم فى صلاته ، فإنه يبذل غاية وسعه لكى يعزل فكره عن العالم المحيط به ، ويقراً الفاتحة وآيات قرآنية أخرى ، ثم يركع ويسجد لله مسبحاً بحمده ، مستحضراً الجلال الإلهى كلما تلا اسم الجلالة وكرره ، فهو يعلم علم اليقين أن الخالق معه يراقبه ويسمعه ويستجيب لتضرعه ، ويشعر فى نفسه بقمة السعادة لدنوه من الله خلال سجوده ودعائه له تعالى أن يساعده . أما عن مدلول الكعبة فى الإسلام فقد تم تناوله فى الفصل السادس والسابع ولسوف نذكر المزيد عنه فيما بعد .

ومن ثم فالذى يؤدي الصلوات ويفعل ما فى وسعه لكى يؤديها على أحسن ما تكون لا شك سيسعد عندما يكتسب طبيعة ملائكية ترفعه عالياً فوق الإغراءات الدنيوية التى تقوده إلى الانحراف والرديلة :

﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾

[العنكبوت آية ٤٥]

﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ [المؤمنون آية ١-٤]

ولما للصلوات الخمس من أهمية فى الإسلام بما تغرسه من قيمة روحية عالية ، ينبغى أن يؤديها كل رجل وكل امرأة ، وتسهيلاً عليهم - يتم قصر الصلاة وفقاً للظروف فى حالة السفر والمرض ، ولكن لا يمكن

إلغاؤها تماماً لأنها هي الصلة التي تربط بين الإنسان وربه ، وهي ما يجب عليه أن يحافظ عليها .

مزاعم المستشرقين حول الصلاة :

لقد علق كثير من المستشرقين على عدد الصلوات اليومية وقيمتها وطريقة أدائها ، وهو ما يسلتزم المناقشة هنا .

فوجد (أندرسون) (Anderson) قد حطّ من شأن الصلاة الإسلامية عندما علق وقال : « إن الصلة بين الصلاة والأخلاق ضعيفة وذلك لأن الإنسان الذي يفرغ من صلاته ليغش مثلاً متصوراً أنه سيثاب عليها، على حين أنه سيعاقب على غشه »^(١)، ولكن (أندرسون) نسي أن الثواب الذي سيجنه هذا الإنسان سيتناقص حتى يتلاشى ، وذلك نتيجة لصلاته الخالية من الخشوع ، إذ إن المسلم عندما يبدو منه تصرف لا أخلاقي فإنه يعكس به صورة صلاته، فهي وحدها التي تعكس كيف بدا عقله بعيداً عن ذكر الله . وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ أنه قال : « من لم تنهه صلاته عن الفواحش فلا صلاة له »^(٢)

ومن المثير للدهشة محاولة (زويمر) (Zwemer) للربط بين الصلاة وبين مبدأ الأرواحية^(٣) ، فجاء ببعض المشاهد كقوله : « لقد نهى محمد عن الصلاة وإقامتها بالقرب من أماكن سقى الجمال ، وذلك لأن الجمال مخلوقات شيطانية »^(٤) ، ولكن لا أحد من البشر ، وخصوصاً المسلمين منهم، يمكنه أن يعتقد بأن الشياطين تستطيع خلق أى شيء ، فالله وحده هو الخالق ، والتفسير الوحيد المنطقي هو أن أماكن سقى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفي المرجع انظر ص ٨٤ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ج (٦١) ص ٥٠٦٤ .

(٣) الأرواحية : مبدأ يعبر عن حيوية المادة وأن كل ما فى الكون ، بل وللكون نفسه روح ونفس (المترجم) .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Zwemer) كتاب (أثر الوثنية على الإسلام) ص ٤٧ - ٥٠ .

الجمال قد تكون ممتلئة بروثها مما لا يجعلها نظيفة طاهرة بصورة كافية لإقامة الصلاة ، هذا إلى جانب : من ذا الذى يختار مثل تلك البقعة ليؤدى صلاته فيها وأمامه الصحراء الواسعة الجافة ، ولديه الحماية المكفولة داخل المسجد أو المنزل ؟

ويتعد (بيثمان) (Bethman) عن موضوع الصلاة عندما يتصورها : « نوعاً من العبادة التى ينبغى أدائها بطاعة ، إذ هى تجعل المرء يبدو بصورة شكلية صارمة ، وتقتل فى نفسه النزعة الخيرية ، وعليه فلا يمكنها أن تكون أى رابطة روحية بين الإنسان وخالقه ، كما ينبغى أن تفعل ، والسبب فى ذلك استحالة وجود حديث من القلب للقلب بين كائنين مختلفين تماماً »^(١) .

ولكننا فى الفصل التاسع رأينا كيف أن الله الخالق يختلف تماماً عن مخلوقاته وأنه قريب جداً من قلوبهم ، وكيف أنه لطيف رفيق بهم ، وأنه يسمعهم بكرمه ويتقبل صلاتهم .

ومما لا شك فيه أن أى صلاة إن أدت بصورة آلية ودون تركيز ستكون خالية من المشاعر ، وهذا يجعلها مجرد صلاة شكلية ، ولكن عندما أركز أنا فى صلاتى لربى الذى خلق وحفظ العالم بما فيه أنا ، وأحاط كل شىء بعلمه وبرحمته ، وشملنى بعنايته ونعمته ، والذى هو يرانى أينما أكون ويسمع صوتى ويرى دخيلة نفسى ، ويساعدنى ويستجيب لدعائى ، فلا شك فى أن مثل هذه الصلاة ستشحن نفسى وتجعلها ، وتريح روحى وتضيئ الأنوار فى قلبى .

ولقد وجد كل من (ليفى) (Levy) و (وات) (Watt) من خلال دراستهما الإسلامية أن عدد الصلوات اليومية لم يقترن بحجة «مقنعة» لتثبيت اقتصاره على خمس صلوات ، فلم يحدث ذلك حسب

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bethman) وبالمرجع انظر ص ٥٠ - ١٠٠ .

ظنهما في حياة النبي محمد ﷺ ، بل إنه لم يحدث في غضون القرن الأول من بعد وفاته^(١) ، ومع أن القرآن لم يذكر العدد الدقيق للصلوات وكيفية أدائها - وهو ما ذكره المستشرقان السابق ذكرهما - إلا أن الحقيقة هي أن النبي ﷺ هو الذي قام بشرح تفاصيل الصلوات ، بل وجميع النظم والتشريعات القرآنية ، والتي تم تطبيقها في شتى جوانب الحياة للمجتمع المسلم الناشئ منذ لحظة نزول كل آية .

ومن الثابت أنه قد تم فرض الصلوات الخمس في مكة قبل بضع سنوات من الهجرة ، أو - لنكون متحرين للدقة - قبل حوالي ثلاثة عشر عاماً من وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أي إنه ظل يعلم أتباعه طوال هذه المدة كل التفاصيل الدقيقة التي علموها بدورهم للآخرين ، وهو ما تحفل به كتب السيرة النبوية من تشريعات قرآنية تم تفسيرها وشرح أدق تفاصيلها في كتب الفقه ، وذلك للتمكن من الرد على أكبر قدر ممكن من التساؤلات حول العقيدة ، وهو ما دعا أحد المستشرقين إلى القول بأنه: « قد صدرت فتاوى في نقاط كثيرة إلى حد التوغل في نخاعها »^(٢) .

ولعل من أغرب مزاعم المستشرقين التي نشأت في القرون الوسطى^(٣) تلك التي دفع بها (فريارسيمون) (Friar Simon) و(مارك التوليدوى)^(٤) (Mark of Toledo) ، والتي تنص على أن : « صلاة المسلمين جماعة في المساجد تسبح بحمد محمد »^(٥) .

-
- (١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبي والحاكم) ص ١٠٠ ، وكذلك تحت (Levy) وفي المرجع انظر ص ١٥٥ - ١٦٠ .
- (٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفي المرجع انظر ص ١٥٥ - ١٦٠ .
- (٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفي المرجع انظر ص ٢١١ - ٢٣٥ .
- (٤) توليدوى : نسبة إلى توليدو وهي مدينة تقع جنوب غرب مدريد بأسبانيا . (المترجم) .
- (٥) يذهب بعض الغربيين إلى تلقيب المسلمين بالمحمديين قياساً على تسمية النصارى بالمسيحيين وهي نسبة يختارونها لأنفسهم ، ولكن المسلمين يرفضون أن ينسبوا لغير الإسلام . (المترجم) .

ولسوء الحظ ، ما زال بعض الجاهلين ببواطن الأمور يعلقون على هذه الفكرة ، فمضى (منيزس) (Menezes) إلى القول بفكرة مماثلة لها في الخطأ ترى : « أن محمداً قد أنشأ منبراً ، وهو ما يعد ذا قدسية عظيمة عند المحمديين » ، ثم كتب : « ومن فوق المنبر ، توجه محمد صوب الكعبة وأدى الصلاة وخطب أيام الجمع ، وبعد أداء الفريضة كان يتلو أجزاء القرآن .. فلو غسل إنسان يده اليسرى أو استنشق قبل أن يتمضمض فستبطل صلاته .. بغض النظر عن هل فهم المصلى الكلام الذى يقوله فى الصلاة أم لا » (١) .

وهكذا نرى بالطبع كيف يضلل الكتاب الجهال قراءهم لدى سردهم لأمثال هذه العبارات الأخيرة .

ولكن قارن هذه الانتقادات من الجاهلين ، بالإعجاب الذى أبداه أحدهم ويدعى (بينيس) (Pennis) لدى زيارته فعلاً للقدس فى القرون الوسطى حيث عبر عن الواقع الذى شاهده قائلاً : « وبدون أدنى تقليل من شأن القسس فإن المسلمين يصلون باستمرار وبصورة منتظمة .. فى أى مكان وفى أوقات محددة من اليوم يركعون ويسجدون ويعبدون ربهم بخشوع » ، ثم يأتى معاصر له وهو (ريكولدو) (Ricoldo) فيقول : « وماذا أقول عن صلاتهم ؟ إن روعهم لعظيم ، ولقد دهشت عند رؤيتى له وأثبتته فى تجربتى » (٢) ، ثم يسجل (جيردنى) (Gairdner) و (جيوم) (Guillaume) مؤخراً ملاحظتهما لجو الصمت والاستغراق الكامل للمسلمين وانعزالهم الشديد عن كل ما يحيط بهم أثناء عبادتهم » (٣) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٤٨ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ٢١١ - ٢٣٥ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وبالمرجع انظر ص ١٦٢ - ١٨٠ ،

وكذلك انظر تحت (Guillaume) وبالمرجع انظر ص ٦٨ .

الزكاة :

إن كلمة (زكاة) فى القرآن لا تعنى فقط الصدقة والضريبة والشفقة والنفقة التطوعية ، وإنما هى حافز روحى وأخلاقى فى منتهى القوة^(١) ، والمعنى اللغوى لها هو (النقاء) .

أما الطريقة التى يدعو بها القرآن الأغنياء ليؤتوا الزكاة فهى تبدو مهذبة وحازمة فى نفس الوقت ، إذ إنهم مأمورون بأن يعطوا مما أعطاهم الله ، فهم مستخلفون فيما يملكون من ثروة أثناء حياتهم على الأرض ، فإن أعطوا الفقراء نصيبهم فإن الله سيضاعف لهم ويغفر لهم فى الدنيا والآخرة .

ويتمثل أحياناً إيتاء الزكاة فى القرآن بصورة صفقة تتم بين الإنسان ذلك المخلوق المؤقت الوجود ، وبين الله الباقي الكريم الذى يخلق ويملك كل شىء ، وينود هذه الصفقة أن الإنسان عندما يعطى الناس يمن الله عليه بعطائه ونعمه مضاعفة .

﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾
[الحديد آية ١١]

﴿ ... وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾
[المزل آية ٢٠]

﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾
[البقرة آية ٢٤٥]

فالمسلمون مأمورون بأن يعطوا الزكاة ، وقد تأكد ذلك فى آيات قرآنية كثيرة مقروناً بإقامة الصلاة والحفاظة عليها .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾
[البقرة آية ١٧٧]

﴿ الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴾ [الأنفال آية ٣]
﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ [الحج آية ٤١]

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ [البينة آية ٢٥]

فإيتاء الزكاة ينقى الجوهر بالعبادة ويطهر النفس من ران البخل والجشع ، ولأنها تثبت مدى (صدق) الإنسان فى دينه وخضوعه لله فلذلك تسمى أيضاً (صدقة) .

ويتبع المسلمون تعاليم القرآن فيُعنون بالإعطاء من أوسط ، أو من أفضل ما لديهم ، إذ إن إيتاء الأعطيات بصدق يكفر عن بعض خطاياهم :

﴿ لا يؤخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾ [المائدة آية ٨٩]

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذية إلا أن

وهذا على النقيض تماماً مما جاء به العهد القديم من أن الفقير والغريب يعطيان من بقايا الحصاد وفضلاته فقد جاء : « وعندما تحصدون حصيد أرضكم لا تكمل زوايا حقلك في الحصاد ولقاط حصيدك لا تلتقط ، وكرمك لا تعلقه ، ونثار كرمك لا تلتقط ، للمسكين والغريب تتركه ، أنا الرب إلهكم » (سفر اللاويين - إصحاح « ١٩ » رقم ٩ ، ١٠) .

فالتقليد السائد عند المسلمين الورعين هو الإنفاق من خير ما لديهم ، وذلك لكي يتحاشوا ظهور أى نوع من الإحساس بالذل أو الظلم فى نفوس المحتاجين ، ومع أن القرآن قد حدد المصارف المختلفة للزكاة إلا أنه لم يحدد المقادير الصغرى أو الحد الأدنى الأساسى الذى يجب فى كل حالة بعينها : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ [التوبة آية ٦٠]

يبد أن هذا الموضوع قد تم تمحيصه على يد الرسول ﷺ ، ونراه مدوناً فى الآثار الإسلامية ، لكن بعض الكتاب مثل (ليفى) (Levy) عمد لدى قراءته عن تفاصيل الزكاة إلى الزعم بأنه لا يوجد تعليم واحد يبين كيفية حساب النسبة التى يتم دفعها من المال أو مقدارها^(١) .

والحقيقة هى أنه قد تم تطبيق قواعد الزكاة بقمة الإخلاص على عهد المسلمين الأوائل وفى القرون الوسطى ، وهو ما دعا (ريكولدو دى مونتوكروسو) (Ricoldo de Monte Croce) إلى تسجيل إعجابه فى يوميات رحلاته فى الشرق (itinerarium) فقال : « وعن موضوع الرحمة والشفقة بالمساكين ينبغى القول بأن المسلمين من أكثر الناس كرمًا بأدائهم الزكاة »^(٢) ، ثم أشار (سيل) (Sale) بعد ذلك بسبعة

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ١٥٥ - ١٦٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ٢١١ - ٢٣٥ .

قرون إلى نفس الموضوع قائلًا : « لقد اعتبرت الأجيال الأولى من المسلمين أداء الزكوات نوعاً من المكافأة المجزية والتقدير وهو ما اشتهر به كثير منهم فنرى الحسن حفيد النبي^(١) قد تنازل عن ماله مرتين وتقاسمه بينه وبين الفقراء ثلاثاً ، بل لقد تعود العامة فعل الخير حتى مع البهائم^(٢) .

الصوم :

يعتقد المسلمون أن الصوم فريضة في كل دين سماوى ، ويعتبرها الفلاسفة نوعاً من التأديب والمعاقبة ، ويعنى الصوم الإسلامى الإمساك عن الطعام والشراب والتدخين والاتصال الجنسى والإحجام عن الفواحش من قول أو فكر ما بين الفجر والغروب . ويرز هدف الصوم فى الإسلام بوضوح فى القرآن :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾
[البقرة آية ١٨٣]

فتعلمنا الآية أن الإنسان يحب أن يحتفى بالصوم لا من أجل صحته ولا من أجل إظهار علامة من علامات الحداد ، وإنما من أجل الحب العميق والعبادة لله وحده وطلباً وأملاً فى مرضاته تعالى .

فالصوم يهذب الضمير لأن المسلم يحفظ صومه سراً بقدر ما يستطيع بين الناس - إذ لا توجد سلطة دنيوية تستطيع أن تتأكد من أنه قد أفطر أم لا ، كما أنه يعلم الإنسان الصبر والإيثار ، ويقوى شعوره

(١) ذكر صاحب (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) ج ١ ص ٥٦ أن الحسن بن على رضى الله عنهما قد روى عنه أنه حج خمسا وعشرين حجة ماشياً والجنائب بين يديه وخرج عن ماله ثلاث مرات وشاطره مرتين وأعطى إنساناً يسأله خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار وأعطى حمّال ذلك طيلسانه وقال يكون كراؤه عندى .. وتتضح هنا الاختلاف فى تحديد العدد عما جاء به سيل (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٦٣ - ٨٠ .

بالانتماء إلى مجتمع الأخوة الإسلامية ، وبعد تدريباً فعالاً على الهدوء وقوة الإرادة ، كذلك يساعد الصوم النفس الإنسانية لتصبح أكثر شفافية ، ويساعد العقل على الصفاء ، والجسم ليكون أكثر صحة ورشاقة تسهل له حركته ، وعليه فالصوم هو الوصفة الإلهية لاطمئنان الإنسان وإحساسه بالكرامة ولزيادة تحكمه في نفسه .

إن الصوم من أكثر الأعمال الإسلامية استحقاقاً للتقدير لأنه يمكن المحافظة عليه كسر بين المؤمن وربه ، إذ لا حاجة لإنسان آخر أن يعرف ، ذلك أن المؤمن يصوم انطلاقاً من حبه لربه وطاعته له . ويذكر الصوم في آيات معينة كفارة للسيئات في حالة نقض اليمين ، وفي بعض مشاكل الزواج وفي بعض حالات الحج .

﴿ وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾
(البقرة آية : ١٩٦)

﴿ لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتهم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾
[المجادلة آية ٨٩]

﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾
(المجادلة آية : ٤)

ثم يطلق (سيل) زعماً متعلقاً بطريقة الصوم فى الإسلام فيقول :
« فيما يبدو لقد اتبع محمد توجيه اليهود فى أوامره بصدد الصوم »^(١) ،
ونرى هنا أنه قد أغفل حقيقة أن أصل الديانتين واحد هو الوحي الإلهى ،
ولكن (بيثمان) (Bethman) يبدى هنا ملاحظة صحيحة ترى : « أن
الصوم الإسلامى يختلف تماماً عن صوم اليهود ، حيث إنه ليس امتناعاً
عن أنواع معينة فقط من الطعام ، وإنما هو إمساك كامل عن كل
أشكال الطعام والشراب بما فيه الماء ، وعن الدخان وعن أى منبه آخر
أثناء اليوم »^(٢) . أما غير القادرين على الصوم فبإمكانهم إطعام الفقراء
والمساكين كفارة عن إفطارهم .

الحج :

الحج فريضة دينية ملزمة لكل مسلم - رجلاً كان أو امرأة - قادر
جسمانياً وعقلياً واقتصادياً على أدائه ، لمرة واحدة فى العمر . « ففى أثناء
الرحلة المقدسة لأداء شعيرة الحج يتجمع الحجاج فى أعظم مؤتمر سنوى
للسلام وجد فى تاريخ البشرية ، حيث يرون من خلاله هيمنة فكرة
السلم: فهناك سلم مع النفس الإنسانية، وسلم الإنسان مع أخيه الإنسان
وسلم مع الحيوان والنبات، بل ومع الحشرات، ومثل هذا السلم الغامر لا
يتأثر بحقيقة أن الأعداد الغفيرة من الحجاج يختلفون فى الأعمار وأنهم
جاءوا من أماكن تتفاوت فيها أساليب الحياة وتشكل فيها خلفياتهم
الثقافية ، فهامهم أولاء الملوك ورجال الدين والإسكافيون ، وهامهم أولاء
الرؤساء والأمراء والعتالون وأساتذة الجامعات والفلاحون والطلاب والتجار،
كلهم من مختلف الأجناس والألوان واللغات ، وكلهم يندمجون معاً فى
أخوة ذات رباط إلهى ، وقد ارتدى كل منهم - الرجال والنساء - لباساً
بسيطاً أبيض يلغى الارستقراطية ، ويضع بدلاً منها المساواة والتواضع

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) ص ٦٣ - ٨٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bethman) وفى المرجع انظر ص ٥٠ - ١١٠ .

والورع ، فلا ملكية ولكنه ولاء من الجميع لله تعالى « (١) .

إن الهدف الذى تنفرد به رحلة الحج هو إرضاء الله ، وذلك بأداء الشعائر بخشوع وبزيارة أول بيت وضع للناس على الأرض لعبادته وحده وهو الكعبة بمكة المكرمة : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ [آل عمران ٩٦-٩٧]

إذن فقد نشأت شعيرة الحج فى زمن إبراهيم عليه السلام ، عندما بنى هو وابنه إسماعيل الكعبة لعبادة الله ، ثم وضع إبراهيم بيديه الحجر الأسود فى أحد أركانها ، وهو الحجر الأصى الوحيد الباقى إلى يومنا هذا ، ويستقر الآن فى نفس المكان بالضبط حيث لم يبق أى جزء من البناء على حاله بفعل الزمن ، وبسبب إعادة البناء والترميمات العديدة التى تولاها الحكام المتعاقبون ، ولا شك فى أن النبى محمداً ﷺ ومن بعده الأمة الإسلامية هم الذين عملوا على التقريب بين إبراهيم وهو النموذج المبكر للتوحيد وبين الحجر الأسود ، وذلك لأن الحاج عندما يقبل الحجر الأسود أو يلمسه فإنه يغمر بإحساس من الرهبة والتسائل عن حقيقة هذه النقطة التى يتعاقب فيها الماضى مع الحاضر فور ذوبان المسافات بينهما فى لحظة واحدة .

ومن شعائر الحج كذلك السعى بين جبلى الصفا والمروة كنوع من التذكر لبحث السيدة هاجر اليأس عن قطرة ماء لطفلها ولنفسها ، ودعائها المحموم حتى استجيب دعائها ، وتفجر ينبوع من الماء على مقربة منها وهو ما عرف بعد ذلك ببئر زمزم المبارك الذى لا يزال ينضح بالماء بغزارة فى جوف الصحراء ، ولم يجف مطلقاً إلى يومنا هذا .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus) ص ٩٥ وكذلك انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (S.M. Khalifa) .

وشعيرة أخرى هي الصلاة والتأمل والتفكير والخضوع والتوسل على سفح جبل عرفات ، هناك .. حيث خطب رسول الله ﷺ خطبة الوداع ، وعلى مقربة من ذلك المكان الذي همّ فيه إبراهيم عليه السلام أن يذبح ولده ، لذلك يوضع موقف عرفات على قمة أعمال الحج .

ولكن أليس مما يؤسف له سوء الفهم الذي انحدر إليه كثير من المستشرقين عندما لاحظوا تقديس المسلمين للكعبة وللحجر الأسود ولشعائر الحج بصفة عامة ، وذلك عندما تصوروه ضرباً من الوثنية؟! (١) أليس مما يؤسف له نبذهم للشعائر ووصفهم إياها بالسخافة والسماجة ، وبأنها من خرافات الوثنيين؟! لقد أتوا بافتراض خاطئ آخر يقول : إن شعائر الحج كانت مما اقتبسه الرسول ﷺ من بقايا عبادة الأوثان قبل الإسلام ، محاولة منه لاستمالة قلوب الوثنيين في مكة إلى الدين (٢) ، بل لقد أضافت قلة من الكتاب في القرون الوسطى أن الكعبة تضم رفات النبي عليه الصلاة والسلام مثله في ذلك كمثل ما يفعل برفات القديسين المسيحيين (٣) .

ونحن نرى ، وببساطة شديدة ، في هذه الدعاوى مدى ضآلة ما عرفه هؤلاء المستشرقون عن الحج ، والخلفيات التاريخية لشعائره ، ونرى كذلك مدى تحاملهم على هذه الفريضة الهامة . ونتساءل أهذا لضآلة فهمهم لموضوع الحج ؟ أم هو لسبب آخر؟ ومهما يكن من أمر فإنه ينبغي فضح أولئك الكتاب الذين يشوهون الحقائق وإدانتهم ، وفي نفس الوقت يجب أن نلتمس العذر للرأى العام في الغرب وما لديه من معلومات خاطئة يحكم بها على الإسلام ، إما عن وسائله الإعلامية ، أو

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) ص ٣٨ - ٦٠ ، وتحت (Bethman) ص ٥٠ - ١٠٠ ، وتحت (Gairdner) ص ١٦٢ - ١٨٠ ، وتحت (Margoliouth) كتاب (المحمدية) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) ، وانظر تحت (Tritton) ص ٢٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفي المرجع انظر ص ٢١١ - ٢٣٥ .

من خلال ما يراه أو يقرأه عن تصرف المجتمعات المسلمة ، أو تصرف أفراد المسلمين أنفسهم ، فقد يحدث أحياناً أن يناقض التصرف ، أو لنقل سوء التصرف لشخص أو مجموعة من الأشخاص تعاليم دينهم إلى أقصى درجة ، وعليه يحكم الناس المولعون بالحكم على الدين من تصرف أتباعه .

التناقض بين الإسلام والمسلمين :

لقد عاش المجتمع المسلم على عهد النبي ﷺ والجيل الذي تلاه مطبقاً لقواعد الإسلام الشاملة المفصلة لكل دقيقة من دقائق الحياة ، ففيها العبادات والأسرة والمجتمع والاقتصاد والسياسة والتعليم والحضارة ونواح أخرى كثيرة تتعلق بالحياة اليومية ، فضلاً عن العلاقات الدولية والمحلية والقبلية .

وتداعى القرون ، وابتساع دولة المسلمين ، وبالنمو الهائل في مصادرها ، وبدخول أم جديدة إلى المجتمع وقد حملوا معهم خلفيات متفاوتة وفلسفات شتى ، ظهرت بعض الاختلافات بين تصرفات المسلمين من ناحية وتعاليم الإسلام من ناحية أخرى ، نتيجة لظهور أفراد ومجموعات وحكام وأم دخلت حقيقة تحت المظلة الإسلامية إلا أن تصرفها كان منافياً تماماً للتشريعات القرآنية ، مما أدى إلى ظهور التشققات التي ما لبثت أن تحولت إلى صدوع أدت إلى إحداث براكين وفورانات هائلة .

ولعل من رحمة الله تعالى بنا أن القرآن لدينا ، وعلى نفس الصورة التي نزل بها منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، ومنذ تنزل على قلب النبي محمد ﷺ ، ففي ضوئه المتأليء أمكننا مقارنة سلوك الأفراد والجماعات المسلمة بالقيم العليا الموجودة فيه ، ولقد تمت هذه المقارنة بلغة العصر ، فرأينا أن الإسلام يفرض سلوك النبلاء وتصرفاتهم من فعل الخير ومن الشفقة والوفاء والإخاء ونقاء السريرة ، ويحرم كل أنواع الفساد من غش وخيانة وغدر ، وتعاطٍ للمسكرات ، ولعب القمار ، ولكن ،

يا حسرتنا !! كم عدد المسلمين فى أيامنا هذه الذين يعيشون وفق ما جاء به الإسلام من تعاليم ؟ وكم عدد البلدان الإسلامية التى تتحجم عن مهاجمة البلدان الأخرى ؟ وكم عدد المسلمين الأميين ؟ وكم عدد أولئك الذين لا يزالون متمسكين بالخرافات والخزعبلات رغم ما تضمنه القرآن من تعاليم جاءت مع استهلال أول آية نزلت فيه بالأمر الإلهى القاهر (اقرأ) ؟

إن رجل الشارع الغربى لا يعرف الإسلام إلا من خلال الصديق المسلم الذى قد يحتك به مباشرة ، أو من خلال ما يقرؤه أو يسمعه عن المسلمين ، وهنا ربما نعدده عندما يتصور نوع الحياة الرديئة الذى أوجده الإسلام ، أو شجع عليه ، أو فرضه ، والذى وصل فى الواقع إلى مرحلة صار فيها مدانا !! فكيف يتسنى للإنسان الغربى العاقل أن يعرف الإسلام حق المعرفة ؟ إن طريقته الميسرة له هى أن يرى ويقرأ عن المسلمين المعاصرين ، والذين تشكل الأغلبية الكبرى منهم صورة شوهاء لحقيقة الإسلام ، فالحاضر عندهم - عند المسلمين - حاضر بائس حزين فقير مريض جاهل ، وأغلب البلدان الإسلامية مختلفة فاسدة قدرة ، وكثير من المسلمين يتشيعون ويتحزبون فى طوائف متخلفة ، منها السنة والشيعة والإسماعيلية والعلوية والأحمدية والقاديانية وطوائف أخرى ، كلها لا تتبع فى حياتها اليومية تعاليم الدين التى جاءت فى القرآن ، بل إن كلاً منها تسمح بعناصر دخيلة أحياناً لإحداث الخلافات والشقاكات .

والآن ؛ أين يذهب المواطن الغربى الراشد ليبحث عن حقيقة الإسلام ؟ الإجابة بسيطة : ليقراً القرآن الكريم من أحسن ترجمة متاحة له ، وفيها سيرى النجم الأسمى الباقى على صورته اللامعة المتألثة رغم تلك السحابات السوداء الكثيفة التى ينفثها أتباعه من حوله !!

الفصل الحادى عشر

موقف القرآن من الأديان الأخرى

يصنف القرآن الناس إلى ثلاثة أصناف، هم : المسلمون ، والموحدون الآخرون ، وهم أهل الكتاب ، ثم بقية البشر ، وأهل الكتاب هم النصارى واليهود الذين يؤمنون بنفس الإله الذى يؤمن به المسلمون ، والذين نزلت إليهم كتب سماوية من عنده ، وقد قرر القرآن الكريم معايير التعامل مع كل صنف من هؤلاء .

وكما ذكرنا قبلاً : يؤمن المسلمون برسالتى موسى وعيسى عليهما السلام ، ويحترمونهما جداً ، وكذا باقى الرسالات لسائر الرسل ، بدرجة أكبر مما أبدته النسخ الحالية من الكتاب المقدس .

تسجيل القرآن للرسل الأولين :

لقد أثار السرد القرآنى لقصص الأنبياء الكتابيين والأنبياء الآخرين انتقادات عديدة ، فقد زعم (وات) (Watt) مستنداً إلى فرضية أن القرآن ما هو إلا وليد لتصور خلاق من الرسول ﷺ فقال : « تبدو الأفكار القرآنية غير صحيحة فى أكثر من نقطة ، ومن ذلك فكرة أن الوحي - أو لنقل نتاج التصور الخلاق - هو أسمى من كل التعاليم البشرية باعتباره مصدراً صحيحاً للحقائق التاريخية »^(١) ، ونعلق نحن متسائلين ؛ أليس بمعروفاً دور المؤرخين على اختلافهم فى تزيين بعض الحقائق التاريخية بالوفير من الأساطير من كل شكل ولون .

ومن جانب آخر ، نرى أن التأريخ الإلهى للوقائع والأحداث هو المعيار الذى تقاس به الحقيقة فى أية عملية تأريخ أخرى ، وهو ما لم

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٢٤٠

يقبله ولم يعه كل من (جفرى) (Jaffery)^(١) و (أندرسون) (Anderson)^(٢) و (سيل) (Sale)^(٣) عندما اتهموا النبي ﷺ بكتابة القرآن من غير دراية منه بالتاريخ الكتابي ، وعليه فلسوف نعرض الموضوع بصورة أوضح عندما نعقد مقارنة بين تسجيل القرآن الكريم لبعض الحقائق التاريخية وتسجيل الكتب الأخرى لنفس الحقائق .

ولقد أعجب الكتاب الموضوعيون من أمثال (بيثمان) (Bethman) بحديث القرآن عن عيسى عليه السلام فقال : لقد صورت المصادر الإسلامية عيسى على أنه كائن عظيم المنزلة ربيعها ، وأنه قد دلف إلى هذا العالم بصورة استثنائية معجزة ، وكان محفوظاً من مس الشيطان ، ووهب قدرات وقوى لم توهب لغيره من البشر ، وحتى عندما جاء أجله سمح له أن يغادر العالم بطريقة أخرى معجزة^(٤) ، ثم أضاف (باريندر) (Parrinder) بعض التفصيل فقال : « يشتمل القرآن على تبجيل عظيم لعيسى الذى دعاه بأسماء : عيسى بن مريم ، والمسيح ، والنبي ، والكلمة ، وعبد الله ، وروح من الله ، وقد جاء ذكر بشارة مريم بمولده مرتين وبطريقة مشابهة لما جاء فى إنجيل (لوقا) حيث يبين خضوع كل شئ لإرادة الله حين يقول كن فيكون^(٥) .

﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ﴾ [النساء آية ١٥٧]

والواقع أن هناك تناقضات كثيرة فى الروايات المسيحية نفسها عن

-
- (١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (سور من القرآن) ص ٢٢٧ .
 - (٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وبالمرجع انظر ص ٥٦ .
 - (٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وبه انظر ص ٣٨ - ٥١ .
 - (٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bethman) وبالمرجع انظر ص ٥٣ .
 - (٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Parrinder) وبالمرجع انظر ص ٢١ .

عيسى عليه السلام ، فمنها ما يدين البعث^(١) على الرغم من أنه هو المبدأ الحاسم عند غيرهم ، فنجد من يقول : « إن المسيحيين ليسوا بحاجة إلى أن يثبتوا أن المسيح قد قام من الموت على الإطلاق ، ذلك أن البعض كان يعتبر البعث له قيمة ترمز إلى التجديد وإعادة الميلاد ولكنه ما لبث أن أصبح معناه تاريخياً موضوعياً وهو ما جعله أشبه ببضاعة توافرت لدى الجميع وأصبحت تكفيهم »^(٢) ، وتتساءل : لو سلمنا بأن كل ما كان مهماً وحقيقياً في الماضي لم يعد بذى قيمة في الوقت الحاضر ، فما الحقيقة الناصعة الثابتة إذن ؟

والحقيقة أن قصة عيسى عليه السلام كما تسجلها الأناجيل الأربعة لا تزال تشكل دعامة راسخة للرأى الإسلامى من أنه كان عبداً مباركاً رفيع المنزلة ، وكان رسولاً لله ، ولكنه لم يكن برغم ذلك إلهاً إطلاقاً ، بل كان معجزة كبرى لله ، مثله كمثل آدم عليه السلام الذى خلقه الله بلا أب ولا أم . ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ [آل عمران آية ٥٣]

فقد جاء عن عيسى فى العهد الجديد : « فقال لهم يسوع متى رفغتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أنى أنا هو ولست أفعل شيئاً من نفسى ، بل أتكلم بهذا كما علمنى أبى » (إنجيل يوحنا - الإصحاح الثامن ٢٨) ، وجاء كذلك : « إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب إله آبائنا مجّد فتاه يسوع الذى أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو حاكم بإطلاقه » (أعمال الرسل - الإصحاح الثالث ١٣) ، وأيضاً : « فأجابه يسوع أن أول كل هذه الوصيات هى اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد » (إنجيل مرقس - الإصحاح الثانى عشر ٢٩) .

(١) البعث مقصود به قيام السيد المسيح وظهوره لمريم المجدلية بعد صلبه كما يزعم المسيحيون. (المترجم) .

(٢) مجلة (Newsweek) عدد ١٩٧٢/٤/٣ ص ٣٩ .

ولقد وضع (مفسّر) (Muffassir) نقطة فاصلة تقول : إن التعبير الكتابي (ابن الله) هو تعبير لا يمكن أن تنبس به شفتا عيسى نفسه ، وذلك لأنه وفق ما قاله (هاستنج) (Hasting) في كتابه (معجم الكتاب المقدس) (Dictionary of the Bible) (١) من أن « كون المسيح نَسَبَ إلى نفسه أنه ابن الله مشكوك فيه » ، بل إننا على العكس ، نقرأ أنه ينسب لنفسه (أنه ابن إنسان) وذلك في إنجيل متى - الإصحاح الثاني عشر (٣٢) وفي إنجيل مرقس - الإصحاح التاسع (٩) وإنجيل لوقا - الإصحاح السابع عشر (٢٤) وإنجيل يوحنا - الإصحاح الخامس (٢٧) (٢) .

ويوضح القرآن هذه النقطة بلا لبس :

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا ، خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد . له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾

[النساء آية ١٧١]

فعيسى بن مريم اعتبر نفسه قد جاء إلى هذا العالم مبعوثاً برسالة إلهية ، تحمل البشرى للمؤمنين والنذير للكافرين ، وجاء هذا مثلاً في

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Hasting) وفي المرجع انظر ص ١٤٣ .
(٢) جاء في إنجيل متى - الإصحاح الثاني عشر - ٣٢ : « ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له أما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتى » .
وجاء في إنجيل مرقس - الإصحاح التاسع - ٩ : « وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم أن لا يحدثوا أحداً بما أبصروا إلا متى قام ابن الإنسان من الأموات » .
وجاء في إنجيل لوقا - الإصحاح السابع عشر - ٢٤ : « لأنه كما أن البرق الذي يبرق من ناحية تحت يضيء إلى ناحية تحت السماء كذلك يكون أيضاً ابن الإنسان في يومه » .
وجاء في إنجيل يوحنا - الإصحاح الخامس - ٢٧ : « وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان » . (المترجم) .

إنجيل لوقا - الإصحاح الثالث ، ثم أتى بعد ذلك حواريوه والتابعون لهم واعتبروه إنساناً ورسولاً للرب .

﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ [آل عمران آية ٥٢ - ٥٣]

إن (دانيال) (Daniel)^(١) يقول : « إن التجديف التلمودي في حق عيسى لهو الطرف المناقض لثناء القرآن عليه » ، ففي نفس الوقت الذي يجيء القديس (لوقا) في إنجيله وينسب عيسى عليه السلام إلى داود عليه السلام باعتباره ابناً ليوسف النجار^(٢) ، والذي لم يتعرض فيه القديس يوحنا ولا القديس بولس إلى نسب عيسى ، جاء القرآن الكريم مؤكداً لميلاده دون أب ، وقاطعاً بعفة مريم العذراء وطهارتها^(٣) ، ثم أشار (لين) (Lane) إلى موضوع الصلب فقال : « لقد أدانت طائفة الباسليين (Basilidians)^(٤) معاناة المسيح نفسه ، وأيدت أن سمعان القانوني^(٥) هو الذي صلب بدله »^(٦) ، وهو ما يدعم بالآيات القرآنية من سورة النساء والتي ذكرناها آنفاً .

-
- (١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفي المرجع انظر ص ١٢٥ - ٢٠٠ .
- (٢) جاء في إنجيل لوقا في الإصحاح الثاني ذكر أن عيسى كان له أب هو يوسف النجار وأمه هي مريم ، فمثلاً جاء في جملة رقم (٤١) من نفس الإصحاح : « وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى اورشليم في عيد الفصح » (المترجم) .
- (٣) انظر كتاب « المسيح رجل أم إله ؟ » للأستاذ م. مرجان - دار النهضة - القاهرة سنة ١٩٧٠ .
- (٤) الباسليون : طائفة من رهبان الكنيسة الشرقية ويتبعون قانون القديس باسيليوس الكبير في الرهبنة ، ويعيشون في وحدات متفرقة مستقلة دون سلطة مركزية ، وأشهر أديرتهم بجبل آثوس باليونان ، وطور سيناء بمصر . (المترجم) .
- (٥) سمعان القانوني : حوارى من حوارى عيسى الاثنى عشر ويسمى الكنعانى أو الغيور (المترجم) .
- (٦) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) وفي المرجع انظر ص ٢٤٨ .

فتسجيل القرآن للأنبياء الذين ورد ذكرهم في العهد القديم هو الذى يعطيهم حقهم وينصفهم ، حيث إن الله تعالى قد اختارهم وأعدهم ورضى عنهم ، فعملوا هم بدورهم على أن يتقوا الله حق تقاته ، وقدموا أمثلة رائعة على السلوك الأخلاقي الممتاز ، وعلى الخضوع لأوامر الله ، يقول القرآن فى حق نوح عليه السلام : ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم الباقين * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على نوح فى العالمين * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ [الصافات آية ٧٥ - ٨١]

وهنا نجد اختلافاً مباشراً مع وجهة النظر الكتابية حين وصفت نوحاً بأنه قد شرب خمراً حتى الثمالة ثم لعن ابنا من أبنائه^(١) .

وكذلك جاء ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فى مواقع متعددة من القرآن مقترناً بكل معانى الشرف والكرم والإخلاص ، ووصفوا بتمسكهم الشديد بالتوحيد ، وبصدقهم وتنفيذهم للتوجيهات الإلهية :

﴿ سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾

[الصافات آية ١٠٩ - ١١٣]

ورغم هذا نجد أن النسخ الحالية للكتاب المقدس تصف إبراهيم عليه السلام بأنه كان يشارر النجوم بحكم العادة^(٢) ، وبأنه هو وإسحاق كانا يتبرآن من زوجتيهما ، ويدعيان أنهما أختاهما ، وهذه مقاطع من الكتاب المقدس تثبت هذا :

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٣٢٤ .

« وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أختي فأرسل أيمالك ملك جرار وأخذ سارة ... » (سفر التكوين - الإصحاح العشرين ١-٢)

« فأقام إسحاق في جرار ، وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هي أختي لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلونى من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر »

(سفر التكوين - الإصحاح السادس والعشرين ٦-٧)

وفي الكتاب المقدس وصف يعقوب عليه السلام بالكذب والمخادعة عندما خدع أباه المسن الأعمى ، وسرق البكورية من أخيه عيسو واستولى على مباركة أبيه^(١) .

ونجد في القرآن الكريم تحية للنبي لوط عليه السلام كرسول مبارك من عند الله الذى أنجاه وأهله إلا امرأته من العقاب الذى حاق بسدوم بعد أن بذل لوط مع قومه - أهل سدوم - جهداً جباراً لإقناعهم بالإقلاع عن عاداتهم القبيحة : ﴿ وإن لوطا لمن المرسلين ﴾ * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا فى الغابرين * ثم دمرنا الآخرين ﴿ [الصافات آية ١٣٣ - ١٣٦]

ولعل صورته هذه وصورة ابنتيه المؤمنتين لا تتفقان بأى حال من الأحوال مع المزاعم الكتابية حول سكره ومضاجعته لهما - سفاح الأب بيناته - دون حتى أى تعليق من لوط نفسه .

« وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن صوغر فسكن فى المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلم نسقى أبانا خمراً ونضطجع معه فنحى من أبينا نسلاً ، فسقتا أباهما

(١) انظر سفر التكوين - الإصحاح السابع والعشرون .

خمرأ فى تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث فى الغد . أن البكر قالت للصغيرة إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى نسقيه خمرأ الليلة أيضاً فادخلى اضطجعى معه فنحى من أبينا نسلا فسقتا أباهما خمرأ فى تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من أبيهما » (سفر التكوين - الإصحاح التاسع عشر ٣٠ - ٣٦) .

وعن داود عليه السلام الذى وصفه القرآن بالطهر والعفة وبأنه العبد الأواب تم اختلاق افتراءات مشابهة^(١) .

وهكذا نرى الاختلافات القاسية بين تصوير الأنبياء الدنى الموجود فى الكتاب المقدس فى وضعه الحالى ، وبين الصورة المثالية التى خلعتها القرآن عليهم ، وهذه الاختلافات تثبت شيئين :

أولهما : أن النبى محمداً ﷺ لم يكتب القرآن أبداً بعدما تلقى العلم على أيد اليهود والنصارى ، كما يزعم مستشرقون عديدون^(٢) وهو ما يعزز كذلك استنتاجاتنا فى الفصل الثانى .

وثانيهما : أن الله هو الذى أنزل القرآن ، واختار الرسل وجعلهم أتقياء ورعين متصفين بالسلوك الشريف ، وهذا القرآن - وهو كلمة الله - يقف بالمرصاد لكل زعم يفترى على رسل الله تعالى .

من ناحية أخرى وكما نعلم ؛ وحسب ما جاء فى القرآن ؛ يباح للمسلمين وأهل الكتاب أن يأكل كل منهم طعام الآخر شريطة أن يكون حلالاً ، كما يباح للرجال المسلمين أن يتزوجوا بنساء من أهل الكتاب .

(١) انظر سفر (صموئيل الثانى) سوخاصة الإصحاح الحادى عشر والثانى عشر .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (سور من القرآن) ص ٢٢٧ ، وكذلك تحت (Lane) ، وتحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ، وكذلك تحت (Bethman) .

﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم
وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين
أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيموهن أجورهن محصنين غير مسافحين
ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى
الآخرة من الخاسرين ﴾ [المائدة آية ٥]

وللمسيحيين وللإهود مطلق الحرية فيما يعبدون فى كنائسهم
الخاصة ومعابدهم ، بل هم مأمورون بأن يطبقوا القوانين التى تلقوها من
الرب سبحانه : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما
لقوم يوقنون ﴾ [المائدة آية ٥٠]

﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة
والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك
من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ [المائدة آية ٦٨]

كذلك يثنى القرآن على المتقين من أهل الكتاب بغض النظر عن
كونهم إما رجال دين أو غيرهم : ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة
قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ [آل عمران آية ١١٣]

موقف الإسلام تجاه المسيحيين والكتاب المقدس :

يعد ما فعله النبى ﷺ مع المسيحيين أول مثال يوضح مدى
السماحة التى يديها المسلمون تجاههم ، وذلك عندما منح رهبان دير
سانت كاترين - وهو يقع بالقرب من جبل سيناء - منحهم فى عام
(٦ هجرية) ومنح كل المسيحيين إقراراً^(١) « يعد من أعظم الآثار فى
التاريخ ، التى تدل على التسامح الشديد ، وبمقتضاه ضمن النبى ﷺ
لنصارى امتيازات وحصانات لم يكونوا ليحصلوا عليها فى ظل حكم

(١) ليس فى تاريخ الرسول ﷺ شىء من هذا ، ولعله ينسب إلى عمرو بن العاص .
(الترجم) .

أناس آخرين ، حتى ولو كانوا شركاءهم في عقيدتهم^(١) ، وقد باشر النبي تنفيذ الإقرار بنفسه ، وفرض على صحابته حماية النصارى والدفاع عن كنائسهم وأديرتهم ، بل وحمايتهم من كل إيذاء وظلم يقع عليهم ، وعليه لم يكن يمكن أن يفرض عليهم ضرائب باهظة ، ولم يرغم مسيحي على ترك دينه ، ولا أى راهب على مغادرة صومعته ، ولم يمنع حاج عن حجه ، وكذلك لم تكره أى من النسوة النصرانيات اللواتى تزوجن من رجال مسلمين على ترك دينها ، بل وحتى لو حدث أن خاض المسلمون حرباً مع مسيحيين آخرين فلا يمكن عندئذ أن يلقي مسيحي يقيم بين المسلمين أدنى معاملة سيئة بسبب عقيدته . وقد أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام أن أى مسلم يؤذى ذمياً فقد برئت منه ذمة الله ورسوله .

وقد بدت للعلاقة الأخوية الحميمة بين المسلمين والنصارى أمثلة كثيرة ، فعندما هاجر المسلمون الأوائل هرباً من عذاب كفار مكة ، كانت الحبشة النصرانية هى الملاذ والمأوى للمهاجرين الأولين ، ولقد رحب المسلمون بانتصار الدولة البيزنطية المسيحية على الدولة الفارسية الزرادشتية وسجل هذا فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ ألم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الروم آية ١ - ٦]

لقد أعجب كثير من الكتاب بما لقيه كل ما هو مسيحي من طيبة وسماحة ولطف فى ظل الحكم الإسلامى^(٢) ، ذلك أن النصارى كانوا

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A. Ali) وفى المرجع انظر ص ٨٤٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٢٤٠ ،

وتحت (Sale) وفيه انظر ص ٣٨ - ٥٠ ، وكذلك تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) .

في الحقيقة أكثر أمناً في ظل الإمبراطورية الإسلامية منهم في ظل شركائهم في الدين في القسطنطينية، والذين لم يشاركوهم في مذهبهم.

ويخبرنا (دانيال) (Daniel)^(٢) عن شعارات أعلنتها مجموعة من المسيحيين المتعصبين في القرون الوسطى وقد جاءوا إلى البلدان الإسلامية للتبشير بالمسيحية داخل المساجد على أمل أن يموتوا شهداء ، وأن السلطان استقبل هذه المجموعة من المتعصبين بكرم ولطف ، ورثى لفقرهم وحالتهم العقلية غير المتزنة ، والتي رجّح أنها من فرط صيامهم وإجهادهم في السفر الطويل .

ولكن أتت بعد ذلك الصدمة والمفاجأة ؛ لقد جاء الصليبيون «ليحرروا» القدس من أيدي العرب في سبيل يسوع ، فحطموا رؤوس الأطفال في الجدران ، وشووا الرجال بالنيران ، وشقوا أجساد بعضهم بحثاً عما قد يكون في أجوافهم من الذهب ، وحشروا الآلاف من اليهود في معابدهم وأحرقوهم فيها ، والأدهى من ذلك شوهد مبعوث بابا الكنيسة الكاثوليكية وهو يشهد الاحتفالات بالنصر !!

حتى لقد عبّر المؤرخ (جيبون) (Gibbon) فقال : « لا يوجد وحش مفترس على الإطلاق أشدّ عداوة للإنسان يمكن أن يأتي بمثل ما يحدث من طوائف المسيحية ، بعضهم ضد بعض »^(٣) .

ويتحدث (هـ . ج . ويلز) (H. G. Wells) عن وصمة أخرى من وصمات التاريخ المسيحي فيقول : « لقد بشر شارلمان (٧٧١ - ٨١٤) بالإنجيل في بلاد السكسون الوثنيين وعند البوهيميين^(١) وحتى نهر الدانوب ، بشر هناك بالسيف والنار ، كما أنه سار بنفس المنهاج عندما

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفي المرجع انظر ص ١٢٥ - ٢٠٠

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A. Ali) وفي المرجع انظر ص ٢٢٠ - ٢٣٠ .

(٣) بوهيميين : نسبة إلى مقاطعة بوهيميا بتشيكوسلافيا (المترجم) .

اتجه جنوباً بمحاذاة ساحل البحر الأدرياتيكي» (١) .

أما الحكام اليهود فلم يكونوا بأقل قسوة وعنفاً، فهاهو ذا (ذو نواس) حاكم اليمن في القرن الخامس ، وقد ألقى بالشهداء المسيحيين داخل أخلود يتأجج نيراناً ، حتى لقد قرر (موير) (Muir) أن عدد الضحايا كان يجاوز العشرين ألفاً ، ولم يكن يداني هذا العذاب في بشاعته وهوله إلا ما أتى به الحكام المسيحيون بعد ذلك من تنكيل باليهود الذين اتهموا بصلب المسيح ، فقد « كان الأطفال عرضة لأن تمزق أذرعتهم بعيدة عن أجسادهم ، وكانوا ينهبون البضائع بأمر من البارون والقسيس ، وتحت سمع الجماهير الثائرة الساخطة وموافقتهم» (٢) ، وظلت الحال على ما هي عليه حتى نهاية القرن السابع عشر ، وعليه فقد « كان الحكم الإسلامى يعد نعمة إلهية عظيمة ، وكان الملجأ الوحيد لأولئك اليهود الذين يعيشون خارج الإمبراطورية الإسلامية» (٣) .

ومما لا شك فيه أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يحظرون دعوة « أولئك الذين يهاجمون المسيحية بادعائهم الطهارة في الطعام » إلى منازلهم أو حتى للأكل معهم ، وما لبثت الكنيسة أن حرمت على الأمراء المسيحيين أن يسمحوا برفع الأذان من المساجد في أقاليمهم التي يحكمونها (٤) .

وهكذا ؛ فإن ما ترتكبه الحكومات المسيحية واليهودية من جرائم قمعية ضد كل ما هو مسلم يجيء مناقضاً تماماً للمعاملة الحسنة التي تلقتها أقلياتهم الدينية في ظل الحكومات الإسلامية عبر القرون .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) جزء (٢) ص ٥١٣ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A. Ali) ص ٢٧١ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Margoliouth) كتاب (المحمدية) ص ٨٣ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفي المرجع انظر ص ١٢٥ - ٢٠٠ .

ماذا حدث لمجتمعات اليهود حول المدينة ؟

كانت هناك ثلاثة من التجمعات اليهودية قاطنة في المدينة وحولها وهي : يهود بنى النضير ، ويهود بنى قينقاع ، ويهود بنى قريظة ، كما كان هناك يهود أيضاً يسيطرون على قرية تدعى (خيبر) ، ولا تبعد كثيراً عن المدينة . وكان اليهود قبل ظهور الإسلام يشعرون بسبب كتابهم المقدس بتفوق له ما يبرره على جيرانهم الذين كانوا وثنيين ، لذا كانوا يتباهون أمام هؤلاء العرب ويقولون لهم : « إن لدينا نبوءة كتابية بأن نبياً قد آن أوانه ، سنتبعه ونحارب معه وسنقتلكم قتل عاد وإرم »^(١) ، وقد اعتمدوا في ذلك على ما جاء في سفر التثنية من : « أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فيه فيكلمهم بكل ما أوحى به » (سفر التثنية - الإصحاح الثامن عشر - ١٨) ، وهذه العبارة يمكن أن تكون موجهة إلى نبي كموسى عليه السلام وهو نبي من بنى إسرائيل - وبلغ بها عن ربه - وربما تتحدث عن نبي من بين إخوتهم بنى إسماعيل ، ولكن الذى حدث أنه لدى تحقق النبوءة بظهور النبي محمد عليه الصلاة والسلام من بين أبناء إسماعيل بمكة رفض المجتمع اليهودى أن يؤمن به ، وأدان النبوءة ، وزعم أن النبي المنتظر لا يمكن أن يأتى من خارج مجتمعهم^(٢) ، وهذا ما سجله القرآن :

﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب

(١) انظر كتاب (الرد الصحيح على من بدّل رسالة المسيح) للعلامة ابن تيمية - القاهرة

. ١٩٣٠

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفي المرجع انظر ص ٤٥ - ٦٥ .

على غضب وللكافرين عذاب مهين * وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴿

[البقرة آية ٨٩ - ٩١]

وعلى الرغم من أن أحبار اليهود وزعماءهم قد أظهروا الود في البداية فإنهم تحولوا عنه ، وصاروا من ألد أعداء الرسول ﷺ بعد ذلك^(١) ، فقد اتصلوا بالمشركين في مكة وغيرها ، وعرضوا عليهم المساعدة لضرب محمد عليه الصلاة والسلام وجماعته الصغيرة المتنامية من المؤمنين ، وهو ما يشير إليه القرآن في قوله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴿

[النساء آية ٥١ - ٥٢]

وفي الوقت نفسه كان عرب المدينة منقسمين إلى قبيلتين هما الأوس والخزرج ، وكانت المشادات والحروب مستعرة بينهما عبر أجيال ، ولكن عندما وصل الرسول عليه الصلاة والسلام ابتداءً جواً من السلام والتعاون ليشمل كل القاطنين بالمدينة من العرب واليهود ، فقد رسخ قواعد الأخوة بين أهلها وأنهى الحرب المحتدمة بين القبائل ، وآخى بين المهاجرين والأنصار في الدين ، فكانت أخوة لا تبارى ، وباتت عراها أقوى من عرى الدم والنسب .

ولنعلم أن النبي ﷺ أعطى فور وصوله إلى المدينة عهداً لكل ساكنيها^(٢) ، وفيه عرّف حقوق كل مجتمع بها وواجباته ، وكان يحوى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) .

(٢) انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) تأليف م. وصفى المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة ١٩٧٠ - القاهرة .

حوالى عشرين بنداً تعالج جميع نواحي العلاقات المختلفة بين المؤمنين بعضهم وبعض وبين باقى المجتمعات ، وقد كان منها خمسة عشر بنداً لرعاية حقوق اليهود (١) .

ولا شك فى وجود مجموعة من الدارسين والأخبار اليهود غير المتعصبين ، الذين رحبوا بحماس بالنبي عليه الصلاة والسلام فى المدينة ، وأعلنوا دخولهم فى الإسلام وأنهم سوف يعتبرون أنفسهم حواريين ومريدين للرسول ، الذى سيصبح سيداً مطاعاً فيهم (٢) ، ويرز من بينهم عبد الله بن سلام ، ذلك الذى أصبح من أكثر الصحابة قرباً من النبي ﷺ .

لقد تبنت أغلبية المجتمع اليهودى لسوء الحظ موقفاً عدائياً مخاصماً متحدياً لمحمد ﷺ ، ولم يؤمنوا به إطلاقاً ، وكانوا فى موقفهم هذا تحت إمرة اثنين هما : رافع بن حريملة ، ووهب بن زيد (٣) اللذين « نصبا من أنفسهما خصمين لدودين للنبي متهكمين منه » ، وعادوا المجتمع المسلم ككل (٤) ، ونشروا - لكى يزعزعوا إيمان المسلمين الجدد - شائعات حاقدة وأعلنوا أن النبي عليه الصلاة والسلام ليس إلا دعياً أفاكاً ، جاء رافع مرة وقال ساخراً متحدياً : « يا محمد إن كنت رسول الله حقاً كما

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبي الحاكم) ص ٢٤٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (K. W. Morgan) وفى المرجع انظر ص ٢٥ .

(٣) قال ابن إسحاق : وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ : يا محمد اتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجر لنا أنهاراً تتبعك ونصدقك فأنزل الله تعالى فى ذلك ما من قولهما : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » (البقرة آية ١٠٨) ، وقال ابن إسحاق أيضاً : وقال رافع بن حريملة لرسول ﷺ : يا محمد إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله تعالى فى ذلك : « وقال الذين لا يعلمون ... » (سيرة ابن هشام ١٧٤/٢ ، ١٧٦) (المترجم) .

(٤) انظر كتاب « محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل » تأليف م. وصفى - المجلس

الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠ - القاهرة .

ترعم فاسال الرب أن يأتي ويكلمنا»^(١) ، ولعل القرآن قد سجل مثل هذه التحديات في قوله تعالى : ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ [البقرة آية ١١٨]

أما الآخر فقد هزأ قائلاً : « يا محمد ، أنزل علينا كتاباً مكتوباً على رقائق من السماء لعلنا نقرؤه ، أو حول هذه الأرض إلى بساتين وأنهار وإلى ربيع دائم »^(٢) ، ويعلن ثالث أن النبي عليه الصلاة والسلام على خطأ ، ثم يتهم ويدعوه إلى اعتناق اليهودية : ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ [البقرة آية ١٣٥]

ومما لا شك فيه أن التأثير الذي كان يحدثه الشعر في ذلك الوقت يناظر تماماً ما تحدثه الآن محطة إذاعة أو جريدة يومية مقروءة وذات انتشار واسع .

ومن ناحية أخرى ركّز كعب بن الأشرف ، وهو الشاعر الناطق باسم يهود المدينة على إنشاد القصائد المختلفة التي تشوه سمعة الرسول ﷺ وصحابته ، وقال كذلك قصائد أخرى ضمنها تحريضاً للمشركين على حرب النبي ، وتعرض في أخرى للنساء المسلمات ، وكان ينشد أشعاره بمكة وبأماكن أخرى ، حيث تقام الأسواق ، وامتد نشاطه إلى أبعد من ذلك ؛ حيث اتجه إلى عقد معاهدات مع عديد من زعماء المشركين ، « وبمرور الأيام ، وبإبرام المعاهدات مع مشركي مكة ، تكاثفت كل القوى لتقف في وجه محمد »^(٣) .

وقد نجد أن بعض أحبار اليهود وحلفائهم من أمثال ابن سلول قد

-
- (١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفي المرجع انظر ص ٤٥ - ٦٥ .
 - (٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفي المرجع انظر ص ٤٥ - ٦٥ .
 - (٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وفي المرجع انظر ص ٥٣ - ٢٠٠ .

اعتنقوا الإسلام بصورة ظاهرية ، وظلوا فى الوقت نفسه متحالفين مع قريش وقبائل أخرى فى محاولة لتقويض المجتمع المسلم من داخله ، وإلى ذلك يشير القرآن :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ، باليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون * الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير * يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [البقرة آية ٨ - ٢١]

ويجب ألا ننسى أن المدينة وقتئذ كانت ولاية فى المهد ، وتعمل قريش وحلفاؤها على النيل منها لوأدها من جميع الاتجاهات ، ولا نحتاج هنا إلى التأكيد بأنه فى حالة الحرب يجب أن يؤخذ الخونة وصناع الفتن بحزم شديد .. ، كما أن أغلبية طوائف اليهود بالمدينة وما حولها قد أتحلفت ما تضمنه العهد الذى أعلنه النبى ﷺ فور وصوله ، والذى كانوا

قد وافقوا عليه ، كذلك رأينا كيف تصرف عدد من أجبائهم وزعمائهم وشعرائهم ، ومن ثمّ فإننا نجزم أن « النبي قد احتمل الكثير من انحرافاتهم التي قضت بخطوة جادة تجاههم »^(١) .

بنو قينقاع :

وقد استقرت هذه القبيلة في إحدى مناطق المدينة ، واشتركت في حرب الشائعات والفتن - سرّاً وجهراً - ضد المسلمين ، وقد حدث أن كان هناك في المنطقة التي يعيش فيها بنو قينقاع سوق للذهب وللجواهر تتألف من عدد من الصوّاغ ، وذات صباح ذهبت امرأة مسلمة هناك لتسوق ، فتعرض لها عدد من شبان اليهود ، كأنما أرادوا إحداث فتنة ، فهزأوا بها وكشفوا عورتها ، فلما انكشفت سواتها ضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون^(٢) .

وعندما هرع النبي ﷺ وأصحابه لاستعلام الخبر^(٣) ، استخف بهم زعماء اليهود وتحذوهم قائلين : « يا محمد ، إنك ترى أنا قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصببت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس »^(٤) ، وبغضب عميق ، أمر النبي بضرب حصار حولهم ، واستمر الحصار خمس عشرة ليلة ، حتى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفي المرجع انظر ص ٤٥ - ٦٥ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ، الجزء الثاني ص ٤٢٧ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبي والحاكم) ص ٢٤٠ ، وكذلك انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) تأليف م. وصفى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - سنة ١٩٧٠ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) ، وكذلك انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) تأليف م. وصفى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠ - القاهرة وفيه انظر ص ٨٦ ، ٩٢ .

أتى عبد الله بن ابي بن سلول متوسطاً لصالح المتمردين ، فرفع الحصار عنهم مع استسلامهم ، ولكن بشرط أن يتركوا كلهم المدينة بأمر النبي ﷺ في غضون ثلاثة أيام ، آخذين معهم كل ما يملكون ، وحاول ابن سلول الوساطة لصالحهم مرة أخرى من أجل العفو والسماح لهم بالبقاء ، ولكن المسلمين حالوا بينه وبين الوصول إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن ثم أذعن بنو قينقاع للرحيل .

بنو النضير :

وكانت هذه الجماعة تقطن ضواحي المدينة ، وقد عاهدت هي الأخرى النبي ﷺ على التحالف معه ومساعدته ضد أعدائه ، وعلى الإسهام في مواجهة الأزمات الاقتصادية وفي مقابل ذلك يتمتعون بكل الامتيازات والحقوق التي أوردناها في بداية هذا الجزء .

وعلى مبعده من المدينة تحالفت قبيلة مشركة أخرى هي قبيلة بني عامر مع النبي ﷺ ، وحدث أن أسلم أحد زعمائها وطلب من النبي أن يرسل وفداً ليعرض الدين الجديد على قبيلته ، فأرسل النبي ﷺ أربعين صحابياً لأداء هذه المهمة ، ولكن للأسف ، لقد بدت الخيانة في الأفق ، فقد كان لهذا الزعيم ابن أخ ، عدواني متعطش للدماء ، فأصدر أمراً بقطع الطريق على الأربعين صحابياً وأسرهم ، فأخذوهم غدراً ، إلا أنهم استطاعوا إبداء بعض المقاومة ، التي أدت إلى قتلهم جميعاً ، عدا اثنين استطاعا الهرب ، وفي طريق عودتهما اعترض أحدهما رجلين من قبيلة بني عامر وقتلهما ، ثأراً للثمانية والثلاثين من أصحابه ، إذ إنه لم يكن يعلم أنه بهذا التصرف قد نقض العهد والجوار بين النبي وبنى عامر .

ولكن الرسول ﷺ - وهو مثال العدل والاستقامة - لم يعترض على دفع دية القتيلين من بني عامر ، عقاباً لهم على قتلهم رجاله الثمانية والثلاثين ، وإنما حاول أن يجمع المال المطلوب من المجتمع المسلم ، ومن

حلفائه بنى النضير ، فذهب يستعينهم ، فطلب منه أفراد القبيلة أن ينتظر خارج سور حصنهم الشاهق ، وبينما هم يتظاهرون بإحضار المال له ، تسلق أحدهم ويدعى عمرو بن جحّاش بن كعب ، إلى أعلى الحائط ، صعد ليلقى صخرة لقتل محمد^(١) ، ولكن النبي ﷺ قبيل وقوع الخطر ألهم الخبر من السماء ، فقام راجعاً إلى المدينة ، ثم ذهب إلى المسجد ، وأصدر أمراً بالتهيؤ لبنى النضير ، لحربهم ، وإجلائهم عن المدينة في غضون عشرة أيام ، ولكنهم رفضوا وتحصنوا منه في الحصون ، فأمر الرسول بحصارهم وتحريق نخلهم إرهاباً لهم ، وفي خلال ذلك أوعز ابن سلول وعصبة من المنافقين إليهم ، أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم ، إن قوتكم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وهو ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى : ﴿ ألم ترى إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لنن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتكم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لنن أخرجوا لا يخرجون معهم ولنن قوتلوا لا ينصرونهم ولنن نصرهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ [الحشر آية ١١-١٢]

ومرت خمسة عشر يوماً ، والمتمردون في الحصن حتى رفع الحصار، ورحل بنو النضير إلى خيبر ، وقد أخذوا معهم ستمائة من الإبل المحملة بالأمثلة والأموال إلا السلاح .

بنو قريظة :

وهذه قبيلة أخرى كانت تسكن في ضاحية محصنة من ضواحي المدينة ، وقد عاهدت هي الأخرى النبي ﷺ ، وتعهدت بمساعدته ضد المشركين ومنعهم من دخول المدينة ، وقام بذلك زعيمهم كعب بن أسد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وكذلك انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) تأليف م. وصفى المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة ١٩٧٠ - القاهرة

القرظى ، ولكن على الرغم من وجود المعاهدة هرع اليهود إلى إرسال المندوبين فى كل مكان مرددين مزاعمهم عن « الدعى الدجال »^(١) ، كما قاموا بتوثيق صلاتهم سرأ مع مشركى مكة وحضوهم على الاتحاد ضد محمد طالما بقى أى من الطرفين على قيد الحياة .

وقد سألتهم قريش : « يا معشر اليهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ فما كان من زعمائهم إلا أن أجابوا : « بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه » ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ [النساء آية ٥١ - ٥٢]

ونجح اليهود فى تهيج القبائل المتاخمة للمدينة وهى غطفان وأسد وسليم ، وبناء عليه أتى مارسن من عام (٦٢٧) ميلادية وكانوا قد اتحدوا مع أهل مكة ومع أكبر القبائل العربية ، واستعد عشرة آلاف مقاتل بقيادة أبى سفيان لاجتياح المدينة^(٢) ، وفى أثناء ذلك أقنع بعض من أصحاب الشأن اليهود^(٣) زعيمهم كعب بن أسد بأن ينبذ العهد بينه وبين النبى عليه الصلاة والسلام .

وعندما علم النبى بأن قريشاً وحلفاءها تعد للانقضاض على المدينة ، أدرك هو وصحابته وجوب التحرك السريع ، واستقر رأى على حفر خندق عميق حول المدينة من ثلاث جهات ، وترك الرابعة ، وفيها حصن بنى قريظة ، إذ إنه وفقاً لشروط الاتفاق تتعهد هذه القبيلة بصد أى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٤٥ - ٦٥ .
(٢) انظر المرجع السابق وكذلك انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (K.W. Morgan) وفى المرجع انظر ص ٢٥ .
(٣) هو حيبى بن أنخطب النضرى (المترجم)

عدوان يبتغى دخول المدينة من ناحيتهم ، وانهمك .سلمون فى الحفر ليل نهار ليكون عميقاً واسعاً ، وانتهوا منه قبل مدة بسيطة من ظهور جيش العدو الذى سقط فى يده عندما رأى الخندق الدفاعى الذى لم يعهدوه كخطة فى حروبهم ، ومن ثم عاق الخندق هجومهم على المدينة، فعسكروا على الجانب الآخر ، واكتفوا بالرمدى على المدافعين، حتى إن القلة التى تجرأت وحاولت عبور الخندق فوق ظهور الخيل لاقت حتفها أثناء المحاولة .

ولقد شك الرسول عليه الصلاة والسلام فى بنى قريظة وفى حفظهم للعهد ، ولكنه آثر أن يتأكد، فأرسل نفرأ من الأنصار البارزين وفيهم سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة وكانا من حلفاء بنى قريظة ، وعندما وصلوا إلى حصن بنى قريظة وبدأوا يتناقشون هالهم تصرف اليهود ، وقولهم ، إذ أخذوا يصرخون ويصيحون : « من هو رسول الله ؟ لم يكن بيننا وبين محمد أى ميثاق ولا حتى أى عهد ! »^(١) ، وعندئذ اغتاض سعد بن معاذ وأخذ يكيل لهم السباب والإهانة ، ولكن رفاقه أثنوه عن المضى فى ذلك، مشيرين إلى أن الموقف قد أصبح خطيراً ، ومن ثم عادوا أدراجهم إلى ساحة الحرب حيث أخبروا النبى سراً بغدر بنى قريظة .

ولكن العناية الإلهية أبت إلا أن تكون مع المؤمنين ، فهبت الرياح فى ليلة مظلمة ، ودمر المطر الغزير معسكر الأعداء وأحمد نيرانهم ، وقوضت العاصفة الهائلة بعض الخيام وفرت الخيل والإبل فى ذعر ، وارتبك جيش قريش وحلفائها وامتألت قلوبهم بالتشاؤم والخوف ، فالوقوف أمام الخندق كان سيئاً ثقيلاً على نفوسهم ، ولكن هذا الدليل الواضح على الغضب الإلهى جعلهم يقررون الرحيل ، وطلعت شمس

(١) انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) تأليف محمد وصفى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠ - القاهرة ، وانظر كذلك قائمة المراجع الأجنبية تحت (Muir) ج ٣ ص ٥٥٩ .

اليوم التالي على فرار الجميع ، وانتهت المعركة بفضل هذه الرياح المعجزة ، ودون حاجة إلى قتال حقيقي .

وذهب النبي بعد الظهر إلى بني قريظة يطلب توضيحاً وتفسيراً ، ولكن اليهود ردوا عليه بأن جهزوا الحصن وأعدوا العدة للقتال ، لذلك أصدر النبي الأوامر وللمرة الثالثة بضرب الحصار حولهم ، واستمر لمدة خمسة وعشرين يوماً حتى تسلم سعد بن معاذ من اليهود رسالة يطلبونه فيها للوساطة ، وكان سعد رضى الله عنه قد جرح جرحاً قاتلاً أثناء المعركة ، وكان عليه أن يحمل من بيته إلى مجلس النبي ﷺ ، وجاء سعد وسأل النبي وزعماء اليهود إن كانوا يرضون بحكمه ، فوافق الطرفان وعندئذ نطق سعد بالحكم الرهيب وهو : « أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء »^(١) .

إن الحكم رهيب ولكنه عادل ، وتم تنفيذه عقاباً لبني قريظة على خيانتهم العظمى في تلك الفترة الحرجة من حياة مجتمع المدينة ، وقد يكون مشابهاً لما أصدره الأنبياء الكتائبون وما نفذوه من أحكام ، ولكنه لم يصل إلى درجة القسوة والفظاعة التي ظهروا بها ، وذلك أننا نقرأ في العهد القديم مثلاً أن صموئيل قال لشاول : « ... فالآن اذهب واضرب عماليق وحرّموا كل ما له ولا تعف عنهم ، بل اقتل رجلاً وامرأة ، طفلاً ورضيعاً ، بقرًا وغنماً ، جملاً وحماراً » (صموئيل الأول - الإصحاح الخامس عشر - ٢٣) .

إن الكثير من المستشرقين يكتبون وقد أغفلوا تماماً الخيانة الشنيعة التي بدت من بني قريظة - عن « القسوة » و« الجرم الشنيع الشائن » ، ولكننا نرى أن الخيانة العظمى التي جاءت بعد حادثتين سابقتين من التمرد والعصيان ونقض العهد لا تستحق غير الحكم الكتابي القاسي

(١) انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) ص ١٠٨ - ١٢٥ .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبي والحاكم) ص ٢٤٠

الذى نطق به سعد بن معاذ ، وهو حكم الله فيهم من فوق سبع سماوات .

يهود خيبر :

بعد خروج يهود بنى قينقاع ويهود بنى النضير ، توجهوا إلى خيبر التى استوعبتهم مع ما فيها من قبائل يهودية أخرى ، ولقد ظل « يهود خيبر وخاصة زعماء بنى النضير ساخطين على محمد ، فسخرُوا ثروتهم لحث القبائل العربية المجاورة للاحتشاد لحرب المسلمين »^(١) .

ومن بين قبائل خيبر كانت قبيلة سلام بن أبى الحقيق ، ذلك الذى شعر « بمرارة وغصة بسبب المسلمين ، ولبغضه لهم ولمحمد بذل كل المحاولات لإثارة القبائل المجاورة بما فيها سليم وغطفان ضدهم ، ولا شك فى أنه كان مستحيلاً على المجتمع المسلم أن يسكت عن هذه المؤامرة المكشوفة التى تنفذ بوساطة أناس لا يطمعون هم إلا أن يكونوا محايدين ، كما أن المجتمع المسلم كله فى خطر ، وينبغى القضاء على هذه المخططات الغادرة مراعاة لأبسط قواعد السلامة »^(٢) .

وفى النهاية عندما أصر يهود خيبر على أن يجعلوا من أنفسهم بشراً لا يطاقون مطلقاً ، فرض الرسول ﷺ حصاراً حولهم حتى استسلموا رغم أن قلة منهم حاربت حتى الموت ، وكان من شروط التسليم أن يدفع أولئك الذين أرادوا البقاء جزية للنبي ، بينما آثر آخرون الرحيل ، ولكن (مenezes) لم يكن منصفاً ، ولا أميناً ، حينما زعم أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أغار عليهم ليستولى على ثروتهم^(٣) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبي والحاكم) ص ٢٤٠ .

(٢) انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) تأليف م. وصفى - المجلس

الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠ - القاهرة ص ١٠٨ - ١٢٥ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٤٥ - ٦٥ .

يُبد أن بقاء بعض اليهود فى المدينة يظل حجة ضد أولئك الكتاب الأوربيين الذين زعموا أن محمداً ﷺ قد تبنى سياسة إخراجهم من المدينة مجرد أنهم يهود^(١) .

موقف القرآن من المشركين وغيرهم :

كان على المسلمين أن يعاملوا المشركين واللادينيين كالشيوعيين على أنهم بشر مختلفون ، فكل من الاعتقاد بوجود آلهة متعددة أو بعدم وجود إله على الإطلاق يعد إثمأ لا يغتفر ، وكما أدان القرآن الكريم الشرك ، فالإنسان أيضاً عندما لا يؤمن بالله يبدو جاحداً لخالقه ، ولعل هذا ما يبين لماذا لم تعترف دولة إسلامية كالسعودية لعشرات السنين بالدول الشيوعية كروسيا التى تتبنى سياسة الإلحاد العلمى^(٢) ، وتطبقها على نفسها ، بل وتدعو لتطبيقها على مجتمعات أخرى ، ولا شك فى أن كلمات (لينين) الغابرة « بأننا نحتقر ونزدري كل فكرة دينية ، وكل فكرة إلهية وكل نزعة إلى التأليه » - لا شك فى أنها أثرت كثيراً فى هذا القرار^(٣) .

كيف تم تقديم الإسلام إلى الآخرين ؟ :

لقد سجل (دانيال) (Daniel) أن كتاب القرون الوسطى قد اتهموا محمداً بشدة بأنه قد فرض الإسلام على الآخرين « بالعنف والقوة »^(٤) ، وقد كرر (وولستون) (Wollaston) و (منيزس) (Menezes) حديثاً نفس الاتهام الذى كرره كذلك مؤخراً (دى جرامونتس) (De Gramants)^(٥) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٢٤٠

(٢) سقط النظام الشيوعى والحمد لله وزال معه الإلحاد الماركسى فى عام ١٩٩١ (المراجع).

(٣) مجلة (Time) عدد ١٩٧٩/٦/١١ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ١٢٥ - ٢٠٠ .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (De Gramants)

فعلى سبيل المثال زعم (وولستون) : « أن القرآن والسيف وجهان لعملة واحدة تتلقى صورتها العين على كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامى »^(١) ، بينما كسر (مينزس) فقال : « إن الدين الإسلامى يدين للسيف بتقدمه واستقراره »^(٢) .

ولكن (سيل) (Sale) لم يصدق هذه المزاعم - وقد جاء فى القرن الثامن عشر - وأشار إلى « أنهم - يعنى الكتاب - قد خدعوا من يتصور الإسلام قد انتشر بحد السيف وحده »^(٣) ، كذلك أكد ذلك كتاب لديهم حصيلة علمية أكثر من أمثال (لين) (Lane)^(٤) الذى جاء فى القرن الماضى ، ومن أمثال (هـ . ج . ويلز) (H.G. Wells)^(٥) و (جيردندر) (Gairdner)^(٦) و (بالجون) (Baljon)^(٧) الذى جاء فى هذا القرن ، إلى أن جاء (رودينسون) (Rodinson)^(٨) مؤخراً وبرأ الحكام المسلمين عندما كتب يقول : « إنهم لم ينشروا الدين بالقوة كما يعتقد فى أوروبا ، بل على العكس فإنهم لم يؤمنوا بها - أى بالقوة - أبداً » .

ومن الثابت والمعروف تاريخياً أن النبى ﷺ كان يبشر فى مكة بالإسلام بسلام تام وقد تحمل العداة الشديد والتعذيب الواقع بجماعة المؤمنين الصغيرة المتنامية ، وكذلك فى المدينة وحتى نهاية حياته .. لم يستخدم سوى أساليب المسالمة الشديدة فى الإقناع .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wollastom) وفى المرجع انظر ص ٢٧ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٦٣ - ١٦٥ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وبالمرجع انظر ص ٣٨ - ٥٠ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) وفى المرجع انظر ص ٧٢ - ٧٨ .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H. G. Wells) جزء ٢ ص ٤٨٨ .

(٦) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) ص ١١٢ .

(٧) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Baljon) وفى المرجع انظر ص ١٠٩ .

(٨) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) ص ٢٩٦ .

ولعلنا نجد طريقة دعوته لرؤساء القبائل ولحكام المناطق المتاخمة وأمرائها مدونة جيداً في التاريخ الإسلامي ، فقد أرسل رسائل مع مبعوثين مخصوصين لكسرى الفرس ولعظيم الروم ، ولقوقس مصر ، ولعديد من الأمراء العرب بما فيهم حكام غسان واليمن والبحرين ، حيث استقبل بعضهم بالاحترام وحسن الوفادة ، على حين استقبل آخرون بعداء سافر ، فقد ازدري كسرى الفرس رسالة النبي ﷺ من أعماقه وطرده مبعوثه من مجلسه^(١) ، بينما قتلت الغساسنة رسول النبي عليه الصلاة والسلام ، وعند ذلك غضب صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً وأرسل جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل إلى مؤتة .

ولقد أجبر المسلمون على حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم ولضمان سلامة مجتمعهم الناشئ وحمايته ، عندما كان الرسول بالمدينة ، وهو ما يحول الرؤية تماماً عن تلك التي ترى أنهم حاربوا أثناء وجود النبي ﷺ في المدينة لينشروا الإسلام .

ولعل هذه الآية تشير إلى طريقة تقديم الإسلام إلى الآخرين: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾

[النحل آية ١٢٥]

وكذلك أمر المسلمون بأن يكونوا دمثين مهذبين عندما يناقشون أهل الكتاب : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾

[العنكبوت آية ٤٦]

وما إن عرف الناس الرسالة حتى بدأ الرسول إكمالاً لميثاق الدعوة والرسالة في تذكير المعرضين كما أمره الله : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر *

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وبالمرجع انظر ص ٣٨ - ٥٠ .

[الغاشية آية ٢١ - ٢٢]

لست عليهم بمسيطر ﴿

﴿ فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلاَّ الْبَلَاغُ
وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت
أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى آية ٤٨]

وعليه فالدعوة القسرية ليست فقط غير مثمرة ، وإنما هي أيضاً
محظورة بأمر القرآن : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً
أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس آية ٩٩]

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر
بالتطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها
والله سميع عليم ﴾ [البقرة آية ٢٥٦]

وكما قال المستشرق (بلاشير) (Blachere) ^(١) : « إنه من المحزن حقاً
أن يشاع عن القرآن روح القسر والعنف ، بل إن العكس هو الصحيح » .
ولعل وجود المجتمعات المسيحية المزدهرة حضارياً فى بلاد حكمها
الإسلام لعدة قرون يعد حجة بالغة على ما لاقوه من سياسة التسامح
الدينى فى ذلك الوقت ، بل كانت أحياناً أحسن كثيراً من تلك التى
لاقوها من إخوانهم وشركائهم فى الدين ، وقد كان من السهل على
كل من السلطان سليم الأول (١٥١٤) والسلطان إبراهيم (١٦٤٦) أن
يقوموا بطرد الرعايا المسيحيين ونفيهم من أراضيهم ، كما فعل الإسبان
مع المسلمين والإنجليز مع اليهود ^(٢) ، إلا أن هذا فى واقع الأمر لم
يحدث ، وهو ما جعل المجتمعات الصغيرة غير المسلمة تفضل دائماً أن
تكون تحت الوصاية الإسلامية دون سواها ^(٣) ، فعلى سبيل المثال : لم

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Blachere) وفى المرجع انظر ص ١٠٩ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arnold) وفى المرجع انظر ص ٣٣٣ - ٣٥٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٢١٩

يجد اليهود ملجأً يلجأون إليه بعد خروجهم من أسبانيا في نهايات القرن الخامس عشر في أعقاب هزيمة المسلمين سوى فلسطين وكانت حينئذ جزءاً مباركاً من الدولة العثمانية .

وقد استقبلت الكنيسة المسيحية في شمال إفريقيا أفواجاً متفرقة وهاربة من الاضطهاد الوندالي^(١) في القرن الخامس الميلادي ، حيث عذب الآريون الونداليون جميع من نالته أيديهم من الأرثوذكس بضراوة شديدة ، وأرسل رهبانهم للمنفى ، ومنعوا ممارستهم لعقيدهم على الملأ ، وعاقبوا بقسوة كل من تسول له نفسه رفض ممارسة عقيدتهم^(٢) . كذلك لم يكن أهل الشام من النصارى الأرثوذكس والأقباط في مصر بأحسن حالاً تحت الحكم البيزنطي ، ومن ثم فلم يكن بغريب أن يرحبوا بالحكم الإسلامي وعدله وأمنه ، وهو الذي أنقذهم من العبودية الرومانية^(٣) ، ونزوى هنا حادثة يذكرها التاريخ الإسلامي ، وتحكى عن غلام قبطنى كان يتسابق يوماً مع ابن فاتح مصر عمرو بن العاص ، وحين سبق الغلام المصرى جعل ابن الأمير يضربه ويقول له : أتسبق ابن الأكرمين ، فاغتاظ أبوه ، وآثر السفر إلى المدينة ليلقى الخليفة عمر بن الخطاب ويرفع إليه شكاته ، فرحب عمر رضى الله عنه به كضيف ، واستدعى عمراً وولده من مصر ، وبعد المحاكمة أمر عمر أن يقتص ابن المصرى لنفسه من ابن الأمير ، قائلاً له : اضرب ابن الأكرمين ، ثم قال قولته الخالدة : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) .

ولكى نتصور كيف انتشر الإسلام في تلك العصور بين أناس كثيرين من ذوى الخلفيات المختلفة تماماً في إفريقيا وآسيا وأوربا ، ينبغى

(١) الاضطهاد الوندالي : نسبة إلى قبيلة جرمانية اجتاحت فرنسا وأسبانيا وشمال إفريقيا في القرن الخامس الميلادي في عام ٤٤٥ ، كما احتلت روما ونهبته . (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arnold) ص ١٠٤ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Trimmingham) ص ١٥ وكذلك تحت (Hitti)

وفيه انظر ص ١٥٣ .

أن نحاول تخيل الواقع والظروف المحيطة بهم آنذاك ، ولنرى مدى ما وصلنا إليه الآن في مجال الاتصالات وسرعة السفر ، لم يكن ليذكره الخيال وقتئذ ، إنه لم يكن هناك وكالات أنباء ولا إذاعة ولا اتصالات لاسلكية ، ولم تكن هناك خدمات بريدية حقيقية ، ولا كانت البنوك المالية ذات الاتصالات العالمية.. ولا شك في أن طريقة الإسلام في الانتشار في آسيا وأواسط إفريقيا والهند وإندونيسيا تستحق الإعجاب في النظر .

فالتاريخ يقول لنا : إن العرب ، وخاصة أولئك القرشيين كانوا تجارا بطبيعتهم ، وقد تكونت لديهم جماعات من الدهاة والتجار المحنكين طوال أجيال قبل ظهور الإسلام ، حيث كانت قوافلهم تجوب الصحراء إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفاً ، ولا شك في أنهم قد عرفوا الهند والبلدان الإفريقية عن طريق البحر الأحمر ، ثم تمكن أولئك التجار الرواد بوسائل المواصلات المتاحة وقتئذ - من توثيق الصلات الدائمة بينهم وبين مواطني هذه المراكز التجارية العامرة عبر البحار ، بل وتمكن بعض التجار العرب من اليمن وحضرموت ونجد من الاستقرار في الموانئ الرئيسية كجيبوتي ودار السلام ومقديشو على الساحل الأفريقي ، وفي جاوة المعروفة الآن بإندونيسيا ، وعاشوا هناك حياة طبيعية واختلطوا بالأهالي وتعلموا لغتهم وتزوجوا منهم^(١) ، واكتسبوا إعجاب المحليين ورؤسائهم لتصرفاتهم وتعاملاتهم الإسلامية النبيلة في كل ركن من أركان حياتهم اليومية .

ولقد اعتبر المحليون العائلة التي هي ثمرة زواج تاجر مسلم عربي بمحلية ذات أصل ومقام رفيعين .. اعتبروها عائلة مقدسة ، فنجد فيهم أسماء المهدي والميرغني وهي أسماء شاعت في السودان لقرون وما زالت موجودة حتى الآن . ولعل من الأسماء الصومالية الجديدة بالذكر هنا :

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Trimingham) كتاب (الإسلام في إثيوبيا)

الشيخ « على درجيا » والشيخ « محمد بن جوليد »^(١) ، ذلك أن هذين هما أصلان لعائلات اعتادت بناء المساجد والمدارس ، وبذلت جهداً كبيراً في نشر الدين الجديد بين المواطنين ، مما جعل من هذه المراكز التجارية مراكز إشعاع ينطلق منها الإسلام بسلام إلى شرق ووسط إفريقيا، ولعلنا قرأنا عن المملكتين الإسلاميتين إيفات وسيداما والإمبراطوريتين مالى (١٢٣٨-١٤٨٨) وغانا^(٢) .

وبنفس الأسلوب قُدم الإسلام إلى جاوة وإلى شرق الهند ، فقد تمكن من القلوب « بالمسألة الشديدة والتي تمثلت في التبشير به ، أو بفعل تأثيره وهيبته الاجتماعية »^(٣) ، حيث إن مولانا مالك إبراهيم المتوفى عام (١٤١٩) هو أول داعية للإسلام في جاوة ، بعد المسلمين الهنود الأوائل ، « فقد كان تاجراً يقطن حضرموت في جنوب الجزيرة العربية مثل الذين تبعوه ، وتمكنوا من أن يصبحوا المسئولين الرئيسيين عن نشر الإسلام في الجزيرة وفي إندونيسيا وذلك بوسائلهم الفردية وغير التقليدية »^(٤) .

وتختلف قصة دخول الإسلام إلى شرق أوروبا عما سبق ، ولكن الاختلاف ليس كثيراً ، والذي حدث هو أنه في القرن السابع ، تم أسر قاض مسلم في إحدى الحروب بين البيزنطيين وبين إحدى الولايات

(١) انظر كتاب (علم الاتصال بالجماهير والمجتمع الإسلامى) للدكتورة إجلال خليفة - الأنجلو المصرية ١٩٨٠ ص ١٩٦ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Trimmingham) كتاب (الإسلام فى أثيوبيا) ص ١٣٩ ، وكذلك كتاب (علم الاتصال بالجماهير والمجتمع الإسلامى) للدكتورة إجلال خليفة - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠ ص ١٩٦ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وفى المرجع انظر ص ٥٣ - ٢٠٠ ، وكذلك انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arnold and Guillaum) ، وأيضاً تحت (Zwemer) كتاب (أثر الوثنية على الإسلام) ص ٧٥ - ٩٠ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy)

الإسلامية المجاورة ، ثم أتوا به إلى بلدة (بيشنجز) (Pechenegs) وهى تقع بين نهر الدانوب الأصغر ونهر (الدون) (Don) ، وهناك أقنعت طريقة حياته الإسلامية من حوله باعتراف الدين فى النهاية ، وكذلك اعتنق الكثير من البشكيريين وهم من قبائل المجر - الإسلام فى نهايات القرن العاشر بعدما قدم إليهم من بلغاريا - الإسلامية آنذاك - سبعة رهط من المسلمين^(١) .

ولقد عزا (السير توماس أرنولد) (Sir Thomas Arnold) هذه النتائج إلى عقلانية الدين ، حيث استشهد بما أشار إليه (البروفيسور مونتيه) (Professor Montet) فقال : « يعتبر الإسلام ديناً عقلانياً جداً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ذلك أن بساطة تعاليمه ونقاءها يجعلانها تبدو واضحة جلية لكل إنسان يراها ، كما أن العقيدة صحيحة ودقيقة ومتجردة من كل التعقيدات اللاهوتية ، ومن ثمّ فهى قابلة للفهم من قبل الشخص العادى ، ولا يتطلب لفهمها أن يكون لدى الإنسان قدرات عقلية هائلة^(٢) » .

إن الإسلام لو كان انتشاره قد تم بحد السيف ، ولو كان الناس قد اعتنقوه تحت التهديد والقسر لما أخلصوا له ، ولما حملوا أطفالهم ونشأوهم عليه^(٣) .. إن الذى حدث بالفعل هو أن أحفادهم فى مرحلة معينة أصبحوا هم الذين يشكلون الجزء الرئيسى من الأمة الإسلامية ، وكان منهم العارفون بالدين ، والمتفقهون فيه ، والذين تلمع أسمائهم فى سماء التاريخ الإسلامى ، ومن أمثلتهم البخارى الذى ولد فى (بخارى) بجنوب روسيا والبرازى الذى ولد فى (الرى) بالقرب من طهران عام ٨٥٦ ميلادية ، والعالم التركى الفارابى الذى مات فى عام

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arnold) ص ٣٣٥ .

(٢) انظر السابق ص ٣٤٣ - ٣٥٠ .

(٣) انظر السابق .

(٩٥٠) ميلادية ، وكذا المفسر القرطبي والفيلسوف العالمى ابن رشد ، وهما اللذان ولدا وعاشا فى الأندلس أو أسبانيا الحالية ، وأخيراً وليس آخراً طارق بن زياد^(١) الذى لا يزال اسمه يطلق على جبل طارق ، فقد كان قائداً من البربر^(٢) .

فالإسلام لم ينتشر بحد السيف ، والتاريخ يسجل وقائع وأحداثاً تثبت عكس هذه المقولة ، ونذكر هنا ما سجله المبشر (جون لارسون) (John Larson) فى عام (١٩١٠) من أنه وبمجرد ضمان الحرية الدينية لسكان القوقاز بروسيا القيصرية فى سنة (١٩٠٥) عاد للإسلام جميع الذين سبق أن أُجبروا على اعتناق النصرانية^(٣) .

ولا ريب أننا قرأنا عن المغول الذين اكتسحت جيوشهم آسيا فى القرن الثالث عشر ، وسلبوا مدن بخارى وسمرقند وبلخ وبغداد وتركوا كلاً منها قفراً يباباً ، وأخضعوا الجزء الأكبر من الدولة الإسلامية^(٤) ، لقد تأثر المنتصرون بالدين الإسلامى ، وما لبثوا أن اعتنقوه ، كذلك لقد حوّل أحد الأسرى المسلمين الذين استرقوا بعد ذلك - حوّل الآلاف منهم إلى الإسلام بما قدّمه من نموذج طيب مخلص ، وبعد ذلك ظهرت بعض الممالك المغولية المسلمة فى الهند^(٥) .

ولكى نتحقق أكثر من مجرد انتشار الإسلام وتوسعه من أى شبهة إكراه أو قسر ، دعونا ننظر إلى الوضع الدولى القائم طوال القرون الخمسة الأخيرة : فى هذه الفترة ، صارت الدول الإسلامية فى وضع دفاعى ، بل

(١) طارق بن زياد هو فاتح الأندلس فى عهد الأمويين (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arnold and Guillaum) ص ٣٢٤ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Zwemer) كتاب (أثر الوثنية على الإسلام

ص ٧٥ - ٩٠ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وفى المرجع ص ٢٥ .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) الجزء الثانى ص ٦٧١ - ٦٧٥ .

حتى لقد احتلتها قوى أجنبية ، ومع ذلك ظل الإسلام ينتشر شرقاً وغرباً إلى يومنا هذا ، وأصبح هناك ملايين المسلمين في أمريكا الشمالية وأوروبا ، بالطبع لا يمكن لأحد أن يصدق أن من اعتنقوا الإسلام هنا اعتنقوه تحت تهديد السيف ، كما يدّعيه البعض ممن ليس لهم من الإسلام إلا اسمه ، أو بعض المبشرين الحاقدين على الإسلام .

ولنطرح سؤالاً : إن كانت هذه هي الطريقة التي انتشر بها الإسلام فما شأن تلك الحروب التي قرأنا عنها في كتب التاريخ ؟ وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نتصور شكل المجتمع الإنساني منذ فجر التاريخ ، أليس بحقيقة واقعة أن البشرية قد عانت وما زالت تعاني من الحروب المحلية الأهلية والعالمية ؟ ... وما المدة التي عاشها الناس دون عذابات الحروب ، أو معاناة التهديد بنشوبها ؟ .. إن الحروب عندما تنشب بين الأمم ينعكس تأثيرها على حياة الأفراد والمجتمعات - وكأنها ضرورة لبقاء بعض الناس ، وعليه لا يمكننا استثناء المسلمين من هذه القاعدة ، فعلى الرغم من أن الإسلام هو دين السلام ، وأن الإسلام ملطخ بالحروب والنزاعات والمشكلات التي تمتد أحياناً ليصبح طرفاها جماعات مسلمة ، فنسمع في التاريخ الحديث ونقرأ عن حروب بين مصر واليمن ومنازعات بين الأكراد والشيعة في العراق وإيران .

والقرآن بالطبع لا يغفل حقائق الحياة ، ولا يسأل المسلمين أن ينقلبوا عمياً يستسلمون لمبدأ اللاعنف ، وهم تحت ظروف الظلم والاضطهاد ، إنه يأمرهم بأن يحاربوا دفاعاً عن أنفسهم إذا ما هوجموا حتى يعم السلام ، وكما نرى أن القرآن يلفت النظر إلى إدانة العدوان والبغي تحت أي ظرف : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة آية ١٩٠]

نجده يأمر المسلمين بمنتهى الواقعية بالألا يستسلموا للاضطهاد

وللظلم ، ولكن على أن يتحلوا بتقوى الله وأن يسألوه العون والصراف
المستقيم : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن
اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا
أن الله مع المتقين ﴾ [البقرة آية ١٩٤]

فالقُرآن إذن لا يقول : إن الله معكم أيها المسلمون ، وإنما يقرر أن
الله مع المتقين ، الذين يتقون الله حتى في ظروف القتال الضاري ، إنه
يفرض عليهم أن يطبقوا العدل حتى في ساحة المعركة وفي مواجهة
أعدائهم ، وليس تصرف صلاح الدين والقواد المسلمين الأوائل على
صفحات التاريخ الإسلامى ببعيد : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها
وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ [الأنفال آية ٦١]

ويصدق القرآن على القصاص ولكن وفقاً للقوانين والاحتياطات
الشرعية ، ونادراً ما يفشل في إضافة تعاليم تناسب أى موقف لتخلط ما
بين العدل الصارم والرحمة والشفقة الملائمتين لحاجة الإنسان الماسة
لعون الله تعالى ومغفرته^(١) .

فإذا لم يكن الحافز للجيش الإسلامى فى القرون الأولى للإسلام
هو نشر الدين . فما هو إذن ؟ .. لقد جاء (رودينسون) (Rodinson)
مؤخراً بفكرة تقضى بتسليمه بأن أحداً لم يرغب على اعتناق الإسلام ،
ولكنه رأى أن الجيوش التى خرجت من شبه الجزيرة العربية كانت
جيوشاً طالبة للمغنم والمكسب والقوة الدنيوية ، ثم حدس : « والجزيرة
العربية يقطنها الكثير وأرضها الخصبة لا تكفى أبداً لإقامة أود الحياة
فيها »^(٢) ، ولكن زعماء كهذا يعد هراء ولا يحكم الحقائق العلمية على
الإطلاق وإنما ينبغى أن نسلك مسلك البحث الموضوعى ونتساءل : ما

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٣٢ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) ص ٢٧٣ .

مقدار ما حققه المسلمون الغزاة لأنفسهم ؟ وكيف عايشوا الناس - وهم الحكام - سواء بمصر أو بالشام أو بشمال أفريقيا أو بالأندلس ؟ وما مقدار ما أرسلوه إلى حكومتهم المركزية في المدينة أو في دمشق ؟ وما عدد المدن الجديدة التي تم إنشاؤها في الأراضي التي فتحها الإسلام ؟ وما حجم النفقات على الفن المعماري في قرطبة مثلاً ، أو في غرناطة ، أو في القاهرة ، أو بغداد ، أو في أجرا ، وما عدد تلك المدن في الجزيرة العربية ؟ وما الفرق في ضخامة الموارد المالية للأراضي المفتوحة قبل الفتح الإسلامي وبعده ؟ وسؤال آخر بحاجة ماسة إلى إجابة ، وهو : كم عدد العرب المغامرين في الجيوش الإسلامية الفاتحة ؟ وكم عدد الأتراك والبربر والمصريين والفرس ؟

ومما لا شك فيه أن المعلومات التي تحتويها هذه الأسئلة تحتاج إلى بحث مستفيض ، ولكنها ولا شك أيضاً ستثبت أن الجيوش الإسلامية لم تخرج أبداً من أجل المغنم أو غيره ، وهو ما ينبغي أن نعلمه جيداً ، ومع ذلك كله فإن الحقيقة الأصلية تبقى دائماً ، ويعلمها الدارسون ، وهو أن انتشار الإسلام في الشرق والغرب لم يرتكز إلا على الاقتناع العقلي ، والإيمان الراسخ المتين .

* * *

الفصل الثاني عشر

قانون الأخلاق الإسلامى

عندما أرسل الله تعالى الرسالة - وهو الخالق الوهاب القوى الكريم - إلى الإنسان الذى جعله الله خليفة فى هذه الأرض ، أنزل القرآن ليمثل ثروة هائلة من النصائح الإلهية والتعاليم العلوية ليبين للبشر ما هو طريق الخير وما هو طريق الشر .

إن القانون الأخلاقى الإلهى عال ومثالى ، ومجاله شامل وبعيد المدى ، وهو فى تفاصيله دقيق وحازم ، وموازينه دقيقة وعادلة وحساسة ، وبعد تأثيره وهدفه أمراً ثابتاً دائماً برغم اعتماده فى بعض التفاصيل على المتغيرات التاريخية والجغرافية فى المجتمع .

الوحي فى مقابل الأخلاق النسبية :

تختلف المعايير القرآنية لسلوك الفرد والمجتمع اختلافاً كبيراً عن تلك التى وضعها الإنسان ويغيرها باستمرار بسبب نوع من التخمين الاجتماعى والبحث التجريبي ، فالأخلاق الوضعية والنسبية لا ترى سوءاً أو عيباً فى أن ينقل المجتمع الخط الفاصل بين الخير والشر ذات اليمين أو ذات الشمال ، حسب تغير نزوات المجتمع وأهوائه ، بل بناءً على أفكار قلة من التجمعات القوية على الساحة العامة فيه .

وينظرة إلى أوروبا فى القرون القليلة الماضية نلاحظ أنها نبذت أشياء فى أوقات ، واعتبرتها سوقية مبتذلة وفاحشة ، بل وغير أخلاقية ، ثم روجتها بعد ذلك واعتبرتها موضة !! وهو ما يمكننا التعرف عليه دون زيادة تصريح أو شرح ، ولنتساءل : هل يعنى هذا أن التطور العلمى التقنى مرتبط بالتغير المتصل فى تعهداتنا تجاه أخلاقياتنا ؟ بالطبع لا ،

وذلك أن من يسرق يدان بلا شك سواء فى ذلك من سرق جملاً أو طائراً ، دجاجة أو هليوكوبتر ، شيكلا (Shekel)^(١) أو بنكاً ، سواء سرق بقراً أو بلداً .

ومما لا شك فيه أن تقدم الإنسان خلال آلاف الأجيال قد ضاعف كثيراً من معرفته ، وأقدره على أن يجوب الأعماق السحيقة فى المحيطات وأن يقتحم الفضاء الخارجى ، كما أنه استطاع أن يعالج الذرات ويستخلص مواد جديدة ، وعلى كل من الصعيدين المتناهيين فى الضخامة أو فى الصغر ، فلقد فاق التقدم العلمى والتقنى جميع التوقعات ، وبالرغم من كل ذلك فإن حاجاته الأساسية قد ظلت كما هى ، فهو ما يزال لا يستطيع البقاء دون هواء وماء وغذاء ونوم ، فلماذا إذن يتغاضى عن الحاجات الأساسية لعقله وروحه ويهملها ، بل ويتبرأ منها ؟ ولماذا يتخمر جسده على حين تتضور روحه جوعاً ، وتختنق وتتسمم بسبب التخمة الجائرة من الأخلاقيات الفاسدة التى زعم مسيرتها التقدم ؟

إن عملية التمثيل بجسد القيم الأخلاقية وتغييرها زاعمين أن ذلك (تغيير لا بد منه لمسايرة العصر) ومن أجل مجارة التقدم لا يمكن بأى حال أن تكون صحيحة أو حتى مقبولة لدى العقل المنطقى والذهن النقى وللذوق الصافى المجدول على الخير ، ولا شك فى أن هذا القسر لتغيير الأخلاق يبدو مرتكزاً بزيف على مسائل بيانية منمقة تجعل من السهل أحياناً للإنسان أن يضع حداً لمسئولته عن سعادة الآخرين وخيرهم من أجل مصلحته الشخصية فقط . وعليه ؛ ولكى يبقى الهيكل الحضارى للمجتمع يجب أن نحافظ على القيم الأخلاقية الأصلية .. فالأخلاقيات لا يمكن أن تعتبر عتيقة الطراز على الرغم من أنها قد تبدو هكذا لبعض الناس ، وكذلك لا يمكن وصف الأخلاقيات بأنها نسبية أو شخصية ،

(١) الشيكل : عملة عبرانية قديمة ، وهى أيضاً العملة المتداولة فى الأراضى المحتلة فى فلسطين الآن (المترجم) .

وإنما هي ديناميكية، فعالة ، حيوية ومؤثرة في نمو المجتمع إلى حد كبير.
ويوضح قانون الأخلاق القرآني مدى حكمة الله تعالى ورحمته
وجه للإنسان ، فهو الذي سخر للإنسان كل ما في السموات والأرض :
﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به
من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري بأمره وسخر لكم
الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾
[إبراهيم آية ٣٢ - ٣٣]

كما أنه تعالى لم يحرم عليه الاستمتاع بطيبات الحياة ما دام هناك
اعتدال واتزان : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا
واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي
أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا
خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم
ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير حق وأن
تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾
[الأعراف آية ٣١ - ٣٣]

فكل شيء مسموح به إذن نظرياً عدا ما جاء بصيغة التكليف
والإلزام ، وهو ما ينبغى أن يراعى ، وما جاء بصيغة الحظر والتحريم وهو
ما ينبغى أن يتحاشى ، وكلا الأمرين ينبعث من الإرادة الإلهية للعناية
بالإنسان ككل ، وتحقيق سعادته كاملة بشطريها الروحي والمادى ، وذلك
أن التدريب على مراعاة الأوامر والمحظورات إنما كان ليربى الفرد والضمير
والروح المسالمة مع نفسها ، والشخصية القوية والجسد الصحيح ، أما على
المستوى العام فهو يرسخ في المجتمع قيم الخير والرفاهية والازدهار
والسعادة^(١) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

فالتعاليم القرآنية والاعتقاد بالآخرة هما النبرة الوحيدة التي تحرك
 الوعي والإدراك ، وذلك أن الإيمان الراسخ بيوم الحساب هو الإجابة
 الشافية النهائية لكثير من المشكلات المعقدة في هذا العالم ، ولنضرب
 مثلاً : عندما يتصور بعض الناس أنهم دهاة ومهرة وعباقرة لدرجة تجعلهم
 يفلتون بما ارتكبوا من أعمال سيئة تماماً كتهرّبهم من الضرائب ،
 وكتزويرهم لإرادة الشعوب ، وكتملصهم من كل ما يربطهم بالأخلاق
 .. هؤلاء الناس مخطئون ولا شك ، إذ إنه في النهاية وفي يوم الحساب
 سينكشف كل شيء ، ولن يوكل أحد محامياً أو مستشاراً قانونياً ليدافع
 عنه ، كذلك وبنفس الطريقة سيثاب كل امرئ في الآخرة عما قدّم من
 صالحات في دنياه : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً
 وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله
 نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ [آل عمران آية ٣٠]

وبذلك تبقى الحيوية صفة مميزة للضمير المسلم ، وكيف لا وهو في
 ذلك الربيع الروحي الدائم المستمد من الصلوات الخمس ، والتي تستغرق
 الواحدة منها دقائق معدودة ويمتد وقت أدائها كلها من الفجر إلى ما بعد
 الغروب ، مما يدعم الرابطة الفعلية بين روح المؤمن وربه ، وهو مصدر
 الهداية الغامرة والراحة السابغة وذلك طوال اليوم ودائماً : ﴿ اتل ما أوحى
 إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر
 ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ [العنكبوت آية ٤٥]

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾

[البقرة آية ٤٥]

﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع

[البقرة آية ١٥٣]

الصابرين ﴾

﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾

[البقرة آية ٢٣٨]

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ﴾

[البقرة آية ٢٧٧]

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾

[البقرة آية ٢٨٦]

التصرف الإنساني والوازع الأخلاقي والحكم الإلهي :

ولكى تتسنى لنا مقارنة قوانين الأخلاق يجب أن نحسم هذه النقطة ونتناولها بالمناقشة خاصة إن كان من بين أطراف المقارنة القانون المدني . فنحن نلاحظ أن الجرائم التي ترتكب في ظل النظام التشريعي الوضعي تتراوح عقوبتها بين درجات كثيرة ومختلفة من الصرامة والحزم ، ونادراً ما نلاحظ ثواباً بين بنوده لأعمال الخير والإحسان ، وإنما يتم المرور عليها مر الكرام ، ولا تؤخذ في الاعتبار إذ لا تعتبر أخبار أعمال الخير للأسف أخباراً على الإطلاق .

ونحن نعرف أن قانون الأخلاقيات والقيم يغطي جانب كل من الصواب والخطأ ، وأن أعمال الخير يجنّدها المجتمع ويمتدحها وينشرها بين الناس ويكرّمها في المهرجانات ، على حين أنه على النقيض تماماً مع أعمال الشر ، فهو يزدريها ويحتقرها ويسعى إلى دفنها بعيداً عنه ، ولكننا هنا بصدد قانون آخر مختلف هو القانون المدني الذي يحكم على التصرف من منطلق ما يراه الرأي العام بحيث إن من فعل خيراً أو شراً أو نطق به لن يسقط أبداً تحت طائلة القانون طالما ظل فعله في إطار بيته وبصورة شخصية بعيداً عن الناس ، وعليه فلن يداخ ويدخل في ساحة

القضاء والمحكمة ، أما إن كان ما يفعله أو يقوله على الملأ ويتعدى تأثيره حدود ذاته فإنه ينقد أو يشجع وفق نزوات المجتمع فقط ، ولا ريب أن هذا هو ما تعلمناه من درس التاريخ ، فإن مقاييس القضاء والحكم باتت تتغير كثيراً عبر القرون ، فعلى سبيل المثال : كان المواطن الروماني يعتبر امتلاكه لعدد من العبيد الأقوياء مبعثاً للفخر والمباهاة بين مواطنيه ، وكمثال آخر فقد أصبح الكثير من الشعوب الإسلامية والمسيحية الآن يستنكرون احتساء الخمر والتدخين وهو ما يعد أمثلة واضحة على تغير القيم الوضعية والنسبية عبر العصور .

إن القانون الأخلاقي السامى كما وضعه القرآن لهو المثال فى الثبات والاتزان والعدل وله تأثير ومدى بعيدان ، وبه يرضى القلب النقى ، ويطهر الإدراك الحقيقى ويهدأ ، إذ إنه كالعقيدة التى لا تختلف بتاتاً وفق حالة الفرد أو المجتمع ، وهى تسمح بالخير وتشجعه ، وتدين الشر والأعمال المشينة وتستنكرها ، هذا فضلاً عن تنشيط حس الناس - رجالاً كانوا أو نساء - بحيث تجعلهم يشعرون وكأن الوازع والحكم ينبعث من جوانبتهم . .

وليس لأى إنسان أن يكون قديساً ، والطبيعى جداً أن تظهر عصابات الإجرام والشر فى كل المجتمعات ، إلا أن هؤلاء وفى ظل المجتمع الإسلامى المثالى يخضعون للمراقبة اليقظة والحريصة من الرأى العام الذى يصفئهم فى وضع يكونون معه محرجين أمام جمهور الأمة المؤمنة القوية ﷻ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴿ [آل عمران آية ١٠٤]

فوجهة القرآن الأخلاقية وجهة شاملة متكاملة ، لأنها تصهر كلاً من الإيمان بالله وحقوق الدين ومراقبة النفس والعلاقات الاجتماعية والأفكار العقلية ، بل وعادات تناول الطعام وطريقة المخاطبة وآدابها ، ونواح أخرى كثيرة فى الحياة الإنسانية - تشملها جميعها فى عنايتها ،

فهناك آيات تدعو إلى الطهارة والعفة مثل : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من
أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون
* وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدین
زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين
زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء
بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما
ملكتم أيمنهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين
لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين
من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾

[النور آية ٣١ - ٣٢]

وكذلك آيات تدعو إلى الأمانة كآية الدين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا
إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب
بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي
عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق
سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملل هو فليملل وليه بالعدل
واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان
من ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى
ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى
أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون
تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ،
وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق
بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴾ [البقرة آية ٢٨٢]

وإلى التأدب تدعو الآية : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها
أو ردوها إن الله على كل شيء حسيب ﴾ [النساء آية ٨٦]

وتدعو واحدة إلى المسالمة والمصادقة والتعارف : ﴿ يا أيها الناس إنا

خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم
عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴿ [الحجرات آية ١٣]

﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين
عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ [آل عمران ١٣٤]

وإلى الإحسان وبذل الخيرات : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً
وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى
والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن
الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ [النساء آية : ٣٦]

وإلى الشجاعة والجرأة : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد
جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾
[آل عمران آية ١٧٣]

وهذه آية تدعو إلى تحرى الصدق : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله
فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا
الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ [الحج آية ١٣٠]

وهذه أخرى تدعو إلى الصبر^(١) : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف
والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾
[البقرة آية ١٥٥]

ثم لنقرأ الآية : ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه
الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شيء قدير ﴾
[آل عمران آية ٢٩]

ولنعلم أن القرآن يخبر المسلمين أن الله العليم البصير يحكم على
كل ما يصدر عنهم ، حتى ولو كان قولاً أو فكراً ، ويقضى فيه بعدالة

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Galwash) الجزء الثانى ص ١١٥ - ١٤٠ .

مطلقة : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾
[النساء آية ٤٠]

ولا يطلب القرآن أيضاً أو يتوقع من الإنسان أن يفعل المستحيل ، ولكن على المؤمن أن يبذل غاية جهده فى سبيل الله الرحمن الرحيم ، الذى لا يحمله أى مسؤولية عن الأخطاء الناجمة عن الجهل ، أو تلك الأخطاء غير المقصودة ، وكذلك لو حاول المؤمن أن يفعل الخير ، ولكن لسبب أو لآخر خارج عن إرادته لم يتمكن من فعله ، فإن الله تعالى بكرمه يثيبه على نيته الطيبة وعلى مجهوده ، وكذلك يتوب عليه لو خضع لإغراء بارتكاب معصية ثم رجع عنها وأتاب : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ [النساء آية ١١٠]

﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾
[النساء آية ١٢٤]

ولقد أوسع الدارسون اهتمام القرآن الكريم بالتقوى وبالاستقامة بحثاً وتدقيقاً ، وتأملوا فى أسلوب النصيح فيه ، وفى طريقة ذكر الله مع أداء الشعيرة الإسلامية : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [البقرة آية ١٧٧]

ومن المؤكد أن القانون الأخلاقى الإلهى والاستقامة ؛ وقد حرص القرآن على بثهما فى وعى المؤمن وعقله ، يتوغلان إلى عمق أكبر من تلك القوانين السلوكية الوضعية الناتجة عن تجربة عشوائية مرت بها بعض المجتمعات ، وذلك أن المؤمن يدرك دقة الحساب الإلهى لأعمال البشر ، كما يدرك مدى ما ينبغى له من الحذر ليجعل من ضميره وازعاً حقيقياً ،

إلى جانب الإيمان بعظمة الشرع الإلهي ، وكرمه ، وعدالته ، في مقابل
أى قانون أخلاقي لأى مجتمع ذى معرفة وتجربة محددين .

ومن الصعوبة بمكان - بعد قراءتنا للآيات السابقة - أن نتصور
وجود أى أساس للاتهامات الخطيرة للقرآن الكريم التى تزعم بأنه « خال
من الأخلاقيات »^(١) أو أن « كل الرذائل المعروفة قد صورت فيه بشكل
جنونى بارز واعتبرت وكأنها فضائل » وهى صورة لا تليق بكتاب
مقدس^(٢) !!! ولا مجال للشك فى أن أمثال هذه الاتهامات لا تشكل
بأى حال من الأحوال الرأى السائد لجمهور المستشرقين ، على الرغم
من أنها قد جاءت على لسان قلة من الدارسين المعروفين ، فليس غريباً
إذن أن نجد فى نفس الدائرة الثقافية إعجاباً شديداً بالأخلاقيات المنزلة ،
وبالقيم العميقة الجادة ، وبالحكمة السديدة ، وبتمودج المفاهيم الأساسية
اللازمة لإنشاء مجتمع متحضر جاء ذكره فى القرآن^(٣) ؟

وقد يجب على الإنسان وهو ذلك الكائن المفكر أن يكون له رأيه
الخاص ، ولا يتبع رأياً ، أى رأى دون مناقشة .. ، وأن يغوص فى أعماق
القرآن ليدرس كل آية فيه ، ويستخرج الأخلاقيات المستمدة منها
ومقارنتها بتلك التى تم التعارف عليها فى كل المجتمعات القديمة
والحديثة ، كل هذا للأسف بعيد عن ميدان بحث هذا الكتاب ، كما
أنه لا يصح التحديث عنه فى مجرد فصل واحد ، إذ إن هذه الدراسات
تغطى حقلاً يحوى علوماً كثيرة كالفقه والتفسير والشريعة ، وقد بلغ

- (١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفى المرجع انظر ص ٨٤ ، وتحت
(Gairdner) وفى المرجع انظر ص ٢١٤ ، وانظر أيضاً تحت (Watt) كتاب (محمد النبى
والحاكم) ص ٣٣ ، ثم انظر تحت (Sommer and Zwemer) وفى المرجع انظر ص ٣١ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ١٤٠ - ١٥٠ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Cragg) كتاب (النداء من المنارة) ص ١١ ،
وكذلك انظر تحت (Gibb) كتاب (دراسة للحضارة الإسلامية) ص ١٩٧ ، وتحت
(Hughes) وفى المرجع انظر ص ٦ ، وكذلك تحت (H.G. Wells) وفى المرجع انظر
الجزء الأول ص ٤٥٠ - ٥٠٠ .

عدد الكتب التي تتحدث عنها ، وفي كل منها آلاف الكتب ، لآلاف المؤلفين الذين أفنوا أعمارهم في سبيل وضعها ، ومنهم من كان من داخل العالم الإسلامي ، ومنهم من كان من خارجه . ومع ذلك يمكننا أن نستقى الخلاصة بدراسة الآيات القرآنية المتعلقة بباب معين من الأخلاقيات في المجتمع :

﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ [الأنعام آية ١٥١-١٥٢]

موضوع الصحة الخلقية والعقلية والجسمية :

تبدو الآيات القرآنية وكأنها عدد من المنارات اللامعة القوية التأثير ، تشع ضياء من التقوى والاستقامة لترشد الورعين الأتقياء في هذا الخضم الحياتي . والقرآن ينصح - وهو في هذا على النقيض تماماً من الحرية الجنسية الكاملة والانحلال في الأزياء في مجتمعات معروفة - بل هو يفرض على الرجال غض البصر ، ويفرض على النساء أن يتبعن هذه النصيحة ولا يبدن زينتهن إلا لأزواجهن وللمحارم : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نساتهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو

الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن
ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم
تفلحون ﴿ [النور آية ٣٠ - ٣١]

فلا بد أن يكون للرجال وللنساء قيم ومثل عليا تحكم تصرفاتهم ،
فإن حدث وبدأت القيم الدنيا الحقيمة في البزوغ فما عليهم إلا أن يطلبوا
المساعدة من الله تعالى ، ومن ثم يكون التذكر : ﴿ إن الذين اتقوا إذا
مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾
[الأعراف آية ٢٠٠]

ويحذر القرآن أيضاً المسلمين بألا يقاربوا أو يستدرجوا إلى جريمة أو
تصرف لا أخلاقي ، لتأكده من تأثيرهما الهدام المخرب على الأخلاقيات
والصحة الجسدية في حياة كل من الفرد والجماعة : ﴿ ولا تقربوا الزنا
إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ [الإسراء آية ١٣٢]

﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً
وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم
ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم
الله إلا بالحق ذلك وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ [الأنعام آية ١٥١]

كما يولى القرآن أهمية كبيرة للزواج ، ويرى أنه لا يمكن تحقيق
السعادة الحقيقية والزفاهية للمجتمع إلا من خلال وقاية شرف الأسرة
والفرد والذي تهدده الممارسة غير الشرعية للجنس تهديداً خطيراً ، وعلى
ذلك فقد جاءت العقوبات التي نص عليها القرآن لأولئك الذين
ينغمسون حتى شحات آذانهم في مثل هذه الجرائم الحقيمة - عقوبات
صارمة بدرجة كافية لتروعهم عندما يقعون تحت طائلة مغرياتهما .

وفي القرآن العديد من الآيات التي اهتمت بالصحة العقلية
وبالطريقة المنطقية للتفكير ، وهي تدعونا إلى التأمل في آيات الله في

الكون من حولنا : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [البقرة آية ١٦٤]

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ [آل عمران آية ١٩٠]

وتدعونا كذلك إلى التعلم بدراسة الظواهر الطبيعية ، وبدراسة تاريخ الأمم والقراءة في كل ما يفيد : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق آية ١ - ٥]

﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ [القلم آية ١]

﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ [الزمر آية ٩]

إن من يقرأ القرآن يدرك مدى اهتمامه بإيقاظ وإنماء المنطق السليم عند الإنسان ، ويجد في آياته العديد مما يستحث على التفكير والمقارنة المنطقية . لنقرأ مثلاً المواضع التالية :

فرداً على من زعموا أن الرسول ﷺ هو مؤلف القرآن ، يقول القرآن : ﴿ ... فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة آية ٢٣]

ورداً على من أنكر البعث وإمكانه ، حثه على النظر إلى الأرض التي كانت مجدبة ثم اخضرت وأينعت يقول : ﴿ ... إن الذي أحياها نحى الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ [فصلت آية ٣٩]

وردأ على من زعم أن الملائكة إناث يتساءل القرآن : ﴿ ... أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ [الزخرف آية ١٩]

وفى العديد من الآيات يحض القرآن على النظر والتفكير والقياس للأمر وللخلق فى السموات والأرض .

والى جانب الاهتمام بقوى الإنسان العقلية المختلفة فقد حظيت صحة الإنسان وغذاؤه ونظافته وملبسه باهتمام بالغ فى مضمون تعاليم القرآن : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾

[المائدة آية ٦]

فبدافع التقوى يحافظ المسلم على طهارة جسمه وملابسه ومسجده ومحل إقامته حتى ولو كانت هناك أزمة حادة فى المياه، فهو عمل تعبدي لله : ﴿ ... إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ [البقرة آية ٢٢٢]

فما أبعد أولئك الأفراد وتلك المجتمعات الإسلامية التى تحيا قدرة وسط الأوحال والأدران برغم وجود الماء وتوفره - ما أبعدهم عن روح الدين ، وما أكثر نسيانهم لعقيدتهم ، وما أعظم عصيانهم ومخالفتهم لتعاليم القرآن !! ذلكم هو ما رآه كاتب (كمينيزس) (Menezes) فى حياة المسلمين وواقعهم فأصدر حكماً خاطئاً على الإسلام ، واندفع قائلاً : « إن الإسلام يعيش بين الأوساط الأكثر قذارة واتساعاً » (١) .
وياله من تصور سقيم !!

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) ص ١٤٠ - ١٥٠ .

ولا تنحصر العناية القرآنية بطهارة الإنسان الخارجية فحسب ، وإنما هناك أيضاً عادات الحمية وتحريم الطعام المؤذى ، وخاصة تلك الأنواع من اللحوم المحرمة ، وكذلك تجنب المسكرات ، وقد يرفع التحريم تحت ظروف المجاعة ، وهو ما يمكن الحكم عليه فقط من خلال وعى مسلم خالص : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾

[البقرة آية ١٧٣]

إن عادات الحمية الإسلامية والصوم لها تأثير أكبر من كونها فائدة لصحة الإنسان الجسمية ، فهي تزيد من حيوية ضميره ، كما أن المؤمن عندما يأكل وجبة أو يشرب شراباً يشكر ربه على نعمه ، وعلى منحه إياها ، وعلى إعطائه القدرة على هضمها ، وهو يعلم أن إنتاج خضراوات وفاكهة من تربة وماء عملية إلهية بحتة ، حيث إنه يعد التربة ويحرثها ويذر الحب فيها ويرويها ، أما عملية نمو النبات الفعلية فهي عملية إلهية ، هذا على الرغم من الخطوات العملاقة في مجال العلوم والتقنيات ، إذ إن الإنسان لا يزال يعتمد اعتماداً كلياً على الأرض في الحصول على طعامه .. وهو يستطيع صناعة الألياف والمواد الصناعية كبديل للقطن والجلود ، ولكنه لا يمكنه صناعة مواد صناعية تحل محل الخضر والفاكهة ، ويلغى بذلك دور التربة والماء والشمس .

وليس الغذاء الإسلامى للعقل والفكر بأقل أهمية ، فالاستقامة والكلمات والأفكار البناءة مستحبة ، أما الفساد الخلقى والابتذال والسوقية فلا يسمح بها تحت أى ظرف من الظروف : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾

[الفرقان آية ٦٣]

فالمؤمنون مأمورون بالتقوى ، وإذا تكلموا تكلموا دائماً بالكلام السديد : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا

عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴿ [النساء آية ٩]

وَأَلَّا يَنْغَمِسُوا فِي اللَّغْوِ : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ [القصص آية ٥٥]

أما أولئك الذين يريدون إشاعة الفواحش بين المؤمنين ، فهذه الآية تبين موقفهم : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾

[النور آية ١٩]

الكسب والإنفاق :

لقد توغلت الأخلاقيات حتى في الحياة الاقتصادية ، وجعلتها مستقرة على قاعدة صلبة من التعاليم الإلهية ، فإن تكسب قوت يومك من عمل شريف ليس فقط أداء لمهمة ، ولكنه فضيلة عظيمة تقف جنباً إلى جنب مع أعمال العبادة والتقديس وتكمل إيمان المسلم : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾

[المؤمنون آية ٥١]

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ [فصلت آية ٣٣]

ويجب على المسلم أن يعتمد على نفسه ، وينهض بأعبائه بذاته ، فالطبيعة مسخرة لخدمة الإنسان الجريء الشجاع الذي يستثمر كل المصادر المتاحة له فيها : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ [الملك آية ١٥]

وبمجرد أن يمتلك الفرد - رجلاً كان أو امرأة - شيئاً بطريقة شرعية وقانونية ، فإن الدولة أو المجتمع ليس لهما الحق في ادعاء ملكيتهما لهذا الشيء أو جزء منه ، فالإسلام - على عكس المذهب الشيوعي - قد

استبدل بالتأييد الزائف لديكتاتورية الدولة حب الله تعالى ، ذلك الحب الذى يحظر وضع النظريات التى تحارب الأخلاق والتعاون الأخوى والمسئولية المشتركة بين الفرد والمجتمع ، وبين الأغنياء والفقراء .

وعلى الجانب الآخر يوفر الإسلام الحماية الكاملة ضد الجشع الرأسمالى والاستغلال الذى لا يرحم العمال^(١) ، فهو إذن لا يؤله الإنسان ومملكته ، كما لا يؤله طبقة البروليتاريا ويلغى العمل الحر .

إن الإسلام يقبل الإنسان بصورته التى خلقه الله عليها ، ويضع فى اعتباره طموحه الغريزى وقدراته المحدودة .

كما يلح الإسلام طلباً للأمانة فى كل الأعمال ، والأمانة تشتمل على الصراحة والعدل والشرف : ﴿ ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾

[المطففين آية ١-٦]

ويشجب الإسلام الغش ، ويرفض الربا الفاحش وهو أخذ الفائدة مقابل إقراض المحتاجين : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

[البقرة آية ٢٧٥]

ولنعلم أن هذا التحريم للربا يسرى أيضاً فى حالة كون المدين معتقاً لدين آخر ، فإن حدث وأصابه طارئ منعه من سداد دينه ، فلا بد من إعطائه مهلة حتى تتحسن أحواله : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾

[البقرة آية ٢٨٠]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

ولعل هذا يبدو مناقضاً تماماً لما جاءت به المجتمعات القديمة من تقليد ، وهو تهديد المدين وعائلته بالاسترقاق والعبودية إن هو عجز عن السداد^(١) ، وحسبنا أن نقرأ هذا النص من العهد القديم : « أما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم ، منهم تقتنون عبيدا وإماء . وأيضاً من آباء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكاً لكم » (سفر اللاويين - الإصحاح الخامس والعشرين ٤٤ - ٤٥)

ويدين الإسلام أيضاً حبس ومصادرة الأموال والممتلكات ، كما نرى في بعض الحالات في عصرنا هذا^(٢) .

ومن خلال تقديم المحظورات ، ينصح القرآن الإنسان بأن يحفظ العهد والأمانة : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ (المعارج آية : ٣١ - ٣٢)

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ [النساء آية ١٣٥]

ومع أن الإنسان قد يجد تشجيعاً في القرآن دائماً على أن يعمل ويكافح في سبيل تحسين أحواله المعيشية والمادية ، إلا أن الملاك يذكرون على الدوام بحقيقة أنهم مجرد موظفين ومعينين من قبل الله سبحانه لرعاية ممتلكاتهم التي آتاهم الله من فضله ، إذ إن الإنسان يأتي إلى هذه الدنيا صفر اليدين ، ويتركها كذلك أيضاً ، أما المالك الحقيقي والفعلي والدائم أبداً فهو الله تعالى وحده ، الذي يهيمن على كل شيء في

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Roberts) وفي المرجع انظر ص ٩٥ - ١٠٥ .
(٢) وهو أمر دعت إليه الشيوعية البائدة ، وتبنته نظم دكتاتورية قامت في العالم الثالث ، وسقطت الشيوعية وبقي أن تندثر هذه النظم الخارجة على شرع الله (المترجم) .

السماء والأرض : ﴿لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير﴾
(البقرة آية : ٢٨٤)

وعلى ذلك فالتصدق على الفقراء والمحتاجين يعنى إعطاءهم قسمهم الحقيقى من الثروة التى منحوها عن طريق الأغنياء ، وهذا أمر إلهى : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير * وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾

[الحديد آية ٧ - ٨]

أما الإرث فعندما يتم تقسيمه فإنه يوزع بين الورثة وفق نسب حددها الله سبحانه : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً * ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فللكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حلیم * تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾ .

[النساء آية ١١ - ١٣]

فإن حضر القسمة أحد من المحتاجين أو اليتامى ، فإن الورثة
مأمورون بضمان رزق له من التركة ، وأن يقولوا له قولاً معروفاً : ﴿ وإذا
حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا
لهم قولاً معروفاً ﴾ [النساء آية ٨]

كذلك يعلم القرآن المسلمين أن يؤتوا الصدقات مما أعطاهم الله ،
وأن يخرجوها راضين سعداء خاشعين ، لا متدمرين كارهين لها ، وألا
تكون مصحوبة بنوع من الرياء والسمعة أو بالمن والأذى : ﴿ قول معروف
ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حلیم ﴾ [البقرة آية ٢٦٣]

وبجانب الصدقات وإيتاء الزكاة يحدد القرآن الحد الذي لا يخرج
عن نطاقه صرف الأموال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا
تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ [الإسراء آية ٢٩]

ولقد ذكرنا في الفصل العاشر أن إيتاء الزكاة ركن أساسى ، وعمود
من عمد الدين الخمسة ، مفروض دفعها على كل قادر ممن يملكون
نصاباً محدوداً ، وقد تجب الصدقة على من يملك قوت يومه فقط ،
وذلك عندما تأتى نهاية شهر رمضان ، فيجب حينئذ على رب كل أسرة
لديها ما يفوق حاجتها ليومها أن يخرج مقداراً من ماله للمحتاجين وفق
عدد من يعول - زوجته وأطفاله وأبويه المقعدين ، بل وأطفاله الرضع -
وهو ما يعد عرفاناً ولا شك بفضل الله على ما منحه من حياة وعافية لكل
فرد فى الأسرة ، فضلاً عن طبع المجتمع بطابع من الأخوة الروحية التى
لا تنفصم لها عرى .

والزكاة ليست مجرد واجب مدنى تفرضه الدولة على الرأسماليين
فيها وفق قانون وضعه الإنسان ، ويسهل على البعض أن يراوغ فى أدائه ،
أو أن يخرقه ويهمله ، ولا هى مثل الضرائب أو العشور^(١) ، أو كالتى

(١) العشور هو جمع عشر، وهو عشر الغلة أو المال الذى يؤخذ ويدفع للكنيسة. (المترجم)

فرضها الملوك القدامى على شعوبهم مكافأة لأنفسهم على حكمهم للناس فردياً^(١) ، بل إنها على العكس تماماً - منحة دينية يحكمها الضمير المؤمن ، والله هو الحكم والشهيد فى الدنيا وفى الآخرة .

ولقد حرّم القرآن الكريم بذاته المساس بالملكية الفردية للرجل وللمرأة على السواء ، وفرض احترام هذه الملكية طالما جاءت بطريق شريفة ، وعليه فقد تم تشريع عقوبات صارمة قاسية على كل من يأتى بجريمة السرقة أو السلب أو قطع الطريق أو الرشوة بغض النظر عن عقيدة كل من السالب والمسلوب ، وهو ولا شك ما يتميز به الشرع الإسلامى عن المعتقدات القديمة ، تلك المعتقدات التى قصرت اعتبار التجريم على كون الجريمة ضد القريب ، وأباحتها ، بل وأغرت بها فى حق غيره : «إذا وجد رجل قد سرق نفساً من إخوته بنى إسرائيل واسترقه وباعه يموت ذلك السارق فتنزع الشر من وسطك» (التثنية - الإصحاح الرابع والعشرين - ٧) .

« لا تقتل ، ولا تزن ، ولا تسرق ، ولا تشهد على قريبك شهادة زور ، ولا تشته امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك » (التثنية - الإصحاح الخامس ١٧ - ٢١)

ومن ثمّ تعتبر هذه الجرائم أفعالاً شائنة وشنيعة فى حق قواعد الدين ، وليست مجرد جرائم يفرض القانون الوضعى عقوبتها ، أو يخفف تلك العقوبة ، أو حتى يمكن أن يتهرب منها . هذا بالنسبة إلى شرائع أهل الكتاب . أما بالنسبة إلى الشريعة الإسلامية فإن الأمر جد مختلف ، وتشير الدراسات المعنية بالتشريعات القرآنية ، والتى قام بإعدادها صفوة من الدارسين المسلمين ، إلى أن عقوبة قطع اليد لا تطبق على كل جريمة

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sweetman) وفى المرجع انظر ص ٧١ .

سرقة ، إذ لكي يستحق السارق هذه العقوبة القاسية لا بد وأن تترك له فرصة الدفاع عن نفسه ، كما ينبغي ضبط المسروقات والتأكد من أن قيمتها فوق قدر معين ، وكذلك لا بد أن يكون القاضى مقتنعاً تماماً قبل إصدار الحكم ، وقد يحدث كذلك ألا تكون هذه العقوبة ملائمة حيث تكون السرقة تمت ، وكان طرفاها - السارق والمسروق - من نفس الأسرة ، أو حين تكون السرقة قد تمت لسد جوعة محتاج إلى طعام ، ذلك أن أمثال هذا المحتاج تكفل لهم العدالة الاجتماعية فى ظل الحكم بالشرعية الإسلامية مستوى من المعيشة والرفاهية بغض النظر عن أديانهم التى يعتقدونها .

أما أولئك الغربيون الذين يتباكون على ما أصاب اللص المسكين من قطع يده ، ويصفون العقوبة بالوحشية والهمجية ، فهم يمنحون أولوية ظالمة جائزة لتدليل فرد معروف أنه مجرم على حساب الأمن والطمأنينة للمجتمع كله .

ولقد أعجب أناس كثيرون ممن قضوا فترة من أعمارهم بدولة كالمملكة العربية السعودية ، والتي تطبق فيها الشريعة الإسلامية - بما فيها من أمان تام ، لا يشوبه أى تهديد للحياة الإنسانية وللممتلكات وللأعراض ولل منازل وللأعمال وللطرق ، حتى ولو كانوا فى وسط الصحراء ، وهو ما يفتقده نهراً وليلاً كل من يعيش فى أى مدينة كبيرة بالغرب^(١) ، وعليه فدولة كالسعودية نادراً ما تحتاج إلى أن تطبق تلك العقوبة إذ إن تطبيقها العملى ولو لمرة واحدة يمنع كل إنسان من المساس بما يملكه غيره^(٢) .

وهكذا يعم جو السلام أرجاء البلاد دون حاجة إلى أقفال أو أجهزة أمان معقدة ، أو إلى قوة هائلة من الشرطة .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry) كتاب (جوانب للحضارة الإسلامية) ص ٤١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Galwash) الجزء الثانى ص ١١٥ - ١٤٠ .

والآن ؛ ما أعظم الاختلاف فى الصورة من كافة نواحيها ، فهناك مدن ضخمة فى الغرب ، ولكن لا يشعر كثير من الناس فيها بالأمان والاستقرار ، فيهرعون إلى احتجاز أنفسهم فى منازلهم قبل الغروب ، ولا يسمحون لزائر بالدخول قبل التأكد عدة مرات من شخصيته ، ولنسأل كم عدد أولئك الذين يعيشون تحت تهديدات السطو والسلب والاعتصاب والاختطاف بل والاعتقال ؟

حياة الأسرة :

تتمتع الأسرة فى الإسلام بوضع متميز ، إذ هى تعد اللبنة الحية الأكثر أهمية فى صرح المجتمع ، فهى مجموعة من روابط الدم والنسب ، والتي تستلزم الرعاية المتبادلة للحقوق والواجبات ، فيما يتعلق بالهوية والرزق والنصح والإرث والحب والعناية بالصغار وكذلك الأمان للمسنين . ولقد أخذ القرآن على عاتقه تناول النواحي المختلفة لحياة الأسرة ، بما فيها الزواج والطلاق والعلاقات بين الأبناء والآباء وحقوق الأرمال والأيتام والميراث والتبني ، بل والرضاعة الطبيعية وما يترتب عليها . وفى آياته وفى السنة المشرفة مادة عزيزة وعظيمة عن القانون الإسلامى والأخلاقى الذى تركز عليه هذه الموضوعات^(١) ، وقد لا نكون منصفين حقاً إذا نحن حاولنا تغطية كافة هذه الموضوعات بما لها من فروع ونقاط فى فصل أو قسم واحد ، فالحق أن هذه الموضوعات قد تم تناولها فى مجلدات ضخمة وكثيرة بالعربية ، ولعله يعد كافياً أن نعلق على الآيات القرآنية المتعلقة بكل باب منها على حدة .

الزواج :

ينظر الإسلام إلى الزواج على أنه واجب دينى ، الهدف منه هو الحماية الأخلاقية ، وعلى أنه تعهد اجتماعى بين شريكين ، يتعهد كل

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب هيكل (الأسرة فى الإسلام)

منهما أمام الله تعالى وأمام الآخر بأن يقيما معاً حياة سوية مستقيمة تركز على تحقيق الأخلاق وتحقيق الذات والحب والسلام والإخلاص والحنان والراحة والهدوء والأمل ، فهو عهد التحدى لإقامة الحياة والمجتمع بصورة كريمة ، وذات معنى ، وهو عمل من أجل التقدم المتواصل للإنسانية .

فالزواج فى الإسلام ليس طقساً من الطقوس الدينية المحضة ، ولا هو مجرد عقد مدنى ، إنه فوق ذلك بكثير ، فهو رابطة إلهية ، واتفاقية مقدسة بين رجل وامرأة يشهد الله عليها أولاً ، وتحمل اسمه تعالى قبل كل شىء طاعة له وإذعاناً وخضوعاً لأوامره ، وبمقتضاها يتحمل الزوجان المسؤولية بالتساوى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴾ [البقرة ٢٢٨]

ويرفض الإسلام تماماً أنواع الزواج المزعومة ، كأن يفتح باب الزواج على مصاريعه بين المجموعات وهو ما نراه سارياً فى بعض المجتمعات التى تزعم التحضر^(١) .

ويأمر الله الزوج بمعاشرة زوجته بالحسنى وأن ينسجم معها ، وأن تكون إحدى مسؤولياته المؤكدة كفالتها ، كعهد التزام يتم تنفيذه بسعادة وبلا تأنيب أو إيذاء وبلا طريقة تشعره بالتفوق وبالهبوط إليها من عل^(٢) ، كذلك يتم تنفيذه بتفهم وعفو وحب ولطف ، وإذا أخطأت الزوج فإن الرجل مأمور بمعاملتها بصبر وأناة ، فضلاً عن عدم إيذائها : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وكذلك انظر تحت (Abu - Sa'ud)

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ra'uf)

فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴿

[النساء آية ١٩]

ويجب على الخاطب أن يمهر زوجته المقبلة طاعة لله تعالى ،
ويكون المهر وفق طلبها ووفق قدراته وإيماء منه إلى أنه يريد لها ويحتاج
إليها ، ودليلاً على استعداده للقيام بكل مسؤولياته ، وضماناً لأمانها معه ،
وبرهاناً على عدم ابتغائه لهدف مادي من ارتباطه بها .

وتقوم الزوجة باعتبارها شريكاً في الحياة الزوجية - بدور رئيسي هام ،
هو الإسهام في نجاح الزواج ، وتحقيق سعادته بقدر الإمكان ، وذلك
ليبقى زواجاً مستقيماً وقائماً على الدين والحب والاحترام ، كما يجب
أن تطيع زوجها في الحلال ، وأن تحصر همها الأكبر في تربية الأطفال
وتنشئتهم بأحسن صورة ، وأن تضيء على المنزل لمسات السرور والراحة
والسعادة . ويبدو دور الزوجة واضحاً جداً في الآية القرآنية التي تصف
عباد الرحمن ، وهم يدعون ربهم : ﴿ يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا
وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾ [الفرقان آية ٧٤]

أما عن المهر وما تكسبه الزوج فهو لها ، ولا حق لزوجها في جزء
منه حتى بعد دمج الموجودات أو غيرها واختلاطها ، وهو ما جاء على
النقيض تماماً مما أتت به بعض التقاليد القديمة فيما تقرر في الكتاب
المقدس : « ... وإن كانت لزوج ونذورها عليها أو نطق شفيتها الذي
ألزمت نفسها به ، وسمع زوجها فإن سكت في يوم سمعه ثبتت نذورها
ولو أزمها التي ألزمت نفسها بها تثبت ، وإن نهاها رجلها في يوم سمعه
فسخ نذورها الذي عليها ونطق شفيتها الذي ألزمت نفسها به والرب
يصفح عنها ، أما نذر أرملة أو مطلقة فكل ما ألزمت نفسها به يثبت
عليها ، ولكن إن نذرت في بيت زوجها أو ألزمت نفسها بلازم بقسم ،
وسمع زوجها فإن سكت لها ولم ينهها تثبت كل نذورها وكل لازم
ألزمت نفسها به يثبت ، وإن فسخها زوجها في يوم سمعه نكل ما خرج

من شفيتها من نذورها أو لوازم نفسها لا يثبت قد فسخها زوجها والرب يصفح عنها ، كل نذر وكل قسم التزام لإذلال النفس زوجها يثبتته وزوجها يفسخه ، وإن سكت لها زوجها من يوم إلى يوم فقد أثبت كل نذورها أو كل لوازمها التي عليها أثبتها لأنه سكت لها في يوم سمعه ، فإن فسخها بعد سمعه فقد حمل ذنبها « (سفر العدد - الإصحاح الثلاثون ٦ - ١٥)

كذلك نرى في بعض الأعراف المعاصرة حقاً للزوج في مهر زوجته، وذلك على خلاف ما قرره شريعة الإسلام .

الزيجات المحرمة :

لقد أشار القرآن بوضوح وتفصيل إلى علاقة الدم التي تحرم الزواج: ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ [النساء آية ٢٣]

وكذلك توجد بعض العلاقات التي تحرم الزواج كعلاقة الظئر ، وهي المرضعة التي ترضع أولاد غيرها ، فهي تعتبر أما لمن أرضعت ، كما جاء في القرآن الكريم أيضاً بتحريم منطقي لعادة سادت بين العرب قبل الإسلام ، وهي عادة التبني : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولاً ﴾ [الأحزاب آية ١٣٧]

فالعرب قبل الإسلام اعتادوا أن يتبنوا أطفالاً وأن يعطوهم كل الحقوق التي يتمتع بها الابن الصلبي ، ومنها أن تكون زوجة المتبنى محرمة على متبنيه دون سبب واقعي بيولوجي . ومن ناحية أخرى نجد أن الناس في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، إلى جانب مجتمعات أخرى قديمة ، بل وحتى وقتنا الحاضر - كانوا يقيمون حواجز لا تتخطى أبداً ، وهي حواجز قائمة على الجنس واللون والخلفية الاجتماعية ، تحول دون إتمام الزواج ، وهو ما أدانه القرآن ، حين جعل المعيار الرئيسي هو الإيمان والتقوى ، ووضح أن أمة مؤمنة خير من سيدة مشركة : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ [البقرة آية ٢٢١]

فانطلاقاً من الفهم لحقيقة التبنى وهو أنه يخلق علاقات دم شبيهة وهمية ، وروابط غير عادية وربما يحرم الزيجات المحللة منطقياً وبيولوجياً ودينياً ، ويتدخل في العلاقة بين الطفل وعائلته الحقيقية وبينه أيضاً وبين عائلته الجديدة التي نشأ في كنفها ، بل بينه وبين المجتمع ككل ، لذلك ينصحن القرآن تجنباً لهذه المشكلات الاجتماعية بأن ندعوهم لآبائهم : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [الأحزاب آية ٥]

تعدد الزوجات :

وهذا أحد الأهداف المهمة الرئيسية لانتقادات المستشرقين ، وواحد من الموضوعات التي انتشر حولها سوء فهم خطير في الغرب بسبب الكم الهائل من الأفلام الخيالية ، والروايات من نوع ألف ليلة وليلة ، فما زالت الأغلبية تتصور الإنسان المسلم على أنه ذلك الذي تملكه

الرغبة الجسدية، فهو يمتلك بالتالى فى قفص حريمه عدداً كبيراً من الزوجات والمحظيات ، ولديه الحرية الكاملة للانتقال من واحدة منهن إلى أخرى^(١)، ومن ثمّ فإننا نسمع بين كل حين وآخر صيحات تنادى بتحريم المرأة ، ولا ريب أن هذه النقطة الخطيرة تحتاج إلى أن يلقى أولئك المهتمون بتعلم الحقيقة من القرآن ومن الكتب الأخرى التى تناولت هذا الموضوع - تحتاج إلى أن يلقوا الضوء على كافة حقائقها .

وأولاً وقبل كل شيء نريد أن ننوه إلى أن الإسلام يسمح بتعدد الزوجات ، وهو (Polygyny) ولا يسمح بتعدد الأزواج (Polygamy) وهو أيضاً يدين الشذوذ الجنسى والسحاق ولا يسمح بهما ، وتعد كلتا الجريمتين نوعاً من الفساد الأخلاقى الشديد ، ولكننا للأسف نرى أن بعض المجتمعات الغربية قد مزقت كل رابطة بينها وبين الإرث المسيحى، وانغمست فيما أسمته التطور الأخلاقى ، واتخذت موقفاً سلبياً ، وسنت القوانين المشجعة لمثل هذا الهبوط الخلقى الرهيب^(٢) .

ولقد وازن الإسلام بين الإنسان كما نعرفه وبين الصورة المثالية له ، فهو لم يطلب منه - أو يتوقع - أن يكون شيئاً آخر غير ما هو عليه من طموحات طبيعية ، وميول فطرية ورغبات غريزية ينبغى تهذيبها على المدى البعيد . لذلك فعندما يجيز الإسلام تعدد الزوجات فهو يقدم الحل الأسلم والمضمون لبعض المشكلات الاجتماعية الخطيرة ، ولكن هذه الحقيقة تغاضت عنها للأسف بعض المجتمعات المسيحية واليهودية التى فرضت قاعدة اتخاذ زوجة واحدة فقط ، بصورة استبدادية دون أصل من دين .

ومن المعروف أن تعدد الزوجات لم يعمم على مستوى العامة فى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sommer and Zwemer) وفى المرجع انظر ص ٣١ ، وكذلك تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ١٤٠ - ١٥٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abu - Sa'ud)

كثير من الدوائر المسيحية واليهودية، سواء في الماضي أو في الحاضر ، كما في المجتمعات المورمونية^(١) ، إلا أن تعدد الزوجات قد تقرر بالممارسة طوال تاريخ الإنسانية ، مروراً بالأنبياء الكتابيين كإبراهيم وداود وسليمان وغيرهم ، كما قامت به الرعية في عهد الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية قبل الميلاد وبعده، إلى أن أصدر الإمبراطور (جستنيان الأول) (Justinian I) قانوناً يفرض الزواج الأحادي على الشعب ، بيد أن هذا القانون التزم به الصفوة الممتازة منهم ، على حين لم تكثرث به على الإطلاق بقية الجماهير ، واعتبروه قانوناً ميتاً ، أما اليهود والعرب القدامى فقد اعتقدوا بتعدد الزوجات واتخذوه تقليداً وعرفاً^(٢) .

واليوم ؛ ترد الأخبار^(٣) بأن الهجرات اليهودية التي تسمح بتعدد الزوجات قد أوجدت لدى السلطات الإسرائيلية كما ضحماً من المتاعب المالية ، ولعل الكثيرين يعرفون أن الأساقفة الأفرسيويين يرون أن تعدد الزوجات هو أفضل من الخيانة أو المبادلة الزوجية على الرغم من أن هذا لم يعلن على نطاق واسع^(٤) .

ولا شك في أن العمل على أحادية الزواج في المجتمعات المسيحية ليس متبعاً على أنه أمر ديني ، وإنما هو دعوة اجتماعية ، إذ لا أساس له في الأناجيل ، فقد كان تعدد الزوجات يعد طريقة مقبولة على مستوى العامة في مرحلة النبوات الكتابية ، ولعل هذا ما يحسب للكتاب المقدس ، إذ إنه لم يتعامل مع الموضوع نهائياً ، فلم يحرمه ولم يقيدده ولم يضع قوانين تنظيمية له (انظر إنجيل يوحنا - الإصحاح الثامن - وسفر التثنية - الإصحاح الثاني والعشرين) .

(١) مورمونية : اسم طائفة دينية في أمريكا الشمالية أنشأها جوزيف سميث عام ١٨٣٠ وقد أباح تعدد الزوجات مرة ثم حرّمه . (المترجم)
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A. Ali)
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Goitien) وفي المرجع انظر ص ١٨٤ .

فلما جاء القرآن ؛ لم ينبذ ممارسة عادة تعدد الزوجات أو يهملها ، كما لم يطلقها دون قيود وروابط ، فهو لم يستطع أن يكون غير مبال بالموضوع ، وبذلك يتيح فرصة للتشويش والخلط واللامسؤولية أن تغطي عليه ، ولكنه بدأ بتهذيب العادة - شأنها شأن الأعراف والتقاليد المنتشرة آنذاك - وذلك باستئصال تقاليد الشريعة من خلال تأكيده لمنافعها ، ومن ثم نتجت معايير جديدة للتعددية ، وذلك لاستيعاب القرآن للحاجات الإنسانية لدى دخول العقيدة القرآنية واقتحامها^(١) ، وصار تعدد الزوجات مسموحاً به في ظل ظروف معينة وبقيد محددة ، ولعل التشريع القرآني هو الأول الذي صرح بهذه النقطة ، وجعل حداً أقصى لعدد الزوجات (أربعاً) ، ولا يزال هذا السماح استثناء من القاعدة العادية ، إلا أنه يعد الحل الأمثل لبعض المشكلات الاجتماعية والأخلاقية .

وعلى ذلك ينبغي أن تمنح الزوجة الثانية أو الثالثة نفس الحقوق القانونية والاجتماعية والاقتصادية والشخصية التي منحها الزوجة الأولى ، والزوج مطالب بأن يعدل بين زوجاته في الصون والمعاملة والحنان والعاطفة ، فإذا خرج بعض الناس عن القاعدة أحياناً فليس ذلك بدليل على خلل القاعدة نفسها، يقول القرآن ﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ [النساء آية ٣]

لقد نزلت هذه الآية بعد غزوة أحد التي استشهد فيها عدد كبير من المسلمين مخلفين وراءهم العديد من الأيتام والأرامل الذين يقع عبء رعايتهم على الأحياء من المسلمين ، وعلى ذلك فقد كان الزواج هو الطريقة المثلى والعادية للعناية بأولئك الأرامل والأيتام .

ومن هذه الخلفية التاريخية ، خرج المؤلف المسلم عبد العاطي ببرهان سجله على أنه هو ما يميل إليه ، وهو أن الإسلام لم يبتدع تعدد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) وكتاب (Islam in Focus)

الأزواج ، كما أنه لم يشجع تعدد الزوجات بجعله قاعدة عامة^(١) ، ولم يطالب بإلغائه ، لعلمه باستحالة التنفيذ قسراً ، ولما قد يقوم به الناس من تحايل والتفاف حول التحريم ، وهو ما يغلب - تحت أسماء مختلفة - على تلك المجتمعات التي لديها قوانين وأخلاقيات تحرم تعدد الزوجات .

وينظر إلى ظروف اليوم ، نجد أن التعدد يمثل الحل الطبيعي لمشكلات اجتماعية معينة . ففي بعض الأمم ، وبعد انقضاء حروبها المدمرة ، يتفوق عدد النساء على عدد الرجال ، فماذا تفعل المرأة غير المتزوجة ؟ وأنى لهم أن يجدوا لها الرفيق الطبيعي المرغوب فيه من الناحية الطبيعية والأخلاقية والوجدانية والعاطفية ؟ وما العواقب في حالة عدم تحقيق هذه الرغبات الطبيعية ، والمطامح العادية بصورة قانونية ودينية في الزواج ؟

لقد رأى كثيرون وأدركوا مدى الخلل الأخلاقي والتصرفات غير المسئولة التي تبدر عن مجتمع ، يبدو أنه انقلب أعمى ، أو أنه بات يصدر القوانين وفق الموضحة التي يراها . ونسأل : من هم ضحايا هذا النوع من الأخلاقيات ؟ وهل من مصلحة المجتمع أن يكبت هذه الرغبات المشروعة والتشوّف الطبيعي بين الرجال والنساء لأن يتعارفوا .. ذلك الكبت الذي لن يسوقهم في الواقع إلا إلى مفاзд غير شرعية ؟

وعليه فالسماح بالمشاركات القانونية - سواء من وجهة النظر الاجتماعية أو الأخلاقية أو الإنسانية أو الروحية - السماح بها في الصورة الشريفة المسئولة يعد أفضل من تحريم ما قد أتت به الطبيعة ، وإهمال كل ما يترتب على ذلك من أصداء أخلاقية قاسية .

إن عدداً من الكتاب ، من الشرق والغرب على السواء ، ولا سيما أولئك الذين تعلموا أمثال هذه الأخلاقيات أو اللأخلاقيات المنمقة -

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sommer and Zwemer) وفي المرجع انظر

يعبرون عن اشمئزازهم من التقاليد الإسلامية التي تتعلق بالتعدد على وجه الخصوص ، وبوضع المرأة بوجه عام^(١) ، ولكن العديد من الدراسات الغربية تمكّن من دحض وتفنييد ما جاء به هؤلاء الكتاب ، وقد درسناه جيداً ، ثم اعتنقن الإسلام بعد ذلك^(٢) .

الطلاق : متى ؟ وكيف ؟

وهذا الموضوع هدف آخر للهجمات القاسية والانتقادات التي لا ترحم من العديد من المستشرقين في الماضي والحاضر ، إذ زعموا أنه أمانة الحط من قدر المرأة في الإسلام^(٣) . وقد يحدث أن نرى ذلك واضحاً في حالات فردية وموجودة في مجتمعات قلة ، توصف بأنها مسلمة ، ونتساءل : هل هذا هو الإسلام ؟ .. ترى ما مدى ابتعاد هذه المعاملة المتجهمة للزوجات عن تعاليم القرآن ؟ .. سؤال لم يفكر أحد من المستشرقين أن يطرق بابه ، وأن يجد حلاً علمياً هادفاً له .

إن القرآن لم يترك إطلاقاً الحبل على الغارب للطلاق ، كما أنه لم يرفضه بغشم ، أو بصورة جزافية ، وإنما انطلقاً من واقعية الإسلام فإنه قرر أن الطلاق هو الدواء المناسب لحالات خاصة من الزواج التي استعصت على الشفاء ، وحيث لا يوجد حل إنساني آخر ممكن . ومع أن الطلاق حلال إلا أن معاذ بن جبل رضى الله عنه روى عن النبي ﷺ أنه قال : « أبغض الحلال عند الله الطلاق »^(٤) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sommer and Zwemer) وفي المرجع انظر ص ٣١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Haidar) وكذلك انظر تحت (Jamilah)

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفي المرجع انظر ص ٨٤ ، وكذلك انظر تحت (Menezes) وفيه انظر ص ١٤٠ - ١٥٠ ، وأيضاً انظر تحت (Roberts) وفي المرجع انظر ص ٩٥ - ١٠٥ ، وتحت (Wollaston)

(٤) انظر تفسير القرطبي ، الجزء الثاني ص ٩٣٤ .

ولقد ذكرنا قبلاً ، أن الزواج هو رباط مقدس بين الزوج وزوجه ليعيشا في سعادة دائمة ، وفي رفقة مسالمة ، ولكي يحققا هدف الزواج الشريف ، بيد أن السلوك الإنساني - كما نعلم - متغير وغير متوقع ، على الرغم مما قد يتخذه الزوجان من احتياطات تجعلهما يظنان - ويظن الآخرون معهما - أنهما قد حققا الهدف الشريف . وهذا هو ما سمح به القرآن وأقره ، ولكنه في الوقت ذاته لم يعترف بالزواج الاسمي أو المؤقت أو غير الفعال ، كالانفصام ، بل وصف طرقات فعالة وكثيرة تعمل على علاج المشكلات التي تنمو بين الزوجين والتي تبدأ في الغالب من نقطة للخلاف ، فيجب أن يحاول كل منهما التهدئة من النزاع ، ومعالجة الأمر ، وحل المشكلة بينهما ، ويجب أن يتمسك كل منهما بالتقوى ومراقبة الله ، وأن يكون محسناً وكريماً مع الطرف الآخر : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صالحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ [النساء آية ١٢٨]

فإن لم يصلح إلى تسوية للموقف ، فليطلب كل منهما حكماً من أهله ، فقد يمكنهما حسم الخلاف : ﴿ وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴾ [النساء آية ٣٥]

فالزوج إذن وزوجه يحسن كل منهما إلى الآخر ، فإن تذكر الزوج بعض أشياء سيئة لزوجته ، فليذكر نفسه أن لها أشياء كثيرة حسنة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ [النساء آية ١٩]

ولا شك أن هذه النصيحة موجهة إلى كلا الطرفين .

فإن فشلت هذه المحاولة أيضاً للتوفيق ، فليكن التطلاق ، ولكن بصورته المكونة من ثلاث مراحل متتابعة : فإذا لم يحدث في غضون شهر أية علاقة زوجية فعلى الزوج أو الزوجة - من منهما لديه الحق - أن يعبر عن رغبته في التطلاق ، وفي فترة الانتظار التالية وهي من ثلاثة إلى تسعة شهور^(١) تبقى المطلقة أو المطلق في كنف الطرف الآخر ، إذ قد يحدث في هذه الملابسات والظروف الصعبة أن يتذكر أى من الطرفين ويعتذر للآخر ويتقى الله العليم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ . [الطلاق آية ١]

وانظر كذلك في الآيات (٢٨ - ٤٠) من سورة النساء .

ولا تستطيع المنتظرة للتطلاق أن تتزوج من رجل آخر قبل انقضاء عدتها ، فتبقى لها ولزوجها السابق فرصة ليفكرا في الأمر مرة أخرى ، فيقدر أحدهما للآخر صنيعاً طيباً فتفتح بذلك بوابة يذفان منها إلى المصالحة .

وبعد انتهاء فترة العدة (فترة الانتظار) فإن تراجع الزوجان فإن تراجعهما يعتبر وكأنه زواج جديد من الناحية الشكلية ، فإن لم تكن علاقتهما قد تحسنت فليطلبوا الطلاق مرة أخرى وتبدأ عدة جديدة، فإن فشلا فليكن الطلاق الثالث والبات ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتما ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ [البقرة : ٢٢٩]

(١) الثلاثة الأشهر هي مدة العدة (ثلاثة قروء) ، والتسعة الأشهر هي ما يتعين على المرأة أن تتحمله من الانتظار في حال الحمل إلى أن تضع حملها ..

وقبل الشروع فى إجراءات الطلاق ، وأثناءها وبعدها ، تصدر
المواقف أخلاق الاستقامة والتقوى ومراعاة الكرامة الإنسانية ، بل ويطلب
كل من الطرفين بأن يحفظ هذه القيم ، على عكس ما جاءت به بعض
التقاليد الأخرى من إعطاء الزوج سلطة بلا حدود ولا رقابة فى تطبيق
زوجها ، بل ومقاضاتها وسلبها كل حقوقها : « وإن لم تسرّ بها فأطلقها
لنفسها ، ولا تبعها بيعاً بفضة ولا تسترقها من أجل أنك قد أذلتها »
(سفر التثنية - الإصحاح الرابع والعشرين - ١) إذ أخذ رجل امرأة وتزوج
بها فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شئ وكتب لها
كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته » (سفر التثنية -
الإصحاح الرابع والعشرين - ١) .

وكما أشار الأستاذ عبد العاطى فى كتاب (هيكل الأسرة فى
الإسلام) إلى أنه ليس من الضرورى للمسلم أن ينفصل عن زوجته لعدد
سنين قبل إجراء الطلاق ، كما فى المجتمعات الأخرى ، حيث صدقت
نظم معينة على أن يخالط الطلاق والانفصال الكثير من الأفعال
اللاأخلاقية والتي لا يقبلها الإسلام لأنها نقضت قانون الأخلاق الذى
يدعو إليه^(١) .

وضع النساء :

وهذا موضوع آخر خاض فيه المستشرقون باتهامات لا ترحم ضد
التعاليم القرآنية ، وعلى سبيل المثال لا الحصر - تصور (ولاستون)
(Wollaston) وآخرون: أن القرآن الكريم قد حرّم الجنة على النساء ،
ومنعهن من المشاركة فى الصلاة ، واستن الأحكام التى تحت من
قدرهن^(٢) .

والإسلام - طبقاً لسنة الفطرة لا يعتبر المرأة مماثلة للرجل ، .. بل

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (هيكل الأسرة فى الإسلام)

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Haidar)

هما متساويان وكل منهما مكمل للآخر ، غير أنهما ليسا متطابقين ولا متشابهين ، والفرق بين المساواة والمماثلة يعد ذا أهمية كبرى في تقدير الفطرة الإنسانية ، وفي نظر المجتمع من الناحية الإسلامية ، إذا تمثلنا هذه الحقيقة فلا مجال لتصوير أن النساء في الإسلام هن أدنى من الرجال ، لسبب بسيط هو أن التكاليف والحقوق ليستا متماثلة . إن الإسلام وقد أعطى المرأة حقوقاً مساوية - لا مماثلة - لحقوق الرجل يؤكد أنه يراها ذات شخصية مستقلة ، وكيان مختلف من الناحية البيولوجية .

والإسلام كما أشار عبد العاطي لم يصم النساء بأنهن نتاج الشيطان، أو بأنهن بذور الشر^(١) ، بل لم يشكّ أحد من الكتاب المسلمين عبر التاريخ الإسلامي كله في الوضع الإنساني للمرأة ، وأن لها نفساً محترمة، وخصائص روحية خيرة ، بل لم يقف رجل مسلم داعياً الله شاكراً على أنه تعالى لم يخلقه امرأة ، كما فعل أتباع الأديان قبل الإسلام ، كذلك لم تؤمر النساء المسلمات على الإطلاق بالضمت وبأن يرضخن ويمثلن دائماً: «لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن ، بل يخضعن كما يقول الناموس أيضاً» (من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس - الإصحاح الرابع عشر - ٣٤) .

ولقد اعتبرت الأديان السائدة قبل الإسلام المرأة مخلوقاً خسيساً ، فلم يكن يلمسها أحد حتى من عائلتها خلال طمثها ، وفي حالة موت زوجها ، فيما أن يرثها أحد أقاربه ، أو أن تحرق - كما في بعض المجتمعات - حية في محرقة الجنائزية^(٢) .

إن وضع المرأة في الإسلام وضع فريد ، صحيح أننا قد نجد لها مقدمة

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus) وانظر كذلك تحت (Baljon)

(٢) انظر (Quranulhuda) عدد شهر أبريل / ١٩٧٧ .

على الآخرين في بعض النواحي ، وذلك في الدول الغربية والشيوعية^(١) ، ولكنها لا بد في كلا المعسكرين أن تكدح لتعيش ، وأحياناً تقوم بنفس العمل الذي يقوم به الرجل ، وبأجر أقل بكثير ، فهي - في سبيل الفوز بمعركتها لاكتساب المعرفة وحرية العمل بذلت تضحيات جسيمة ، حين تنازلت عن الكثير من حقوقها الطبيعية الأخرى .

ولكن فرحة النساء بهذه الحركات التحررية - شيء ، وأن يكنّ سعداء فعلاً بالنتائج - شيء آخر ، ذلك أن الحقيقة الماثلة تعلن أن الحقوق التي تستمتع بها المرأة المعاصرة باتت هزيلة وقاصرة إذا ما قورنت بنظيرتها الإسلامية التي أقرها شرع الله تعالى .

إن المرأة في الإسلام لها شخصيتها الاقتصادية المستقلة ، سواء أكانت زوجة أم أما أم أختاً أم ابنة ، أم كانت ذات صفة أخرى : ﴿ ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً ﴾ [النساء آية ٣٢]

فالمرأة لها الحق الكامل في أن ترث ، وأن تكسب ، وأن تدير أعمالها دون أية قيود أو كفالة ، أو ضمان من زوج ، أو من أب ، كما أن وجود أي عدد من الإخوة لا يمنعها من أن ترث حقها ، يقول القرآن في ذلك : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً ﴾ [النساء آية ٧]

في حين قرر العهد القديم قاعدة أخرى غاية في الظلم حين يقول : « إذا كان لرجل امرأتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة فولدتا له بنين ، المحبوبة والمكروهة ، فإن كان الابن البكر للمكروهة فيوم يقسم لبنيه ما كان له لا يحل له أن يقدم ابن المحبوبة بكراً على ابن المكروهة » (١) أي : قبل أن يسقط النظام الماركسي ، وتنهار النظم الشيوعية في العالم . (المترجم) .

البكر ، بل يعرف ابن المكروهة بكرا ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده لأنه هو أول قدرته له حق البكورية « لا سفر التثنية - الإصحاح الحادى والعشرين ١٥ - ١٧]

والإسلام لا يعترف بتغيير اسم المرأة بعد الزواج ، كما فى المجتمعات الغربية ، وإنما يظل اسمها الأول جزءاً مكملاً لشخصيتها الاجتماعية والاقتصادية والعملية ، وهو ما يعد على النقيض تماماً من اتهامات بعض المستشرقين ، إذ تعتبر هذه الامتيازات متقدمة جداً بالنسبة إلى ما تطالب به النسوة فى بعض المجتمعات المتحضرة اليوم^(١) .

ولا ريب فى أن المرأة المسلمة تلقى احتراماً كبيراً بسبب حجابها التقليدى ، فهى تجمل نفسها بالشرف والكرامة والطهارة والعفة والنقاء والكمال ، كما تحمى نفسها وأخلاقها بالإحجام عن كل الأعمال والإيماءات التى تثير الشهوات ، وتدعو الرجال الغرباء إلى أن يتفرّسوا فيها ويحدّثوا ، وحسبنا أن نقرأ قول الله تعالى فى سورة النور :

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾

[النور آية ٣٠ - ٣١]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (هيكل الأسرة فى الإسلام) وكذلك تحت (Rodinson) كتاب (الإسلام والرأسمالية) .

ويجب على كل مسلم ومسلمة أن يجدّ في طلب العلم ، روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »^(١) . لقد نفّذ المسلمون هذا الإعلان بحماس في تلك الفترة التي كانوا فيها يمشون وفق منهاج دينيهم ، فنقرأ كيف برزت أسماء النساء بين مشاهير الدارسين والشعراء والصوفيين ، ومنهم السيدة زينب^(٢) ، والسيدة سكينة^(٣) ، ورابعة العدوية ، مما يبين أن المرأة قد أوتيت حرية التعبير ، مثلها مثل الرجل ، وحرية أن تفصح عن رأيها الديني والعقائدي على الملأ ، وهو ما وصفه التاريخ عندما ذكر عدول الخليفة عمر بن الخطاب عن رأيه بناء على اعتراض المرأة عليه، بل لقد كان دور المرأة مهماً في حياة النبي ﷺ ، وهو ما سجله القرآن في قوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب مهين ﴾ [المجادلة آية ١ - ٤]

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم

(١) انظر تفسير القرطبي - الجزء الرابع ص ٣١٣٤ .

(٢) هي زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب - شقيقة الحسن والحسين . (المترجم) .

(٣) هي سكينة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب . (المترجم) .

الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلك حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم * وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الدين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون * يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ﴿

[المتحنة آية ١٠ - ١٢]

فليس غريباً أن ينسب الإسلام للمرأة أنها هى الشريك المكافئ للرجل فى عملية تناسل الجنس البشرى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴿

[النساء آية ١]

فهى مساوية للرجل فى تحمل المسئولية الشخصية والمشاركة بينهما، وفى عدم ضياع أجرها على أعمالها ، وهذه آية توضح هذه النقطة : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴿

[آل عمران آية ١٩٥]

لقد وقع بعض المستشرقين فى سوء فهم يتعلق بالآيتين (٢٢٨) من سورة البقرة ، و(٣٤) من سورة النساء ، فظنوا أنهما تؤكدان على سيادة الرجل وفوقيته على المرأة ، وهما الآيتان ، قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ويعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف

وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴿ [البقرة آية ٢٢٨]

وقوله في سورة النساء : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا ﴾ [النساء آية ٣٤]

ولنفهم الموضوع الآن بكل ملابساته ، لقد تعرضت الآيتان (٢٢٧) ، (٢٣٤) من سورة البقرة إلى مناقشة العلاقة بين الزوج وزوجه ، وخاصة من زاوية الطلاق ، بيد أن الآية التي نعرض لها الآن وهي (٢٢٨) من نفس السورة تشير إلى أن النساء لهن جميع الحقوق ، فهن مساويات للرجال ، ولكنها أضافت أن الزوج لديه درجة قوامة هي العدل بعينه ، إذ إنها تذكر أن عبء صون الأسرة وحمايتها تحت كل الظروف يقع على عاتق الرجل وحده ، فلا بد من أن تكون لديه فرصة أكبر للبت في الأمور من زوجته ، فهو في الحقيقة أكثر قدرة على النظر بموضوعية إلى الأشياء ، وهو يتخذ قرارات أكثر عقلانية ومنطقية وبعيدة عن التأثير بالعواطف والأحاسيس الوجدانية ، وكل ذلك في إطار إيمانه بأن التقوى هي أساس العلاقة بين الزوج وزوجه .

لذلك ؛ وجدنا بعض المفكرات الغربيات يبدن إعجاباً كبيراً بحفاظ الإسلام على أنوثة المرأة ، وحرصه على أداء النساء لوظيفتهن الطبيعية ، كما نقدن بشدة أوضاع : « البنات المسترجلات الغربيات ... اللواتي يلبسن السراويل ويرفعن أصواتهن بصورة فجأة ، والنساء اللاتي يحاكين الرجال ، ويتباهين بقيامهن بأعمالهم ، والنسوة اللاتي فقدن أنوثتهن ، فلا هن أمهات ولا هن زوجات ، بل ولا هن حتى عشيقات »^(١) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jamilah) ، وكذلك انظر تحت (Haidar)

علاقات الآباء بالأبناء :

ارتبط الآباء والأبناء بعهود أخلاقية متبادلة ، فعلى كل منهما أن يتذكر الله ويطيع أوامره سبحانه ويحبه ويخشع له ، فالأبناء ليسوا سوى منحة إلهية ، وهم فى الوقت نفسه ابتلاء ، فقد يشكّلون مصادر للفخر والفرح ، ويدرأ للغرور والخيلاء ، وإغراء بالتدليل لهم من قبل آبائهم ، وقد يكونون سبب حزن وكمد لهم : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ [الكهف آية ٤٦] لذا جاءت التوجيهات للآباء كيلا يدلّوا أبناءهم بصورة مبالغ فيها، وكذا لكيلا يهملوهم ويتركوهم بلا رعاية .

كما أن القرآن الكريم أَدان عادة وأد البنات ، تلك العادة اللإنسانية القاسية التى وجدت فى جزيرة العرب^(١) على غرار ما ساد خلال المرحلة الأنطونينية (Antonine Period) للإمبراطورية الرومانية فى طبقات الشعب الفقيرة^(٢) ، واعتبر القرآن أن حق الأبناء فى الحياة الكريمة يعد من حقوقهم المحرّم تجاوزها ، وأمر الآباء أن يرعوا أبناءهم ويربوهم مادياً وروحياً بصورة صحيحة : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ [طه آية ١٣٢]

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [التحريم آية ٦]

فمسئولية الأبوين ودورهما الحاسم هو تشكيل شخصية الأولاد كما ينبغى ، وسواء أكان الأبوان على قيد الحياة أو لا ، موجودين أو غائبين ، قادرين أو عاجزين ، معروفين أو غير معروفين ، فإن المجتمع ككل مسئول

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Roberts) وفى المرجع انظر ص ٩٥ - ١٠٥ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) ص ٣٩٥ .

بالمشاركة عن العناية بالطفل وإسعاده فى كل كلمة توّجه إليه : ﴿ وآتوا
اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا أموالهم إلى
أموالكم إنه كان حوبا كبيرا ﴾ [النساء آية ٢]

﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ (الضحى آية : ٩)

ثم يأتى التأكيد الشديد على رعاية الأبناء لآبائهم تحت أى ظرف
من الظروف ، ذلك أن بر الوالدين بعد توحيد الله والإيمان به : ﴿ ووصينا
الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر
لى ولوالديك إلى المصير ﴾ [لقمان آية ١٤]

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن
عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل
لهما قولا كريما ﴾ [الإسراء آية ٢٣]

ويشمل مفهوم الإحسان جميع معانى الحق والخير والأدب
والجمال ، فهو يتطلب من الابن الحب الشديد والصبر والعرفان والرحمة
والاحترام لوالديه ، فيغمرهما بالنصائح والمشورة والرعاية التى يحتاجان
إليها ، ويبدل غاية ما فى وسعه لمساعدتهما لجعل حياتهما مريحة ،
كذلك يدعو لهما بعد مماتهما ، والقرآن يعبر هنا فيقول : ﴿ واخفض
لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا *
ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين
غفورا ﴾ [الإسراء آية ٢٤ - ٢٥]

إن هذا السلوك المطلوب من الأبناء هو بدون قيد أو شرط ، بمعنى
أنه لا يعتمد على استحسانهم لما يأتى به آباؤهم من أفكار وأعمال ، وإنما
ينبغى أن يسود رغم أى خلاف - مهما عظم - فى العقيدة أو فى الرأى ،
أو رغم حدوث فجوة بين الأجيال كما يسميها البعض .. ويورد القرآن
إبراهيم كمثال ممتاز للابن البار رغم اختلاف العقيدة : ﴿ واذ قال

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) ص ٣٩٥ .

إبراهيم لأبيه آزر أتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴿
[الأنعام آية ٧٤]

﴿ إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى
عنك شيئاً * يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني
أهدك صراطاً سوياً * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان
للرحمن عصياً * يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن
فتكون للشيطان ولياً * قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم
تنته لأرجمنك واهجرني ملياً * قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه
كان بى حفيماً * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى
ألاً أكون بدعاء ربى شقياً ﴾
[مريم آية ٤٢ - ٤٨]

موقف القرآن من الرق :

على الرغم من تحريم تجارة الرقيق على المستوى الدولى فى القرن
الثامن عشر ، إلا أن بعض البلدان وضعت بديلاً لها مؤخراً ، فقد تم
اكتشاف مئات من الأفريقيين وهم مشحونون فى صناديق على شاحنات
عبر إيطاليا ، ومنهما إلى دول أوروبية أخرى ، حيث يتم استغلالهم فى
الأعمال الثقيلة ، وفى تشييد المباني ، دون ضمان صحى أو وظيفى أو
اجتماعى ، وحيث يعيشون فى ظروف معسكرات الاعتقال^(١) . ولكن ما
يثير التعجب والاستغراب هو تلك الاتهامات التى تكال للإسلام بطريقة
عشوائية حول موضوع الرق وأسبابه^(٢) !!!

إن التاريخ يسجل أن الرق قد عايش المجتمع الإنسانى منذ بدايته ،
فقد كان متأصلاً فى روما القديمة ، وفى اليونان ، قبل ظهور الإسلام
والمسيحية بقرون عديدة ، بل إن (أرسطو) قد وصف نظام الرق بأنه

(١) انظر مجلة (Egyptian Gazette) عدد ١٩٧٢/٧/١٩ ص ٢ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

ضرورى وطبيعى ومفيد عند تطبيقه بدقة^(١) ، بينما قدر كل من (جيبون) (Gibbon) و(بليز) (Blair) نسبة أعداد العبيد إلى أعداد المواطنين الأحرار فى روما بأنها حوالى ثلاثة إلى واحد وذلك فى غضون الثلاثة القرون التى أحاطت بمولد السيد المسيح . وقد كانت مصادر الرق إما نتيجة للأسر فى الحروب ، أو الاختطاف ، أو بيع الآباء لأطفالهم ، أو عقوبة توقع فى بعض أنواع الجرائم ، كأن يستعبد اللصوص والمدينون المفلسون وفق بعض تقاليد العهد القديم ، وكان الاستعباد يشمل أحياناً نساءهم وأطفالهم ، وهو ما نجده فى سفر الخروج - الإصحاح الحادى والعشرين إلى الإصحاح الثالث والعشرين . أما عند الإغريق فقد حبذوا استعباد الأجانب فى حين لم يكن استعباد المواطنين مسموحاً به ، على عكس ما سمح به العبرانيون من استعباد مؤقت . كل هذا يجعلنا نخلص إلى أن الاستعباد للأجناس الدنيا كان مسموحاً به ، وشائعاً .

ولم تكن الكنيسة سعيدة بالرق ولكن موقفها كان سلبياً دائماً ، وذلك أن كثيراً من المسيحيين يؤمنون بأن المسيحى الأبيض وأخاه فى الدين الأسود يتساويان فى مملكة السماء ، ولكن هذا لا يعنى أنهما متساويان فى مملكة الأرض^(٢) ، ولعل تلك السيطرة المطلقة فى الحياة والممات التى كان يفرضها الإقطاعى على رقيقه وعبيده - كانت انعكاساً للانحطاط والفساد الأخلاقى .

أما القرآن ؛ فهو يذكر عبودية ، ولكنه يذكر تحرير العبيد ، وهو ما يتم فى صور متعددة ليست من قبيل التقاليد الاجتماعية والإنسانية ، ولكنها أولاً وأخيراً عبادة لله الرؤوف الرحيم ، فمن أفضل أعمال الخير وأكثرها حسناً إعتاق العبيد ، ثم يليه مباشرة الإطعام فى ظروف الجماعة:

﴿ فِك رِقْبَةٌ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ [البلد آية ١٣ - ١٤]

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية مجلد ١٦ ص ٨٥٦ .

ويرينا القرآن أن هناك آثاما يمكن التكفير عنها بإعتاق العبيد ، فإن لم يكن لدى العاصي أى عبد ، فليشتره وليعتقه ، وإن كان هذا مستحيلا بسبب عدم وجود عبيد أصلاً ، أو لأن المذنب لا يملك إمكانية شرائه ، فإن هناك أعمالاً عوضية للتوبة وللتكفير عن الذنب . فمثلاً الظهار ؛ بمعنى أن يحرم الرجل زوجته على نفسه ويجعلها عليه كظهر أمه ، فيجب عليه أن يتوب بتحرير رقبة ، فإن لم يجد رقبة يحررها ، فعليه صيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فليطعم ستين مسكيناً ، وهو ما توضحه الآيتان الآتيتان :

﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾

[المجادلة آية ٣ - ٤]

وكذلك ينبغى على من يحنث فى يمين الله أن يحرر رقبة : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾

[المائدة آية ٨٩]

وعلى من يقتل مؤمناً خطأ أن يحرر رقبة مؤمنة وأن يدفع دية الميت إلى أهله : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن يقتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم

بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴿

[النساء آية ٩٢]

ويدين القرآن الكريم تلك المقولة القديمة التي ترى أن العبيد سيحاسبون ويسألون بدلاً من سادتهم فيقول : ﴿ ... ولا تزر وازرة وزر
أخرى ﴾ [الإسراء آية ١٥]

فلا فرق بين عبد وسيد ، ولا تمييز بين الأجناس ، فكل الناس لآدم وآدم من تراب ، ولا فضل لإنسان على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾

[الحجرات آية ١٣]

ولعله قد وضح الآن وتأكد أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي علم أتباعه أن يتحلوا بالرحمة والإنسانية في معاملتهم مع أولئك التعساء الذين استرقوا لسبب أو لآخر ، فقد فرض عليهم تحرير الرقيق وبين لهم الوسائل ، حتى إن القرآن ليضرب مثلاً بزوجين في حياة النبي ﷺ كان لديهما قليل من الطعام ويكاد يكفيهما وحدهما إلا أنهما حبا لله تعالى استضافا مسكينا ویتيما وأسيرا وأعطوهم كل ما لديهم :

﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ویتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطيرياً * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً * وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهرياً * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً * ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً * قوارير من فضة قدورها تقديراً * ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً *

عينا فيها تسمى سلسيلا * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم
حسبتهم لؤلؤاً منثورا * وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً * عاليهم
ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم
شرباً طهوراً * إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴿

[الإنسان آية ٨ - ٢٢]

فالمسلمون إذن عندما كانوا يعيشون في ظل التعاليم القرآنية ،
كانت تصرفاتهم نحو عبيدهم تمثل أسمى معاني الإنسانية ، وهو ما أقر
به المستشرقون^(١) ، ألم يكن بلال - الذى كان عبداً حبشياً - من أكثر
صحابه النبي ﷺ قرباً إليه ؟ فقد منحه امتياز رفع الأذان ، ثم صار بعد
ذلك والياً على إحدى الولايات الإسلامية^(٢) ، بل ويسجل التاريخ أن
سلالات الملوك والحكام فى مصر والهند إبان القرون الوسطى كانت ذات
أصول مملوكية ، وهم أولئك الذين كانوا عبيداً والتحقوا بالجيش ، وارتقوا
إلى مناصب السلطة والتأثير على أهل الصفوة فى المجتمع .

الخلاصة :

ينبغى أن نعلم أن الآيات المذكورة تحت جميع العناوين ليست كل
الآيات التى تتعلق بموضوع الأخلاق ، فغيرها كثير فى القرآن الكريم ،
وكيف لا يكون كذلك ، والقرآن هو الرسالة الإلهية لهداية الإنسان فى
حياته على الأرض ؟ إن هناك الكثير من الآيات التى تقود الإنسان إلى
الصراط المستقيم تحت كل الظروف والملابسات ، فهناك الدعوة إلى
التواضع : ﴿ ولا تصغرْ خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله
لا يحب كل مختال فخور ﴾ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك
إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴿

[لقمان آية ٨ - ١٩]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Margoliouth) كتاب (نشأة محمدية) ص ٨٤ .

(٢) لم يتول بلال رضى الله عنه أية ولاية - فيما نعلم ، ولكنه كان خازن بيت المال فى

عهد الرسول ﷺ (الأعلام) - (المترجم)

والدعوة إلى الصبر : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر
والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ [البقرة آية ١٥٣]

وإلى التواضع : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق
الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ [الإسراء آية ٣٧]

وإلى الدعوة إلى كل فضيلة ، ونبذ المنكرات : ﴿ يا بني أقم
الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك
من عزم الأمور ﴾ [لقمان آية : ١٧]

وإلى الدعوة إلى الاعتصام بالحق قبل الانزلاق في المعصية : ﴿ ولقد
همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء
والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [يوسف آية ٢٤]

وإلى الصدق : ﴿ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين
والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران آية ١٧]

وإلى الإخلاص : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله
مخلصاً له الدين ﴾ [الزمر آية ٢]

ودعوة إلى التعاطف مع الضعفاء والمبتليين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا
كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين
والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن
تعدلوا وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾

[النساء آية ١٣٥]

والدعوة إلى رعاية اليتامى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا
الخبث بالطيب ولا تأكلوا أموالكم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾

[النساء آية ٢]

ودعوات أخرى إلى مكرمات وأخلاقيات طيبة ، فمثلاً التناجى
ينبغي أن يكون موضوعه برّاً وتقوى لا شراً وعدواناً : ﴿ يا أيها الذين

آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا
بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون ﴿ [المجادلة آية ٩]

ومن قواعد السلوك الاجتماعى التى لفت القرآن النظر إليها التحية
والاستئذان عند التزاور : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير
بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم
تذكرون ﴿ [النور آية ٢٧]

﴿ ... فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله
مباركة طيبة كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴿ [النور آية ٦١]
﴿ ... وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴿
[البقرة آية ١٨٩]

أما إذا أكلت فما عليك سوى أن تذكر الله تعالى الذى وهبك ما
تأكل : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم
من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن
عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب ﴿
[المائدة آية ٤]

ومن آداب التحية : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو
ردوها إن الله كان على كل شىء حسيباً ﴿ [النساء آية ٨٦]

كذلك إن توسطت فى خير تجلبه لمحتاج فإن الله سبحانه يثيبك :
﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة
سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شىء مقبلاً ﴿ [النساء آية ٨٥]

ولا تسخر من الآخرين الذين ربما يكونون خيراً منك - رجلاً كنت
أو امرأة - ولا تفتخر على الناس وتتهكم عليهم ، ولا تناهز الآخرين
بالقباهم التى يكرهونها ، ولا ترتب ولا تتجسس وتغتب : ﴿ يا أيها الذين
آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من

نساء عسى أن يكن خير منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزووا بالألقاب
بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون *
يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا
تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه
ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴿ [الحجرات آية ١١ - ١٢]

﴿ ... وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان
واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ [المائدة آية ٢]

ولا شك في أن علاقات الأمم والشعوب ، بعضها مع بعض ، تعد
جزءاً مكماً لحياة المجتمع ، فهناك إجراء المعاهدات وإضرام الحروب بين
البلدان . أما تعاليم القرآن فهي لم تتغاض عن ذلك ، بل جعلت التقوى
والإنصاف هما الأساس تحت كل ظرف من الظروف ، حيث يجب أن
تتحقق شروط العدالة في أى موقف مواجهة ، بين الأمم ، أو بين الأفراد
: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتكم بين
الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً
بصيراً ﴾ [النساء آية ٥٨]

فالمقاتلون المسلمون مأمورون في أوقات الحرب ، وفي ساحات
الوغى ، أن يكونوا صابرين ثابتين ، ولكنهم لا يمكن أن يكونوا معتدين
آثمين ، إذ ينبغى أن يتقوا الله وأن يتذكروه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا
الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع
المتقين ﴾ [التوبة آية ١٢٣]

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا
يحب المعتدين ﴾ [البقرة آية ١٩٠]

ولقد أعجبت قلة من الدارسين بكل هذه الفروع من الأخلاق
التعاملية والسلوك السامى ، ولا عجب في ذلك ، فقد استمرت هذه

الأخلاق الإسلامية قبل زمن طويل من معرفة قوانين التعامل والشهامة والفروسية سواء في الغرب أو الشرق ، وعندما اعتنقها والتزم بها الأفراد والجماعات في الأمة الإسلامية في قرونها الأولى - رفعتهم من القاع إلى القمة في المجتمعات البشرية. فقبل اعتناقهم للإسلام كانت ضمن عاداتهم وأدبناهم الصغار أحياء ، وتعدد الأزواج والزوجات ، ثم غارات القبائل القوية على تلك الضعيفة ، ومصادرة إبلهم وأغنامهم ، بل واسترقاق نسائهم وأطفالهم . كان هذا هو العرف السائد عندهم قبل الإسلام .

والآن بعد النظر في الآيات السابقة نتساءل : هل يوجد أى قانون وضعى أخلاقى يحاكي القانون القرآنى ، ونتساءل أيضاً : كيف تغاضى أولئك المستشرقون الذين اتهموا القرآن والإسلام بتجردهما من الأخلاقيات وحضهما على الآثام ؟ كيف تغاضوا عن كل هذه الآيات ؟ وكيف استطاع أولئك الدارسون الجدد أن ينبذوا القرآن لعدم احتوائه على شىء من احترام الوالدين ، أو الملكية ، أو الحياة ، أو حتى عن تجنب شهادة الزور ؟ هل هى اللامبالاة أصابتهم أثناء قراءتهم للكتاب الكريم ؟ أم كانت حالة عدم فهم ؟ أم كانت مجرد إجحاف أعمى ؟

وعلى الرغم من هذه الانتقادات المعيبة فى حق القرآن ، سيظل القرآن هو المثل الأعلى ، والأكثر إلهاماً للملايين ... ملايين المؤمنين ، لهدايتهم فى مسيرتهم ... فى كل مرحلة من مراحل حياتهم .

الفصل الثالث عشر

القضاء والقدر وحرية الإرادة

هل يملك الإنسان الاختيار بإرادة مطلقة في مسيرة حياته ، بحيث يصل بهذا الاختيار إلى أهدافه ، ويحقق عن طريقه آماله ؟ أم ... إنه مجبر تحت قهر قدرة عظمى تحدد مساره ولا يملك معها قولاً أو فعلاً ؟ لنعلم بداية أن أحداً لم يستطع تحديد زمن ولادته ولا مكانها ، ولا بيئتها مسبقاً ، ثم نتساءل : إذا كان المولد شيئاً خارجاً عن إرادة الوليد ، وهو ليس بخارج كلية عن إرادة والديه ، فما حجم تدخلهما وتحكمهما في الموضوع ؟ ثم إذا رجعنا إلى منشئنا ونظرنا في أصلنا الذي ورثنا عنه صفات معينة تظهر في هيئتنا وطاقاتنا وخصائص خلقتنا ، نتساءل : من ذا الذي يزعم لنفسه القدرة على التحكم في الأجداد الذين يورثونه صفاته ؟ وإلى أى درجة ؟

وكذلك كم عدد الوظائف التي تحت تحكمنا ، من بين الوظائف الكثيرة التي تتم باستمرار داخل أجسامنا ، سواء في الجهاز العصبي ، أو الهضمي ، أو التنفسي ، أو غيره من الأجهزة ؟ وإلى أى مدى ؟ صحيح أن الأكل والشرب خاضعان بدرجة كبيرة لإرادتنا ، ولكن بمجرد أن يتجاوز الطعام لهاتنا ، ما مقدار السيطرة التي تبدو منا عليه بعد ذلك ؟

إننا بكل بساطة ، وأنى توجهنا - خاضعون لأقدار خارجة عن سيطرتنا ، ليس هذا اعتقاداً للمؤلف ، ولا هي فكرة يحاول أن يعرض لها ، وإلا فكم عدد الأفكار والكلمات والأفعال التي تنسب إلينا كاملة ؟ بل كم عدد أعمالنا المؤثرة في الأصدقاء والأسر وغيرهم ممن قد لا نعرفهم ؟ لا أحد ينكر حريرتك في قضاء وقتك كما تشاء ، وفي أن تلتحق

بالعمل الذى تستمتع به إن توفر ، وفى أن تأكل ما تشتهى من طعام فى أى وقت تريد ، وفى أن تقول ما تشاء لمن تحب ، فكل ذلك خيار لك وعلى مسئوليتك الخاصة .

وعليه فقد ثبت أنه لا يمكن طرح موضوع الجبر والاختيار أو القدر وحرية الإرادة بصورة قاطعة ، وعلى طريقة التفريق بين الأبيض والأسود ، كما يتصور بعض الناس ، ذلك أن دور الإنسان يتضاعف بلا شك فى الحياة إذا نظر إلى الأشياء وفقاً لأصولها ، فتصرفات بعضهم تكون أحياناً تحت إرادتهم ، فى حين لا يملك آخرون قول أقل القليل انطلاقاً من سيطرتهم التامة .

ولعل كثيراً من المفكرين والكتّاب قد أدلوا بدلوهم فى مناقشة لا تنتهى حول موضوع حرية الإرادة منذ الأزل ، بغض النظر عن خلفياتهم إن كانوا مسلمين ، أو مسيحيين ، أو ملحدين ، أو أى شىء آخر ، وقد ادّعى كل منهم أنه قد توصل إلى الفصل النهائى للجدل ، الذى ينبغى أن يتبعه الآخرون الذين ما يلبثون أن يعترضوا عليه ، ويرفضوا رأيه، ويبدأوا من جديد .

وليس فى نية المؤلف أن يناقش وجهات نظر مختلف الكتّاب ، القداماء منهم والمحدثين ، لأن ذلك ليس من اهتمام هذا الفصل ، ولكنه سيركّز الاهتمام على أقوال القرآن وتعليقات المستشرقين عليها حول هذا الموضوع ، وسوف يستشف القارئ من خلال القراءة وجهات النظر المختلفة التى أتى بها الدارسون الغربيون ، ذلك الاختلاف الناجم عن ظنهم بشىء يفترضون أن القرآن الكريم قد أتى به ، وليس من أفكارهم هم ، ولعل الإنسان يجد عذراً للتناقضات بين أقوال المستشرقين لصعوبة الموضوع . ولكن ما الحقيقة ؟

هل يبشر القرآن بالجبرية^(١) ؟ :

هذا هو الانطباع الذى يسود الملايين فى الغرب لدى رؤيتهم أو سماعهم عن العديد من أفراد المجتمعات الإسلامية ، ولا شك فى أن كثيرين قد خبروا تلك التصرفات وعرفوها ، كاستسلامهم للقسمة والمكتوب ، وبذل الجهود القليل بل والمعدوم لتحسين أوضاعهم ، وتقاعسهم عن طلب العلاج فى حالة المرض ، ولكن القضية كلها تنحصر فى نقطة واحدة هى أن بعض الأمهات الساذجات فى مصر وغيرها، وهن اللاتى كتب عنهن رضا أمين^(٢) لا يعتنين بصحة أطفالهن بصورة كافية أو ملائمة. وعليه .. فجرثومة تواكلهن تكمن فى إهمالهن، وليس بالطبع فى دينهن ، الذى نزل أول تعليم فيه بالأمر الديناميكي والواجب تنفيذه «اقرأ» (العلق ١) ، ولعل دانيال (Daniel) كان من الذين ناقشوا هذه النقطة فلاحظ أن المسلمين فى القرن السابع عشر، وهو زمن انحطاطهم الشديد ، اعتادوا ألا يبذلوا أى مجهود، أخذاً بالاحتياجات الواقية من الطاعون ، فى حين أنهم عندما كانوا متمسكين بدينهم فى القرون الوسطى كان هذا النمط من الاستسلام المطلق غير موجود^(٣) .

ومن ثمّ فسلوك الناس يمكن أن يكون مختلفاً تماماً عن تعاليم دينهم ، ولكن ما الذى يقوله القرآن بالفعل ؟ أهو الجبر أم غيره ؟
لقد وجد (بيثمان) (Bethman) من خلال دراسته لموضوع القضاء والقدر عدداً كبيراً من آيات القرآن تركت لديه انطباعاً جعله لا يشك مطلقاً فى أن مسيرة الإنسان الحياتية قد وضعت ونظمت مسبقاً ، ولا يمكن لشيء أن يعرف قبلاً ، أو أن يمنع حدوثه^(٤) ، ثم أضاف

(١) الجبرية : الإيمان بالقضاء والقدر . (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (R. Amine)

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ١٥٠ - ١٦٠ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) .

(سيل) (Sale) إلى ذلك : « إن الخير والشر ثابتان لا يتغيران ، ولا يمكن للبصيرة الثاقبة أو الحكمة الصائبة أن توجد أى احتمال لتلافيهما»^(١) ، ثم اتهم (درايكوت) (Draycott) الإسلام بنفس الضراوة العمياء بأنه يرسخ معتقده القوي بالجبرية فيقول : « إنها ليست جبرية للسبب وللتأثير ، بحيث تولد من خلالها روح السبب العظيم ، الذى لا يمكن للإنسان أن يدركه ، وإنما هى الإيمان بالاحتمية ، التى يفرضها كائن ذو سلطة كلية ، وقدرة نزوية ، لا يستطيع الجنس البشرى معها أن يبدل ، ولو أنملة دقيقة ، فى نصيبه المرسوم له »^(٢) .

والى نفس المدرسة ينتمى (فون جرونباوم) (Von Grunebaum) الذى خلص من أمثال الآية الآتية إلى أنها إنكار لحرية الإرادة فيقول : «إنها تدعو إلى إغماض العين عن الماضى ، واللامبالاة بالحاضر ، وعدم الاهتمام بالمستقبل»^(٣) .

﴿ والله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴾
[آل عمران آية ١٢٩]

ثم أخطأ (بيثمان) فزعم أن الإسلام قد كبت السعى للارتقاء السلوكى ، ومنع كل النضال للوصول إلى الأهداف السامية ، وكبح كل المساعى لتحسين الأخلاق ، كما لم ير - بيثمان - فى الإسلام أى مجال للمسئولية الشخصية عن النجاح أو الفشل . وسوف نعرض لمناقشة هذه الانطباعات الخاطئة لهؤلاء المستشرقين فى الصفحات القادمة .

أما ما جاء به (لامنز) (Lammens) و (وات) (Watt) فقد تعارض تماماً مع وجهات النظر السابقة ، إذ بدا لهم واضحاً لدى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٧٤ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Draycott) وفى المرجع انظر ص ١٣ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Von Grunebaum) وفى المرجع انظر ص ٧ .

ملاحظتهم لآيات كثيرة أن « هداية الله والضلال يتبعان بلا انقطاع تصرفات الإنسان من إيمان وتقوى أو من كفر وشر »^(١)، وأضاف (وات) (Watt) : « صحيح أن هناك كثيراً من الجبرية بين المسلمين ، ولكن الإسلام المثالي الصحيح الموجود في القرآن يقاومها بعنف رغم ما يتكرر من أسلوب حول معنى التدين الحقيقي من اعتماد على الله لمنحنا القدرة على التصرف ، ولحمايتنا من الشر »^(٢) .

وبنظرة أوسع وأرحب إلى القرآن ، أتى (أربري ولاندو) (Arberry and Landau) بشرح للعلاقة بين الله سبحانه وتعالى وبين الإنسان : «من المتفق عليه أن كل نفس يتنفسه الإنسان ، بل وكل لمحة يأتي بها ، وكل حركة - هو بفضل القوة والطاقة اللتين أنشأهما الله في جسده ، فلا حركة بدونهما ، كما أن الناس لا يزالون أحراراً في تصرفهم بطريقة ملائمة، وبجدارة، في ظل إحساس حقيقي بأنهم سيثابون أو يعاقبون »^(٣) فقد أنزل الله تعالى الأوامر والنواهي ، وأرسل رسلاً مبشرين ومنذرين للناس ، حتى يتمكنوا من تقييم أعمالهم .

وعلى نفس المنوال أعلن (لويس) (Lewis) أنه مهما كانت القيود التي وضعها القضاء الإلهي على الحرية الإنسانية ، فإن لدى الناس حرية كافية في إطار هذه القيود ليقرروا مصيرهم بأنفسهم ، وعليه فبعيداً عن الاعتقاد بأن الإسلام دين جبرية - نرى أن الإسلام دين يميزه شعور قوى بالمسؤولية الإنسانية تجاه التصرف ، إذ لا يمكن لإنسان أن ينوب عن آخر في العذاب^(٤) ، فالله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا في حدود

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lammens) ، وتحت (Watt) كتاب (الجبر والاختيار في الإسلام) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (الجبر والاختيار في الإسلام) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry and Lammens) وفي المرجع انظر

ص ٢٥٠ - ٣٠٥ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lewis) وفي المرجع انظر ص ١٠٠ - ١١٠ .

استعدادها وطاقتها : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ... ﴾ [البقرة آية ٢٨٦] ، كذلك لا تحمل نفس أوزار أخرى : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [النجم آية ٣٨]

لقد وقع كل من (جيردنر) (Gairdner) (٢) و (ليفى) (Levy) (٣) بكل أسف فى خلط كبير ، عندما قرءوا وجهة النظر القرآنية فى هذا الموضوع ، إذ ظننا أن هناك نغمتين متباينتين فى القرآن ، فأعلنا أن الإسلام فعّال بناء فى بعض الأوقات فقط ، أما فى الأوقات الأخرى فإنه يغرق فى جبرية ميتة .

فماذا يقول القرآن حول هذا الموضوع ؟

لا يمكن تركيز أقوال القرآن عن هذا الموضوع المتشعب فى كبسولة صغيرة ، ولكى نكون رأياً دعونا نتأمل فى قليل من الآيات التى يستشهد بها عادة المستشرقون الذين يكتبون فى هذا الموضوع الخلافى . لقد ذكرنا قبلاً فى الفصل العاشر أن الله القادر العليم قد خلق الكون وحفظه وأحكمه ، بل وصوّر كل شىء بإبداع وإتقان : ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ [الأنعام آية ٧٣]

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وفى المرجع انظر ص ١٣٠ - ١٤٥ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ٢٥ - ٣٠ .

لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴿ [إبراهيم آية ٣٢ - ٣٤]

وبالرغم من أن عديداً من الظواهر الطبيعية خاضع للإنسان ، فإن الإنسان نفسه مخلوق من مخلوقات الله تعالى ، .. قد يكون مخلوقاً موهوباً باعتراف الجميع إلا أنه ينبغي عليه ألا يضع نفسه فوق وضعه المناسب : ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتهم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [الروم آية ٤٠]

وعندما تصور أحد الملوك الجبابرة فى نفسه أنه السيد المهيمن على كل شئء ، وتّخه إبراهيم عليه السلام ووضع فى حجمه ، وها هو ذا الحوار الذى دار بينهما وقد بدا حياً ناطقاً فى القرآن : ﴿ ألم ترالى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ [البقرة آية ٢٥٨]

فلا أحد يستطيع أن يجعل الشمس تشرق من المغرب ، أو أن يوقف دوران الأرض ، أو يمنع القمر من أن يكبر أو يتضاءل ، .. إن هذه الظواهر الطبيعية ، وغيرها كثير ، قد سخّرها الله سبحانه تسخييراً لخدمة الإنسان ، فهى بعيدة عن قدراته ومسئوليته ، لأنها كلها تدخل فى نطاق الملكية المباشرة لله سبحانه وتعالى : ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ﴾ [الأنبياء آية ٣١]

فإذا قرأ الإنسان هذه الآية تبين له أنه لا يمكنه التحكم فى الجبال ليمنع الأرض من التزلزل ، فى حين أنه يمكنه ببعض الجهود أن يستغل الوهاد ليهتدى بها ويسلكها أثناء السفر ، لأن هذا الجهود فى حدود قدرته ، فهو لذلك مطالب بأن يبذل مجهوداً ، ومسئول عن البحث فى

وديان الأرض وطبائعها المختلفة حتى يتبين أفضل الطرق التي يستخدمها في أسفاره وفي معيشته . فهذا المجهود هو في حدود طاقته ، فهو لذلك يقع في دائرة اختياره ، ومن ثمّ مسؤوليته .

وقد توجد أدلة كثيرة على: محدودية قدرات الإنسان واستعداداته ، وآفاق حواسه ومداهما ، وكذا معرفته ، وأخيراً وليس آخراً .. حياته ، وبالطبع عقله ووعيه وقواه الحدسية والبدئية ، وهي كلها مناسبة وكافية لأخذ القرار الصحيح في الكثير من المواقف ، وليست كلها على الإطلاق بالطبع ، ولكنها نسبية ، فكل رجل وكل امرأة أوتى الاستطاعة للتفريق بين الخطأ والصواب : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد آية ١٠]

ومن ثمّ فكل منهما مسئول عن اتخاذ القرار المناسب ، كما أن الإنسان لا يعيش في فراغ ، لذا ينبغي أن يعمل عقله ، ويفكر قبل أن يخطو أي خطوة في حياته ، ويطلب العون من أي مصدر ، أينما وجده أو التمسه ، فذلك أمر بدهي ، وحقيقة مقررة وواضحة ، باعتباره مالكاً لقدرات محدودة ، والعون الأكبر للمؤمنين يأتيهم من عند الله تعالى القادر العليم ، الرؤوف الرحيم ، الذي أرسل الرسالات لهداية الإنسانية إلى طرق الحياة السوية : ﴿ لقد مَنَّ اللهُ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [آل عمران آية ١٦٤]

فالله سبحانه يُحمّل الإنسان المسؤولية فقط بعد أن يرسل إليه رسالة الهداية ، وذلك لرحمته الواسعة : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء آية ١٥]

فالإنسان يتحمّل المسؤولية عن الأعمال التي يؤديها هو بنفسه ، لا عما يرتكبه غيره ، وتكون هذه المسؤولية وفق حرите ودرجتها ، وحسب

العمل الذى يمكنه أدائه ، أو الذى يمكنه أن يحجم عنه ، وتأثيره ، أما أعمال الخير التى يقوم بها فتحسب له فى صحيفته ، كما تحسب عليه السيئات التى يرتكبها عن قصد ، وبملاء إرادته ، وبكامل تحكّمه فى عقله وحواسه ، فإذا لم يلتمس المغفرة من ربه فما عليه إلا أن يتوقع عقابه العادل : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً * ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً ﴾

[النساء آية ١١٠ - ١١١]

فعمل الإنسان ، لا ماله ولا بنوه - هو الذى يسجل فى الصحيفة : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون * والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون ﴾

[سبأ ٣٧ - ٣٨]

وإذا حدث وارتكب إنسان إثماً دون قصد ، بأن كان ناسياً أو تحت تأثير خارجى ، فإن الله الرحيم يمنحه المغفرة ، ولكن بشرط أن يسأل الله التوبة بضرعة وإخلاص وإلحاح : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾

[البقرة آية ٢٨٦]

وفى مقابل ذلك ؛ إذا حاولت أن تصنع معروفاً ، ولكنك لسبب خارجى لم تتمكن من إنجازه ، فإنك تثاب بسخاء لنتك الطيبة : ﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ﴾

[النساء آية ١٠٠]

وبينما يتلقى المتقون الصابرون المحسنون ثواباً عظيماً ، نجد أولئك الذين أكرهوا وأجبروا على فعل الشر رغم أنوفهم وقد غُفِرَ لهم: ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴾ [الزمر آية ٣٣ - ٣٤]

﴿ من كفر بالله بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ [النحل آية ١٠٦]

أما الكفار الذين رفضوا رسالات الله تعالى بإرادتهم ، فيمكنهم أن يتحملوا مسئولية أفعالهم ، ولن يستطيعوا أن ينكروا قدراتهم التي تمتعوا بها !! ولعلهم يخدعون أنفسهم حين يقنعونها بأن كفرهم هو قدرهم ، وأنه إرادة الله التي لم يمكنهم تبديلها !!

﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ [الأنعام آية ١٤٨]

فهم يتبعون الظن ، ويقولون الكذب الذي هم متأكدون في صميم قلوبهم أنه زيف ، إذ إنهم ولا شك يسلمون بأنهم يملكون إرادتهم خلال حياتهم على الأرض ، وأن الخيار موفور لديهم لاتباع إحدى الطريقتين : إما الخير وإما الشر .

ولا ريب في أن الله تعالى قادر على وضعهم على الصراط القويم جبراً وقسراً ، إلا أنه يترك لهم حرية الاختيار : ﴿ .. ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ [الأنعام آية ٣٥]

﴿ ... ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما

آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه
تختلفون ﴿ [المائدة آية ٤٨]

لقد منحوا القدرة على الاختيار ، حتى لقد استخدم الكافرون
برسالات الله ، وبملاء إرادتهم منطقاً سقيماً : ﴿ إذ جاءتهم الرسل من
بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل
ملائكة فإننا بما أرسلتم به كافرون ﴾ [فصلت آية ١٤]

وبدلاً من أن يهتموا بالرسالة ، ويستخدموا عقولهم ليحكموا على
الحقيقة بأنفسهم ، اختاروا أن ينكروها حتى قبل سماعها ، وأتوا بأى
دليل ، بغض النظر عن علاقته بالموضوع ، من أجل المطالبة بأن رسالة
الله ينبغي أن تحملها الملائكة ، ومن ثم فإن هذا الإنكار المجحف الدائم
للحقيقة يؤهلهم للعقاب الإلهي في الآخرة : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو
نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ [الملك آية ١٠]

فالذين غلقوا عقولهم من ناحية الرسالة ، واتبعوا معتقدات أجدادهم
الخطئة كالعميان ، ينتهون بلا شك إلى أن يصبحوا ملحدين أو
مشركين ، وعندئذ يعلنون أن ذلك قد قدر عليهم : ﴿ وقالوا لو شاء
الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون * أم
آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا
على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ [الزخرف آية ٢٠ - ٢٢]

وعلى ذلك ؛ فالإسلام لا يدع الإنسان يحيد عن الصراط المستقيم
ثم يلوم قدره ونصيبه خطأ وظلماً ، فلو كان الأمر هكذا لباتت شرائع الله
تعالى ورسالاته وكتبه ووعدته بالثواب ووعيده بالعقاب - أمراً عقيماً لا
طائل منه ، ولاستحال التوفيق والمصالحة بين الحكمة الإلهية وعدالتها^(١) .
إن القرآن الكريم يدين كل من يحاولون أن يبرروا كفرهم وسوء تصرفهم

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (K. Morgan) وبالمرجع انظر ص ١١٠ - ١٦٠ .

بأنها الأقدار والأنصباء ، وكذلك من يحاولون إنكار مسئوليتهم عن ارتكابهم للسيئات : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون * فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ [الأعراف آية ٢٨ - ٣٠]

كما أن الله سبحانه يقبل أولئك الذين أعملوا عقولهم وفكروا ، ورأوا النور واتبعوا الصراط المستقيم ، وأعدوا أنفسهم لرحمة الله وثوابه : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا ما في صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [الأعراف آية ٤٢ - ٤٣]

فهل في هذا ما يدعو إلى الجبرية ؟ أليست الهداية الإلهية ضرورية بصورة مطلقة لمعرفة الطريق المستقيم ؟ ومن غير الله الخبير هو الهادي ؟ إننا لا ينبغي أن ننسى حقيقة أن هداية الله متاحة لأي إنسان ، رجلاً أو امرأة ، وأن على من يريد اختيارها أن يبذل مجهوداً محدوداً ، فالدين لا يطلب من المؤمن صحيفة مفعمة بأعمال الخير التي يفعلها ، لأن المؤمن يدرك تماماً أن النعمة الإلهية وهدايته تتضمن الإمكانيات والقدرات التي خلقها الله فيه ، والملكات التي أتاحتها الله له : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ [النحل آية ٧٨]

ولعل أولئك المستشرقين من أمثال (بيثمان) (Bethman) و(فون جرونباوم) (Von Grunebaum) الذين افترضوا دعوة القرآن إلى

الجبرية قد اختلط عليهم الأمر حين قرأوا الآية : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس .. ﴾ .

وذلك لأنهم لم يقرأوا باقى الآية التى تصف أولئك الجن والإنس :
﴿ ... لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾
[الأعراف آية ١٧٩]

فالكفار لم يبحثوا عن هدى الله ، بل إن بعضهم قد تجنّب عمداً ، كذلك لم يستخدموا قدراتهم التى منحها الله لهم ، ولأنهم لم ينتهزوا فرصة وجود العقول فقد صاروا أسوأ من الماشية التى ليس لديها عقل !!! أينكرون أنه كانت لديهم الحرية والقدرة الوافرة ليروا آيات الله ويسمعوها ويدرسوها ؟ ألم يحجموا عن فعل ذلك قصداً وتعمداً ؟

ولقد بحث (بيثمان) وزملاؤه عن دعامة إضافية لنفس التخبط فى الآية : ﴿ والله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴾ [آل عمران آية ١٢٩] ، والتى نزلت مبكراً ، فعندما قرأوا أن الله يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، فقدوا توازنهم ، وانطلقوا فى اتهامات تجديفية سخيفة ، بأن قالوا : « إن الله قدرة نزوية لا يحدّها القانون الأخلاقى ، فهو للاشياء يمن على الإنسان بهدايته ، وبثوابه ، أو يأخذه بعقابه ، وليس ذلك وفق عمله » (١) ، ولكننا يجب علينا أن نقرأ هذه الآية معا ، ومع آيات أخرى فى القرآن نفسه ، بمنتهى العقلانية ، وبذهن صاف ، وعلى سبيل المثال : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾
[النساء آية ٤٠]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٧٤ ، وانظر تحت (Draycott) وفيه انظر ص ١٣ ، وانظر كذلك تحت (Von Grunebaum) وفى المرجع انظر ص ١١١ ، ١٥٠ - ١٦٠ .

بل إن العمل السيء ، يغفر الله لمرتكبه إن شاء ، ويعاقبه إن شاء ،
فإن غفر فهو تعالى الرحيم الرؤوف ، وإن عاقب فهو ولا شك الحكم
العدل ، ذلك أن الله سبحانه ينزل العقاب العادل بالمذنب الذى أتى
بالذنب بإرادته المطلقة وبقدرته الكاملة ، وبناء على ذلك فأين هو أساس
الاتهامات السابقة ؟

إن الدارسين المسلمين يعرفون جيداً أن الآيات القرآنية يفسر بعضها
بعضاً^(١) ، لذلك فإننا ينبغي - إذا قرأنا الآية رقم (١٢٩) من سورة آل
عمران والتي ذكرناها من قبل - أن نصحبها بالآيات التالية من سورة
النجم : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم
يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم آية ٣٩ - ٤٢]

وإذن ، فلا وجود لنزوة ، وإنما هي الرأفة والرحمة ، ولا إرهاب ،
وإنما هي الراحة ، والأمل ، ولا جبرية ، وإنما هو العمل الصالح ،
والإيمان العميق باللطيف الرحيم ، الكريم الحكيم العدل .

والمفهوم الإسلامى للقضاء والقدر بأن كل شيء ، بما فى ذلك
الطبيعة البشرية وتصرفاتها - داخل فى نطاق علم الله سبحانه وتعالى
الخالق العليم : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور *
ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك آية ١٣ - ١٤]

فالله عزّ وجل لا يجبر الإنسان على أن يختار ، وإنما هو يهديه
ويوفقه ليعمل جاهداً للنجاة بالإيمان ، والأعمال الصالحة .

القرآن فى مقابل السنة :

إن مما أدهشنى كثيراً أن أعلم أن (وات) (Watt) هو الدارس
الوحيد الذى تصور السنة النبوية على أنها تتضمن « جبرية ملحدة

(١) انظر (التفسير القرآنى للقرآن) للأستاذ عبد الكريم الخطيب - ٤ أجزاء - دار الفكر -
القاهرة سنة ١٩٧٠ .

ومباشرة وصريحة » ، وأنها كذلك تتضمن تناقضاً صارخاً مع معطيات القرآن^(١) . ولقد وصم (وات) السنة المشرفة بأنها تدعو إلى الإلحاد والجبرية في نفس الوقت الذي أتى فيه القرآن يغمر صفحاته الإيمان بوجود الله تعالى ، وبأن مسيرة العالم والحياة الإنسانية يحكمها الله الحق الرحيم ، ومن كلمات (وات) عن السنة النبوية : « من الحقائق البارزة منها أن الحياة الإنسانية محكومة وثابتة ، وأن قوى التحكم فيها قوى مبهمة غامضة ولا يمكن تشخيصها ، كما جاء في عبارة النبي ﷺ : «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك» ، فقد ترجم العبارة (ما يصيبك) ولاشك أن هذه الترجمة خاطئة باتفاق الجميع ، كما سرى بعد ذلك^(٢) ، وقد عزا (وات) ما تصوره خطأ من جبرية في تعاليم النبي ﷺ إلى تسرب بعض التقاليد والأعراف الجاهلية إلى الإسلام عند ظهوره .

ولسوء حظ (وات) أنه ارتكب خطأين في استشاده السابق بقول النبي لله : أحدهما أنه استخدم التصريف الخاطيء^(٣) في الترجمة ، والآخر هو أنه استشهد بجزء فقط من الحديث دون الكل ، وقد قاده هذا الفهم إلى اتهامه المتحمس لتعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام بالجبرية .

ولكن لكي يتم التقييم العقلاني ينبغي على الأقل أن نستشهد بكل ما قاله الرسول حول هذه المسألة ، وقد جاء ضمن نصيحته لابن عمه الصغير (عبد الله بن عباس) فقال عليه الصلاة والسلام : « يا غلام إنني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (الجبر والاختيار في الإسلام) .

(٢) انظر المرجع السابق .

(٣) الخطأ في التصريف هنا يتعلق بكلمة (يصيبك) في المضارع ، بمعنى : أنه لا يزال

يحدث ، على حين أن الصحيح هو أن (ما أصابك) بالفعل الماضي ، وشتان بين المعنيين .
(المترجم) .

اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام ورفعت الصحف . واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا» (١) .

والآن ، فى أى موضوع فى هذا الحديث اشتم (وات) (Watt) إلحاداً أو جبرية ؟ أين أدرك التناقض مع تعاليم القرآن ؟ إن القرآن الكريم يقول : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾

[يونس آية ١٠٧]

ونسأل هنا : ألم يتلق الرسول ﷺ وحياً يرفع من معنوياته عندما كانت معنوياته فى أدنى درجات الانخفاض : ﴿ فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب ﴾

[الشرح آية ٥ - ٨]

وبعيداً عن الدعوة للجبرية أو الإلحاد ، فإن النصيحة السابقة التى وجهها عليه الصلاة والسلام إلى ابن عمه تم عن ثفاؤل ، وتوحيد خالص ، وشجاعة ودأب ومثابرة ، وفوق ذلك تسفر عن إيمان قوى بالله الرحمن الرحيم .

ولا ريب فى أن المسلمين لا يرون جبرية فى القرآن ولا فى السنة ، حتى لقد روى عن النبى ﷺ أن الإنسان بأثامه يحرم نفسه من بعض مدد الله عز وجل (٢) ، وهو ما ينسجم مع الآيات : ﴿ أو لم يهد للذين يرثون

(١) انظر كتاب (رياض الصالحين) للمحدث يحيى شرف الدين النووى . (الجمهورية) القاهرة سنة ١٩٦٠ .

(٢) لعل المؤلف يقصد الحديث الذى رواه ابن ماجه والبخارى والبيهقى من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « يا معشر المهاجرين ، خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يلعنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن =

الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على
قلوبهم فهم لا يسمعون ﴿

[الأعراف آية ١٠٠]

﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾

[هود آية ١١٧]

ومن خلال التعاليم القرآنية والتعاليم النبوية يظهر أن توبة الإنسان
وندمه على خطيئته يحسن أوضاعه في هذه الدنيا وفي الآخرة ، وعلى
سبيل المثال يقول القرآن : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا *
يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم
جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾

[نوح آية ١٠ - ١٢]

وروى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ ذكر أن من استغفر
الله تعالى كثيراً يؤتى الفرج من كل هم ، ويرزق من حيث لا يحتسب^(١)
فالرسول إذن أدان الموقف الجبري الذي بدا من بعض المسلمين التافهين
في هذه الآونة ، والذين لا يفعلون شيئاً سوى الإدعاء بأنهم يتوكلون
على الله .

وبمجرد قراءة القرآن والحديث ، وبمجرد فهم أسلوبهما ، يشعر
الإنسان بالانسجام التام والتوافق الكامل بين تعاليمهما . ولا عجب أن
القرآن الكريم يفرض على المؤمنين أن يطيعوا الله ورسوله : ﴿ يا أيها
الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾

[الأنفال آية ٢٠]

= في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المؤنة وجور السلطان ،
ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولا نقضوا عهد
الله وعهد رسوله إلا سلب عليهم عدواً من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم
أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم . (المترجم) .

(١) لعل المؤلف يقصد الحديث : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :
من لزم الاستغفار جعل الله له من كل فرجا ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا
يحتسب . (رواه أبو داود والنسائي ، وابن ماجه ، والبيهقي) وهو صحيح الإسناد . (المترجم) .

وَأَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ : ﴿... فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ﴾

[الأعراف آية ١٥٨]

فلو وجد الاختلاف والتناقض بين الحديث والآيات القرآنية لما وجدت أى من هذه الوصايا ، ولو كان التعارض الذى تصوّره (وات) حقيقياً لبدت طاعة الرسول ﷺ وكأنها تشكّل فى نفس الوقت رفضاً للقرآن ، وعصياناً لأوامره . ونحن نتساءل : كيف استطاعت مصادر القدر الإلهى التى تعد خارج هذا العلم أن تأتى على لسان النبى ﷺ بصورة غامضة بالنسبة لـ (وات ولآخرين ؟) !

بهذا قد يكون التفسير الوحيد للغلط الذى وقع فيه (وات Watt) ، وهو أنه ربما عن عدم فهم لم يتمكن من الإمام بالسنة النبوية كلها ، أو أنه لم يكتسب القدرة على السيطرة الشاملة على وجهات النظر القرآنية ، وخاصة فى موضوع متشعب كهذا ، وقد يلتمس له العذر فى قلة علمه باللغة العربية .

الخلاصة :

يمكن وصف الإنسان بأنه عضو فى المجتمع ، وحفيد وسلف لأجيال ، وحلقة فى سلسلة طويلة ، ومخلوق فى كون ، ومن ثم لا يمكن الحكم على إرادته ولا الزعم أبداً بأن حرّيته مطلقة فى كل النواحي ، أو أنها تنبسط فوق الزمن والمسافة ، وإنما يمكن القول بأن حرّيته بحكم الطبيعة مقيدة بقيود معينة .

ولا ينبغى لهذه الحقيقة أن تكون بأى حال من الأحوال مصدراً للاستحياء أو القلق ، لسبب بسيط هو أن مدى حرية الإنسان يتناسب تماماً مع مدى قدراته الذهنية والطبيعية ، والتى تكون أحياناً مادة للفخر لبعضهم ، إلا أنها مقيدة ومحددة بصورة حتمية ، وبلا شك :

كذلك ، لا يتوقع الإنسان رأياً شاملاً محدوداً وفاصلاً على طريقة

الأبيض والأسود فى مثل موضوع واسع ومتشعب كموضوع الإرادة والقضاء والقدر ، الذى أعيا عقول كثير من المفكرين عبر القرون . ولكن على أية حال ، هذا الموضوع لا يتعلق فقط بحياة الإنسان كلها ، بل يتعلق أيضاً بمصيره فى الآخرة ، ومن أجل هذا فالقرآن يدين موقف الجبرية ، باعتباره استعمالاً خاطئاً للعقل البشرى ، وعذراً لا يمكن تبريره ، جاء به المذنبون ليلقوا بتبعة المسؤولية بعيداً عن كواهلهم ، إذ إن موضوع الإرادة والقضاء والقدر يرعى وجهة نظر متعلقة بهذا العالم وبالآخرة على حد سواء . وعلى هذا فإن الجنس الإنسانى مخلوق مسئول عن أعماله أمام الله الرحمن الرحيم ، كما أنه يعتمد اعتماداً كاملاً عليه عز وجل .



الفصل الرابع عشر

القرآن والعالم الميتافيزيقي^(١)

ليست كل الأشياء في الوجود قابلة لأن ندركها بحواسنا ، فهناك أشياء في هذا العالم لا يمكن أن نراها ، أو نسمعها ، أو نلمسها ، أو نشمها ، ورغم هذا فهي مثبتة منذ قديم ضمن الحقائق التي نقر بها ونسلم ، وكلما تعلمنا أكثر أصبحنا مدركين لوجود مخلوقات وعناصر وبيئات ، ربما قد نتصورها جديدة علينا ، مع أنها موجودة منذ أمد بعيد .

وعلى سبيل المثال ؛ لم يعلم الناس من قرنين من الزمان بوجود الميكروبات ، أو الفيروسات ، أو الموجات الكهرومغناطيسية ، أو الأيونوسفير^(٢) ، وقد نرى بالطبع أن مدى المعرفة قد اتسع بصورة هائلة في العقود القليلة السابقة ، بيد أن هذا الاتساع لم يزل محصوراً في العالم المادى .

إننا يمكننا أن نحصل على معلومات حول العالم الميتافيزيقي عن طريق حواسنا بواسطة التجارب الطبيعية ، وذلك لأن مصدر علمنا به هو الوحي الإلهي الذي ينقل عن طريق الأنبياء ، أو طريق المدركات الحسية الأخروية التي يلهمها الأولياء والصالحون ، أما أولئك الذين يتخذون قنوات أخرى للتفتيش عن المعرفة المتعلقة بالغيب فإنهم لا ينتهون إلى شيء ، اللهم إلا مجرد الحدس والتخمين .

والعالم الفوطبيعي أو الميتافيزيقي شاسع للغاية وأكبر بكثير مما تدركه

(١) ميتافيزيقي : ويسمى أيضاً « فوطبيعي » ما وراء الطبيعة . (المترجم) .

(٢) الأيونوسفير : الغلاف الأيونى ذلك الجزء المؤين من جو الأرض الذى يبدأ على ارتفاع

(٢٥) ميلاً تقريباً ، ويمتد إلى ارتفاع (٢٥٠) ميلاً أو أكثر . (المترجم) .

وتلمسه حواسنا المحدودة ، فمثلاً ، يُعرف الإنسان من الناحية الطبيعية بجسده فقط وبالظواهر الطبيعية التي تعمل داخله ، أما من الناحية الميتافيزيقية فهو ليس مجرد جسد فقط ، وإنما هو أيضاً نفس وروح ، بالإضافة إلى القلب ، وهذا القلب الميتافيزيقي ليس ذلك العضو الذي يضخ الدم خلال الرئتين وباقي الجسم ، وإنما هو مركز الانفعال ، والحب ، والكراهية ، والرقة ، والتشوف ، والغضب ، والسعادة ، والكآبة .

الروح :

ونعنى بالروح ذلك الوجود الذي إذا ارتبط بالجسد أفاد معنى الحياة ، وإن غادره تركه بلا حياة ، فالفارق بين حياة شخص وحيوان ونبات وموتهم يعد قاسياً بأبسط الأقوال ، مع أن الفوارق الطبيعية بين الجسد قبيل الموت وبعده مباشرة ضئيلة جداً ، فما الذي سبب توقف نشاط كل وظيفة جسدية ؟ وما الذي يعزل الشخص عما حوله مباشرة ، وعن بقية العالم ؟ إنه يكف عن الرؤية رغم أن عينيه محدقتان ، لم يعد يسمع على الرغم من أن أذنيه بحالة ممتازة ، كما كانتا قبل ذلك ، ومع أن أعصابه الحسية ومركز الإحساس الموجود في دماغه لا تزال هناك ، وهي غالباً سليمة ، إلا أنه لا يمكن الشعور بلمسة ، أو بوخزة ، أو حتى بلطمة .

فما الروح التي تعد معيناً لا ينضب من النشاط والحيوية ؟ لقد سلّمت الأغلبية بوجودها ، ولكن لا أحد غير الله سبحانه وتعالى يعرف جوهرها ، يقول القرآن : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء آية ٨٥]

النفس والقلب :

لقد أودع الله تعالى في الإنسان إحساساً بالمسئولية باعتباره الكائن المفكر الوحيد على الأرض ، وحالة كونه هذه الواعية بنفسه والباحثة عن معرفة قدراتها تعد خطوة جوهرية في سعيه للبحث عن معرفة الله ، ذلك أن الإنسان يقاسم المملكة الحيوانية في الحاجات الطبيعية كالأكل والنوم

والنسل وسائر الغرائز الفطرية الأخرى ، ولكن ملكاته العليا هي التي نصّبت فوق البهائم ، وأعلى ملكة هي السبب الذي يقدره على التفكير في وجود الله تعالى وصفاته .

ويعد العقل والحواس وباقي القدرات المادية للإنسان أدوات ووسائل تحت تصرف نفسه ليكتسب السعادة في الدنيا والآخرة . وكل حاسة من حواس الإنسان لها مبهجاتها ، فما يسر العين هو رؤية الجمال في الطبيعة وفي وجوه المقربين ، ومتعة الأذن في الاستماع إلى أصوات متناغمة ومقطوعات موسيقية ، أما بالنسبة لأولئك الباحثين عن معرفة الله فإن الروحية الشديدة تكون في إدراك الحقيقة ، وتغدو النفس في قمة سعادتها عند التفكير في الإله ، وعند الوجود في حضرته ، إن الذي ينقصه الاهتمام بسعادة روحه إنما يحرم نفسه من نعيم هائل ، ويفوق ذلك الحرمان ما يحدثه استئصال سمعه وبصره من حواسه .

فالشخص الذي يسمح لشهواته أن تسوده ، ويهمل نفسه بالسماح لملكاتها وقدراتها أن تخمد ، لا يكون إلا خاسراً في هذه الدنيا وفي الآخرة ﴿ ونفس وما سواها * فآلهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّأها * وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس آية ٧ - ١٠]

﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾ [الإسراء آية ٧٢]

إن أولئك الذين ربّوا أنفسهم على الدين والاستقامة سوف ينعمون بالصفاء والسعادة في هذا العالم ، وفي يوم القيامة : ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأساً ولا رهقاً ﴾ [الجن آية ١٣]

ولقد جاء وصف القلب ، مركز الشعور والرغبة على لسان الغزالي ، ذلك العلامة الصوفي العظيم ، بأن له نافذة تفتح على العالم اللامرئي^(١) ، فكلما نقى الإنسان نفسه من الرغائب الدنيوية ، وركّز

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Galwash) جزء (٢) ص ٢١١ .

اهتمام نفسه برسالات الله وتخلقه ، ازداد وعيه واستجابته للعالم الروحي ،
ويصبح قلبه أكثر صفاء ، وتفتحها ، كمرآة لامعة تعكس ببريق ما يسقط
عليها من النور الإلهي ، أما أعمال الشر والخطيئة فإنها تطرح بقعة سوداء
في شفافية القلب ، وتعكر صفاء المرآة .

ومن كلمات الصوفى المعاصر الإنجليزي (لينجز) (Lings) ،
« كما ينقل القمر ضوء الشمس إلى الأرض في ظلام الليل ، فكذلك
ينقل القلب ضوء الروح إلى ظلام النفس ، وكما نعلم فإن ضوء القمر
غير مباشر ، إلا أن القمر البادى في سماء الليل الدامس هو نفسه ينظر
إلى الشمس مباشرة ، والقمر نفسه يبدو وكأنه يحس بأنه في ضوء
النهار »^(١) . إن هذه الرمزية تظهر تفوق القلب ، وتوضح المقصود
بالقول : بأن القلب هو أداة الرؤية الروحية المباشرة ، ولكن هذه الأداة
تتجب ، بل تطمس في الإنسان العاصي ، إذ يفقد قلبه - لاعيناه -
الإحساس بالرؤية الروحية بسبب آثامه :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان
يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في
الصدور ﴾ [الحج آية ٤٦]

﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا إنهم عن
ربهم يومئذ لحجوبون ﴾ [المطففين آية ١٤ - ١٥]

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن
القلوب * الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾
[الرعد آية ٢٨ - ٢٩]

كما أن أولئك الذين عنوا بتهديب قلوبهم سوف يكونون هم
المفلحين يوم الحساب : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله
بقلب سليم ﴾ [الشعراء آية ٨٨ - ٨٩]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lings) ص ٥١ .

الموت والقبر :

لكل نفس أجلها المعلوم فى هذا العالم ، فتنتهى إلى الموت حيث المستقر عند الله الخالق ، فبالموت تفقد الروح السيطرة على الجسد الذى يبدأ فى البلى والتحلل ، ولن تكسب النفس شيئاً أكثر مما كسبت ، سواء خيراً أم شراً ، إنها تدلف بخطوتها الأولى إلى العالم الغيبى وتبدأ فى فهم بيئتها الجديدة بدرجة لا يمكن تحديدها إطلاقاً بالحواس الطبيعية فى الجسم .

ويصور القرآن الكريم عملية الموت على أنها تتم تدريجياً فى كل مكان من الجسم ، فتصبح النفس منفصلة عن الناس من حولها، رغم أن الغلاف اللحمى يقبع بصورته الطبيعية فيما بينهم ، ولا يستطيع أحد أن يعيد الروح لترتبط مع الجسد من جديد: ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ .

[الواقعة ٨٣ - ٨٧]

لقد جاء التعبير عن الموت فى القرآن بأنه « اليقين » و« حق اليقين » ، ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ (الحجر ٩٩) ، ﴿ إن هذا لهُو حق اليقين ﴾ (الواقعة ٩٥) ، وكذلك (الرجعى) فى ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ [العلق آية ٨]

فالرجل أو المرأة لم يوصف أى منهما بأنه مَيِّت فى القرآن ، وإنما يستقبل الموت أو يأتية الموت : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة ١٣٢]

﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نساءكن فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً ﴾ [النساء آية ١٥]

﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء

أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴿ [الأنعام آية ٦١]

فالموت وفق ما جاء به الإسلام - ليس نهاية - بل على العكس ،
إنه الخطوة الأولى إلى الآخرة ، كما أن الإنسان بعد الممات يدرك قيمة
عمله على الأرض ، إن كان خيراً أو شراً ، ويرى الثواب أو العقاب في
انتظاره .

البعث :

يتكرر موضوع البعث والحساب بصورة دائمة في القرآن لأنه أحد
المعتقدات الرئيسية في الإسلام ، وعلى الرغم من أن الكافرين قد أنكروه
قديماً وحديثاً ، فإن الإنسان مطالب دائماً بالتأمل في نفسه بمشاهدة
وبعقلانية : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم
مبين * وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم *
قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل
لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى
خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق
العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان
الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴿ [يس آية ٧٧ - ٨٣]

لقد تصور الكافرون ، القدامى والمحدثون ، أن البعث شىء مستحيل ،
متى تحلل الجسد ، وبلت العظام ، وصارت إلى التراب ، بيد أن حجة
كافرى اليوم أضعف جداً من سابقهم وخاصة عندما تم تأييد الحقيقة
القرآنية بالبرهان العلمى ، إذ إنه من المعروف للعلماء الطبيعيين المعاصرين
أن كل خلية من خلايا جسم الإنسان يدخل فى تكوينها بعض الغذاء
الذى يأكله الإنسان ، ومنه الخضراوات التى نبتت من الأرض ، وتغذت
هى بدورها من التراب . فكأن بعض مكونات خلايا جسم الإنسان كانت
تراباً قبل ذلك ببضعة أسابيع ، وكذلك ثبت أن بعض أنسجة الإنسان
تموت - حتى فى أثناء حياته - ثم تستبدل أنسجة جديدة نتيجة عملية
مستمرة ، كما أن شعر الإنسان يسقط ويتم تجديده جميعه تدريجياً مرة
كل ست سنوات .

فبالموت ؛ حتى بعد إحراق الجثة ، لا تتلاشى أية ذرة ، بتأثير التفاعلات الكيميائية الناتجة عن عملية الحرق ، بل إنها فقط تندمج مع ذرات كذرات الأكسوجين في الهواء الجوى ، ثم في التفاعلات التالية في الهواء وفي التربة وفي النبات وفي الحيوانات وغير ذلك ، فالذرات تتبادل أماكنها من المركبات ، ولكن كل ذرة مستقلة تظل موجودة على نفس حالتها ، بالإلكترونات الدوارة ، وكل هذا يتم تحت سلطان الله تعالى وأمره ، وفي فلكه ، وهو سبحانه يعلم شأن كل ذرة ومكانها وإلى أى جسم أو شيء تنتمي .

﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ [ق آية ٤]

﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [سبا آية ٣]

وعلى أية حال ؛ أليست عمليتنا النوم واليقظة الدائمنا الحدوث تذكيراً لنا بأننا سنموت ثم نبعث من جديد ؟ « فما أعجب الموت وأخاه النوم !؟ » وهي مقولة جاءت على لسان (شيللى) (Shelley) (١) .

وقد لا يصدق البعض أن كتاباً من أمثال الأب (منزس) (Menezes) يسخرون من تعاليم القرآن حول الموت والبعث ، فيصفها (منزس) - بأنها : « أسخف الأفكار ، خاصة عندما نعتبر أن أناساً كثيرين التهمتهم الحيوانات المتوحشة أو أحرقوا تماماً (٢) » ، وهنا نلاحظ أن الأب (منزس) قد تغاضى عن العبارتين الهامتين اللتين جاءتتا في الكتاب المقدس وأكدتا على وجود الحياة بعد الموت : « تحيا أمواتك ، تقوم الجثث ، استيقظوا ، ترنموا يا سكان التراب ، لأن ظلك ظل إغشاب ،

(١) شيللى شاعر انجليزى عاش فى أوائل القرن التاسع عشر ومن أعظم شعراء الرومانسية

الانجليزية . (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ١٤ .

والأرض تسقط الأخيلة » (سفر إشعيا - الإصحاح السادس والعشرين -
(١٩)

« وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى
الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للآزدرء الأبدى » (سفر دانيال -
الإصحاح الثانى عشر - ٢)

كما نجد فى كتاب (دكتور مودى) (Dr. Moody) (١) بعنوان
(الحياة بعد الحياة) - نجد فيه شهادة إثبات طبية غريبة بوجود حياة بعد
الموت ، ودليلها جاء مع أولئك الذين أعلن بالفعل أنهم ماتوا إكلينكيا ،
ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الحياة مرة أخرى .

ولنسأل أى إنسان منكر للحياة بعد الموت سؤالاً بسيطاً وندعه ليجيب
عنه : فى مرحلة حياتك السابقة ، عندما كنت جنيناً فى رحم أمك ، إذا
اتصل بك أحد فى تلك الأثناء وأخبرك أنك بعد فترة من الزمن ستخرج
وستكون لديك القدرة على ملء رئتيك بالهواء ، وعلى رؤية كل
الأضواء ، وسماع كل الأصوات التى تأتىك من بعيد ، وأنت ستأكل
دون اعتماد على أحد كل صنوف الطعام ، وستمشى على قدميك
الخاصتين بك ، وكذلك ستسافر لمسافات أكبر وأبعد بملايين المرات من
البعد بين جدارى الرحم الذى تقبع بداخله ، بل وستكون مستقلاً عن
هذا الرحم تماماً.. فهل كنت ستصدق كل هذه الحقائق ؟

لقد فصل القرآن الكريم موضوع النشور والحشر للإنسانية تفصيلاً
مسهباً فى مواضع كثيرة : ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم
يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون * ونفخ
فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من
بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كانت إلا
صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ [يس آية ٤٩ - ٥٣]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Moody)

﴿ ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد * وقال قرينه هذا ما لدى عتيد * ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد * مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إليها آخر فألقياه فى العذاب الشديد * قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد * قال لا تختصموا لى وقد قدمت إليكم بالوعيد * ما يبدل القول لى وما أنا بظلام للعيد ﴾ [ق آية ٢٠ - ٢٩]

فيوم القيامة سيكون يوماً طويلاً ، وأطول بكثير من أيامنا على الأرض ، إذ سيبلغ طوله عشرات الألوف من السنين ﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج ١ - ٤]

فى ذلك اليوم ، ستهتز الأرض بعنف ، وستبعثر القبور ، وسيتخذ كل من الشمس والقمر والنجوم شكلاً جديداً فى حركته ، مختلفاً عن هذا الذى عهدناه فى هذا العالم : ﴿ إذا الشمس كورت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيرت ﴾ [التكويد آية ١ - ٣]

﴿ إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتشرت * وإذا البحار فجرت * وإذا القبور بعثرت ﴾ [الانفطار آية ١ - ٤]

فهو الميقات الذى ستتهار فيه الشمس ، وتعتم فيه النجوم ، وتزلزل الأرض بزلزالتها الأخير ، وتخرج معه أثقالها ، وفى هذا اليوم تصير الجبال كالعهن^(١) المنفوش ، ويخرج الناس من أجدالهم ، ويسرعون كالفراشات المندفعة إلى هلاكها :

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الإنسان مالها * يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها * يومئذ

(١) العهن : الصوف . (المترجم) .

يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره *
ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿ [الزلزلة آية ١ - ٨]

﴿ القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون
الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش * فأما من
ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه
هاوية * وما أدراك ما هي * نار حامية ﴾ [القارعة آية ١ - ١١]

وسيجد الناس أنفسهم في بيئة مختلفة تماماً خلال ذلك اليوم
العصيب الطويل ، وسوف يتعرف الأصدقاء والأقارب بعضهم على
بعض ، ولكن كل واحد سيكون في خشية رهيبة على نفسه ، كما
سيكون غارقاً في التفكير فيها لدرجة تستنفد تفكيره :

﴿ يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبه وبنيه * لكل
امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ [عبس آية ٣٤ - ٣٧]

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من
سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف
بالعباد ﴾ [آل عمران آية ٣٠]

الحساب :

وبصور القرآن المشهد بصورة حية : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى
الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا * وعرضوا على ربك
صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أنن نجعل لكم
موعداً * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا
ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا
ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا ﴾ [الكهف آية ٤٧ - ٤٩]

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن

كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسين ﴿ الأنبياء آية ٤٧ ﴾
ففى ذلك اليوم ، سيكرّم الصالحون ، وسيتناولون كتبهم بأيمانهم ،
وسيدعون إلى حساب يسير ، وسينقلبون إلى أهلهم مسرورين ، أما
المدنّبون فى الدنيا وغير التائبين منهم فسوف يلقّون كتبهم بخزى ،
وسيتمنون ساعتها لو أنهم لم يلقوها ، ولا قاموا من الموت ، فهم لن
تنفعهم ثرواتهم وقوتهم التى حصلوها فى هذا العالم :

﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية * فأما من أوتى كتابه
بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه * إنى ظننت أنى ملاق حسابه * فهو
فى عيشة راضية * فى جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا
هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية * وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول
يا ليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابه * يا ليتها كانت القاضية
* ما أغنى عنى ماله * هلك عنى سلطانيه ﴾ [الحاقة آية ١٨ - ٢٩]

﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً *
وينقلب إلى أهله مسروراً * وأما من أوتى كتابه وراء ظهره * فسوف
يدعو ثوراً * ويصلى سعيراً * إنه كان فى أهله مسروراً * إنه ظن أن
لن يحور * بل إن ربه كان به بصيراً ﴾ [الانشقاق آية ٧ - ١٥]

فى ذلك اليوم لن تستطيع نفس أن تحمل أى نصيب من الحساب
الواقع على غيرها ، أو تأخذه رغماً عنها ، ولا أن تشفع لمصلحة أخرى ،
كذلك لن يقدر والد أن يفتدى ابنه بنفسه أو العكس : ﴿ يا أيها الناس
اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز
عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم
بالله الغرور ﴾ [لقمان آية ٣٣]

وستفكر كل نفس فيما قدمته من أعمال ، وتحاول تقديرها ، ولكن
لن يكون هناك صديق ولا مساعد ولا رفيق ولا نصير ، سوى الله تعالى :

﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم﴾ المائدة : آية ٣٦
وحتى أعضاء جسم الإنسان ستكون حجة عليه فتدلى بشهادة ضد أعماله التى اقترفها فى الدنيا : ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ [يس آية ٦٥]

﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ [فصلت آية

٢١ - ٢٣]

وبعد أن تتلقى كل نفس كلمتها ، يساق البؤساء المدانون إلى جهنم ، فى حين يقاد السعداء المتقون إلى الجنة :

﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ [الزمر آية ٧١ - ٧٥]

نار جهنم :

سرت موضة هذه الأيام فى بعض الدوائر ترى عدم الإيمان بجهنم ،

ولكن وجودها في عقيدة المسلمين يعد حقيقياً ، وهي - كما صوّرها القرآن رهيبة بصورة لا تتصور : ﴿وما أدراك ما الحطمة * ق نار الله الموقدة * التي تطلق على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * في عمد ممددة ﴾ [الهمزة آية ٥ - ٩]

﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة آية ٢٤]

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ [الكهف آية ٢٩]

﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور * وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ [فاطر آية ٣٦ - ٣٧]

وربما يتذكر أولئك المنكرون للوصف القرآني لجهنم عندما يعلمون بالحرارة الفظيعة داخل الكرة الأرضية أو داخل الشمس ؛ حيث تصل درجات الحرارة إلى الملايين ، وهو ما يعد حقائق بيّنة ، قد استطاع العلماء قياسها ، أما المتقون فيؤمنون بحقيقة نار جهنم ، ويستجيرون منها برحمة الله وهدايته من أجل أن يعملوا الصالحات ، لعل الله يقبلهم في الجنة ، وهو ما يعد من أهم أركان العقيدة الإسلامية .

النعيم :

إن السكن إلى السعادة والهناء هي ثواب الله العدل الكريم للمؤمنين المتقين ، وقد وصف الفردوس في القرآن بصيغة الجمع فقيل :

إنه جنات من جمال وبهجة لا يمكن تصورهما : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا ﴾ [النساء آية ١٢٢]

﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ لسعيها راضية * في جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية * فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابى مبثوثة ﴾ [الفاشية آية ٨ - ١٦]

﴿ على سرر موضونة ﴾ متكئين عليها متقابلين * يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وكأس من معين * لا يصدعون عنها ولا ينزفون * وفاكهة مما تخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون * جزاء بما كانوا يعملون * لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلا سلاما سلاما ﴾ [الواقعة آية ١٥ - ٢٦]

فالجنة تمثل قمة السعادة والمتعة وأسمى جائزة للمؤمن ، ولكن كل ألوان الفرح والسعادة الحسية تخبو وتتضاءل عند مقارنتها بالفرحة الشديدة برضا الله تعالى عنه ، وبوجوده في حضرته وبكلامه وتحيته سبحانه وتعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [التوبة آية ٧٢]

الملائكة :

توجد مخلوقات غير عادية منحت الحياة والكلام والعقل ، ولكنها لا تهجع ولا تأكل ولا تتكاثر ، ولا يعصون الله أبدا في أى شيء يأمرهم به ، وهو وحده تعالى العالم بعددهم وبحقيقة كنههم ، وقد حدّد لكل منهم وظيفته ، وقسمهم إلى مراتب : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ [فاطر آية ١]

وأجنحة الملائكة المذكورة فى القرآن ليست أجنحة مادية كأجنحة
الريش عند الطيور ، لأن الملائكة مخلوقات خارقة للطبيعة ، وعلى ذلك
فالإسلام لا يوافق على مزاولة تصويرهم فى صور كائنات مجنحة ، أو
بصورة (ساروفيم) (Seraphim)^(١) أو بشكل الطفل الملائكى البرئ
على نحو ما نراه مرسوماً على جدران بعض المعابد والكنائس وأسقفها ،
كما يرفض الإسلام رفضاً باتاً الافتراض بأن الملائكة إناث ، كما جاء
فى بعض الأديان ، وجاء أيضاً على لسان المشركين ، فى عهد الرسول
ﷺ : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم
ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ [الزخرف آية ١٩]

ومن بين الوظائف التى تقوم بها الملائكة تسبيح لله : ﴿ إن الذين
عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾

[الأعراف آية : ٢٠٦]

وتسجيل أعمال كل فرد : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب
عتيد ﴾ [ق آية ١٨]

وكذلك الاستغفار للمؤمنين : ﴿ الذين يحملون العرش ومن
حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا
وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم
عذاب الجحيم ﴾ [غافر آية ٧]

وكذلك حمل الرسالات الإلهية بالأنباء السارة إليهم ، فى هذه
الدنيا وفى الآخرة ، كما يأتون مبشرين أو منذرين بالموت : ﴿ قل يتوفاكم
ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ [السجدة آية ١١]

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا
تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم

(١) ساروفيم : هو أحد ملائكة الطبقة الأولى الحارسين لعرش الله (فى المعتقد اليهودى

القديم) . (المترجم) .

في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما توعدون * نزلًا من غفور رحيم ﴿

[فصلت آية ٣٢]

أما الملك العلوي الذي حمل الكتب المقدسة إلى كل من موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعاً السلام ، فقد ذكر في القرآن باسمه (جبريل) ، وعرف كذلك (بالروح القدس) بمعنى الروح المقدسة: ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾

[النحل آية ١٠٢]

أو (الروح الأمين) : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ [الشعراء آية ١٩٣]

أو (الروح) : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾

[النبأ آية ٣٨]

كذلك لقد كان جبريل عليه السلام هو الروح القدس التي حملت الأنبياء الطيبة من لدن الله تعالى إلى مريم العذراء : ﴿ فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ﴾ [مريم آية ١٧]

الجن :

وهؤلاء يمثلون رتبة أخرى من الكائنات التي لا تدركها حواسنا الطبيعية، وهم من كلا الجنسين، ومن بينهم من يؤمنون، وقد آمنوا بكل وحى إلهي ، إلى أن ختمه القرآن ، أما من يكفر من الجن فأولئك هم « الشياطين » وهم الذين جاء ذكرهم في سورة (الجن) على لسانهم : ﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدا * وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا * وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾

[الجن آية ١١ - ١٤]

ومن ضمن الجن الأول جنى يدعى (إبليس) أو (الشيطان) ،

وقد عصى أمر الله تعالى عندما أمره بأن يسجد لآدم ، ثم أغرى آدم وحواء لأن يرتكبا الخطيئة ، ويأكلا من الشجرة المحرمة : ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيها وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ [البقرة آية ٣٤ - ٣٧]

ولقد وقع المستشرقون في سوء فهم كبير حين زعموا أن الشيطان كان في الأصل ملكا ، قبل أن يطرد من السماء لعدم سجوده لآدم^(١) ، ولا شك أن العبارة القرآنية المعبرة عن هذه القضية واضحة ناصعة : ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾ [الكهف آية ٥٠]

فإبليس إذن كان من الجن ، رغم أن أمر السجود قد وجه إليه كما وجه إلى الملائكة . وكذا رفض مستشرقون آخرون حقيقة وجود الجن برمته باعتباره خيالات يتضح سخفها بكل وضوح لدى « العقول الذكية »^(٢) ، ولعل أولئك المستشرقين لو كانوا معنا اليوم لصار من المناسب أن يرفضوا كثيراً من المنجزات العلمية العصرية بنفس منطقهم المادى .

كما تغاضى بعض الكتاب عن حقيقة الأضل الإلهى الواحد للأديان الموحدة ، وخلطوا بهذا بين الجن والملائكة ، وافترضوا أن

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفي المرجع انظر ص ١١٤ ، وكذلك تحت (Lammens) وفي المرجع انظر ص ٩٨ - ١٠٠ ، وتحت (Sale) وفيه انظر ص ٥٠ - ٥٥ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Stobart) وفي المرجع انظر ص ١٠٨ .

الملائكة قد خلقت من نار ، وأنها لذلك عهد إليها بأعمال
ووظائف مادية (١) .

الخلاصة :

إن الإيمان بالغيب نظرية رئيسية في الأديان السماوية ، فهو الخط
الفاصل بين الإيمان والكفر ، وهو يفسح المجال لحقيقة أن الكون
لانهائي ، وأنه أضخم وأكثر تشعباً وتنوعاً من تلك الصورة التي تظهر
للإنسان الواعي ، ومن ثم فإن الذين لا يعترفون بعالم الغيب كحقيقة قد
ينتهون إلى رفض الإله ذاته وعندئذ يحرمون أنفسهم من هداية الله ومنته ،
تلك الهداية المتاحة دائماً للمؤمن والتي تريناها الآية : ﴿ ذلك الكتاب
لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة
ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة آية ٢ - ٣]

* * *

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفي المرجع انظر ص ٥٠ - ٥٥ وكذلك انظر
تحت (Zwemer) كتاب (أثر الوثنية على الإسلام) ص ١٢٦ .

خاتمة

توضح هذه الدراسة التي تستعرض وجهات نظر المستشرقين عن القرآن وآياته ثلاث نقاط بارزة :

الأولى : هي أنه مع وجود قلة من الاستثناءات - فإن الرأي العام الغربي عن القرآن نادراً ما يكون واقعياً .

والثانية : أن كثيراً من المستشرقين وضعوا المزايم بلا تردد قبل دراسة القرآن الكريم دراسة كافية ، وبدون عناية وتعمق وافرين ، وذلك على الأقل لتبرير عباراتهم ذات الصيغ الجازمة .

أما النقطة الثالثة : فهي ذلك الإجماع الذي شمل الكتاب المذكورين ، بغض النظر عن خلفياتهم وعقائدهم ، على قبول المصاحف المتداولة اليوم التي تطابق محتوى ذلك المصحف الذي تركه النبي محمد ﷺ لصحابته عندما قبض من بينهم إلى الرفيق الأعلى ، فلم تتبدل سورة واحدة أو آية ، أو كلمة ، كما لم يقدم أى دليل على أنها قد تبدلت . وكذلك ظل ترتيب السور فيه كما هو وعلى النحو الذي أنزلت به مما جعل الفارق بين الترتيب المصحفي والآخر التنزيلى يقود إلى خلط سقطت فيه قلة من الكتاب الذين حاولوا عبثاً أن يعيدوا ترتيب السور وفق ما أملى عليه عقل كل منهم ، ومن ثمّ جاءوا بنتائج بعيدة فاقمت من خلطهم ، وتغاضيبهم عن الحقيقة الرئيسية ، وهي أن المصحف لم يكن أبداً يتبع بعضه بعضه بترتيب نزول القرآن ، وإنما بترتيب آخر تلقاه الرسول ﷺ توقيفاً عن جبريل عليه السلام ، عندما كان يراجع بالوحي فى رمضان من كل عام .

ولا شك أن الوضع الموثوق به للمصحف ومناعته المطلقة ضد أدنى تعديل طوال حقبة هائلة من الزمن كهذه - لا شك يعد معجزة توجب التدبر العميق ، فقد شهدت تلك الحقبة تغيرات عنيفة في المجتمعات ، ولغاتها ومواطنيها ، فازدهرت بعض الحضارات وتلاشت أخرى واضمحلت ، ولا يعد العالم الإسلامي نفسه على الإطلاق حالة استثنائية ، فبعد نموه الهائل في عقود الأولى القليلة في القرن السابع الميلادي ليكون امبراطورية متنامية الأطراف ، وتتحرك عاصمتها الحاكمة من المدينة إلى دمشق إلى بغداد إلى استنبول ، وكذلك كثير من المقاطعات التي اتسعت إلى ولايات تابعة ثم أصبحت مستقلة تماماً ، ثم بعد هذا خضعت أغلب أجزائه لموجات كاسحة من الغزاة والمحتلين الأجانب والحكام ، والآن أصبح هناك عدد كبير من الأقسام السياسية ، والمذاهب الدينية ، حتى لقد قطعت بعض المجتمعات صلتها باللغة العربية - لغة القرآن - وبدأت الكتابة باللاتينية بعد أجيال من الكتابة بالخط العربي ، واندلعت نار الخصومة والنزاع ، بل وحتى الحرب السافرة بين الأخوة السابقين في جزء أو آخر من العالم الإسلامي .

ورغم هذا لا يزال المصحف موجوداً ومقروءاً في صورته الأصلية الفريدة ، يقبله المسلمون جميعاً بصيغته الواحدة .

فالتبيعة المعجزة للقرآن محصورة بلا نقاش في حفظه على صورته الأصلية ، كل هذه القرون ، كما أن أسلوبه الأدبي الساحر - كما جاء على لسان اللغويين العرب - يعد واضحاً أخذاً ومثيراً للمشاعر ، وهو كذلك فريد وفذ بصورة لا خلاف عليها ، ومن ناحية أخرى لم يقدر المستشرقون هذه الحقيقة ، إما لأنهم لم يقرأوا القرآن إلا عن طريق الترجمة ، أو أنهم قرأوه بلغته العربية الأصلية ، ولكن قبل أن يمسكوا بزمام اللغة العربية على نحو كاف .

أما المعجزة القرآنية والتي ما زالت مضيئة حتى خلال النصوص

الترجمة منه ، وتبدو واضحة أمام القراء من غير العرب فهي الموضوعات التي يناقشها القرآن ، ذلك أن المترجم للقرآن ، وهو يعترف ويسلم بأنه لا يمكن لأي ترجمة أن تفي الأسلوب الأدبي الرفيع حقه ، فإنه - إن كان حريصاً - يستطيع أن يغطي بعضاً من الطبيعة المعجزة للأفكار المحتواة بداخله ، وهو ما يدعّمه ملاحظتان مؤثرتان وضعهما متخصصون في العلوم الطبيعية^(١) :

أولاهما : لا يوجد أدنى تناقض بين الآيات القرآنية بعضها وبعض ، وكذا بالنسبة للحقائق العلمية المقررة ، وهو ما يعد على النقيض تماماً مع الكتب المقدسة الأخرى ، حتى لقد انحاز (بوكاي) (Bucaille) إلى جانب القرآن ووصفه بأنه : « لا يحوى عبارة واحدة تفتح باباً للنقد من قبل العلم الحديث »^(٢) .

أما الملاحظة الثانية : فهي وجود آيات قرآنية كثيرة تشير إلى ظواهر علمية طبيعية نتبينها من حولنا ، وهذه لم تكن مكتشفة ، أو حتى متخيلاً وجودها بعد نزول الوحي بقرون عديدة .

وتثبت هاتان الملاحظتان حقيقتين : أولاهما : أن الزعم الذي رده عدد كبير من المستشرقين من أن محمداً ﷺ قد صاغ القرآن بمساعدة المصادر اليهودية أو المسيحية - يعد زعماً باطلاً ، إذ لو كانت هذه هي القضية لما كان القرآن محصناً ضد الخلط والغلط بهذا الشكل ، ولما كان مختلفاً تماماً عن الكتاب المقدس ، كما أنه لو كان النبي عليه الصلاة والسلام هو مؤلف القرآن بمساعدة المصادر اليهودية أو المسيحية لأصبح طبيعياً أن يسلك المسلك الكتابي ، وإلا فما الذي يجبره مثلاً في ذكره المسهب للنبي عيسى عليه السلام أن يتحاشى الإشارة إلى نسب أبيه (إذ

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bucaille) ، وكذلك تحت (Al-

Ghamrawy) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bucaille)

ليس له أب) مختلفاً بذلك عما جاء في إنجيل متى وإنجيل لوقا ؟ وكيف استطاع محمد ﷺ أن يحذر التناقضات بين النسخ اليهودية^(١) والنسخ الكهنوتية للعهد القديم ، ثم يتجنبها كذلك عند ذكر نوح عليه السلام والطوفان ؟ ما الذى منعه من تفصيل موت فرعون عندما كان يصف خروج بنى إسرائيل ؟ لقد أضاف معلومة عن إنقاذ جسد الفرعون من الضياع فى البحر وحفظه كآية للأجيال التالية ، وهى معلومة لم توجد بأى مخطوط ، فكيف استطاع محمد عليه الصلاة والسلام أن يتعلم هذا ؟ أما الحقيقة الأخرى التى ينبغى تدبرها فهى أن القرآن الكريم لم يكتبه بشر بما فيهم محمد ﷺ نفسه ، وذلك لأنه لم يتمكن أى إنسان منذ أربعة عشر قرناً أن يقف موقفاً يدعى منه قدرته على العلم أو الحدس أو التصور للحقائق العلمية الموضحة والمفهومة من خلال الآيات كما ذكرنا فى الفصل الثانى .

لقد وضعت الثروة الهائلة من الأفكار المتدفقة ، والانفعالات والمعانى المتدافعة ، ومن الأسلوب الفذ الواضح الفريد ، مقرونة بالتماسك المتين للقرآن ، وكذلك غياب أى تناقضات بينه وبين العلم - كل هذا وضع القرآن الكريم فوق كل الكتب الأخرى . وربما تكون أفضل طريقة لوصف القرآن أن نستشهد منه بما يعبر به عن نفسه ، ختاماً لهذا الكتاب :

﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ صدق الله العظيم [البقرة آية ١ - ٥]

تم بحمد الله تعالى

(١) اليهودية : نسبة إلى يهوه إله العبرانيين . (المترجم) .

الملاحق

الملحق الأول ترتيب سور القرآن

الترتيب المقترح من قبل كل من المستشرق				الترتيب التنزيلى الصحيح	اسم السورة	رقم السورة فى المصحف
نولدكه	موير	جفرى	رودويل			
٤٨	٦	-	٨	٥	الفاتحة	١
٩١	غير مؤكد	٥٤	٩١	٨٧	البقرة	٢
٩٧	١٠-٢ بعد الهجرة	-	٩٧	٨٩	آل عمران	٣
١٠٠	غير مؤكد	٥٩	١٠٠	٩٢	النساء	٤
١١٤	١٠-٦ بعد الهجرة	٦٠	١١٤	١١٢	المائدة	٥
٨٩	٨١	-	٨٩	٥٥	الأنعام	٦
٨٧	٩١	-	٨٧	٣٩	الأعراف	٧
٩٥	٢ بعد الهجرة	-	٩٥	٨٨	الأنفال	٨
١١٣	١١٤	-	١١٣	١١٣	التوبة	٩
٨٤	٧٩	-	٨٤	٥١	يونس	١٠
٧٥	٧٨	-	٧٥	٥٢	هود	١١
٧٧	٧٧	٤٩	٧٧	٥٣	يوسف	١٢
٩٠	٨٩	-	٩٠	٩٦	الرعد	١٣
٧٦	٨٠	-	٧٦	٧٢	إبراهيم	١٤
٥٧	٦٢	٤٠	٥٧	٥٤	الحجر	١٥
٧٣	٨٨	٤٦	٧٣	٧٠	النحل	١٦
٦٧	٨٧	٤٤	٦٧	٥٠	الإسراء	١٧
٦٩	٦٩	٤١	٦٩	٦٩	الكهف	١٨
٥٨	٦٨	٥٠	٥٨	٤٤	مريم	١٩
٥٥	٧٥	٣٩	٥٥	٤٥	طه	٢٠
٦٥	٨٦	-	٦٥	٧٣	الأنبياء	٢١
١٠٧	٨٥	-	١٠٧	١٠٣	الحج	٢٢
٦٤	٨٤	-	٦٤	٧٤	المؤمنون	٢٣
١٠٥	٥ بعد الهجرة	-	١٠٥	١٠٢	النور	٢٤
٦٦	٧٤	-	٦٦	٤٢	الفرقان	٢٥
٥٦	٦١	٣٨	٥٦	٤٧	الشعراء	٢٦
٦٨	٧٠	-	٦٨	٤٨	النمل	٢٧
٧٩	٨٣	-	٧٩	٤٩	القصص	٢٨
٨١	٩٠	-	٨١	٨٥	العنكبوت	٢٩

الترتيب المقترح من قبل كل من المستشرق				الترتيب التنزيلى الصحيح	اسم السورة	رقم السورة فى المصحف
نولدكه	موير	جفرى	رودويل			
٧٤	٦٠	٤٧	٧٤	٨٤	الروم	٣٠
٨٢	٥٠	٤٨	٨٢	٥٧	لقمان	٣١
٧٠	٤٤	٤٥	٧٠	٧٥	السجدة	٣٢
١٠٣	غير مؤكد	-	١٠٣	٩٠	الأحزاب	٣٣
٨٥	٤٩	-	٨٥	٥٨	سبأ	٣٤
٨٦	٦٦	-	٨٦	٤٣	فاطر	٣٥
٦٠	٦٧	٤٢	٦٠	٤١	يس	٣٦
٥٠	٥٩	٣٧	٥٠	٥٦	الصفات	٣٧
٥٩	٧٣	-	٥٩	٣٨	ص	٣٨
٨٠	٤٥	-	٨٠	٥٩	الزمر	٣٩
٧٨	٧٢	-	٧٨	٦٠	غافر	٤٠
٧١	٥٣	-	٧١	٦١	فصلت	٤١
٨٣	٧١	-	٨٣	٦٢	الشورى	٤٢
٦١	٧٦	-	٦١	٦٣	الزخرف	٤٣
٥٣	٥٨	-	٥٣	٦٤	الدخان	٤٤
٧٢	٥٧	-	٧٢	٦٥	الجاثية	٤٥
٨٨	٦٤	-	٨٨	٦٦	الأحقاف	٤٦
٩٦	غير مؤكد	-	٩٦	٩٥	محمد	٤٧
١٠٨	٦ بعد الهجرة	٥٣	١٠٨	١١١	الفتح	٤٨
١١٢	غير مؤكد	-	١١٢	١٠٦	الحجرات	٤٩
٥٤	٥٦	-	٥٤	٣٤	ق	٥٠
٣٩	٦٣	-	٤٣	٦٧	الذاريات	٥١
٤٠	٥٥	-	٤٤	٧٦	الطور	٥٢
٢٨	٤٣	٢٥	٤٦	٢٣	النجم	٥٣
٤٩	٤٨	٣٦	٤٩	٣٧	القمر	٥٤
٤٣	٤٠	-	٤٨	٩٧	الرحمن	٥٥
٤١	٤١	-	٤٥	٤٦	الواقعة	٥٦
٩٩	غير مؤكد	-	٩٩	٩٤	الحديد	٥٧
١٠٦	غير مؤكد	-	١٠٦	١٠٥	المجادلة	٥٨

الترتيب المقترح من قبل كل من المستشرق				الترتيب التنزيلى الصحيح	اسم السورة	رقم السورة فى المصحف
نولدكه	موير	جفرى	رودويل			
١٠٢	٤ بعد الهجرة	-	١٠٢	١٠١	الحشر	٥٩
١١٠	٧ بعد الهجرة	-	١١٠	٩١	المتحنة	٦٠
٩٨	غير مؤكد	-	٩٨	١٠٩	الصف	٦١
٩٤	غير مؤكد	-	٩٤	١١٠	الجمعة	٦٢
١٠٤	٦٥ بعد الهجرة	-	١٠٤	١٠٤	المنافقون	٦٣
٩٣	٨٢	٥٢	٩٣	١٠٨	التغابن	٦٤
١٠١	غير مؤكد	-	١٠١	٩٩	الطلاق	٦٥
١٠٩	٨١ بعد الهجرة	-	١٠٩	١٠٧	التحریم	٦٦
٦٣	٤٢	-	٦٣	٧٧	الملك	٦٧
١٨	٥٢	١٥	١٧	٢	القلم	٦٨
٣٨	٥١	-	٤٢	٧٨	الحاقة	٦٩
٤٢	٣٧	-	٤٧	٧٩	المعارج	٧٠
٥١	٥٤	٤٣	٥١	٧١	نوح	٧١
٦٢	٦٥	-	٦٢	٤٠	الجن	٧٢
٢٣	٤٦	٢٠	٣	٣	المزمل	٧٣
٢	٢١	٢	٢	٤	المدثر	٧٤
٣٦	٣٦	٣٣	٤٠	٣١	القيامة	٧٥
٥٢	٣٥	-	٥٢	٩٨	الإنسان	٧٦
٢٢	٣٤	٢٩	٣٦	٣٣	المرسلات	٧٧
٢٣	٣٣	٣٠	٣٧	٨٠	النبأ	٧٨
٣١	٤٧	٢٨	٣٥	٨١	النازعات	٧٩
١٧	٢٦	١٤	٢٤	٢٤	عيس	٨٠
١٧	٢٧	٢٤	٣٢	٧	التكوير	٨١
٢٦	١١	٢٣	٣١	٨٢	الانفطار	٨٢
٣٧	٣٢	-	٤١	٨٦	المطففين	٨٣
٢٩	٢٨	٢٦	٣٣	٨٣	الانشقاق	٨٤
٢٢	٣١	١٩	٢٨	٢٧	البروج	٨٥
١٥	٢٩	١٢	٢٢	٣٦	الطارق	٨٦
١٩	٢٣	١٦	٢٥	٨	الأعلى	٨٧

الترتيب المقترح من قبل كل من المستشرق				الترتيب التنزيلی الصحيح	اسم السورة	رقم السورة في المصحف
نولدكه	موير	جفری	رودويل			
٣٤	٢٥	٣١	٣٨	٦٨	الغاشية	٨٨
٣٥	١٤	٣٢	٣٩	١٠	الفجر	٨٩
١١	١٥	٨	١٨	٣٥	البلد	٩٠
١٦	٤	١٣	٢٣	٢٦	الشمس	٩١
١٠	١٢	٧	١٦	٩	الليل	٩٢
١٣	١٦	١٠	٤	١١	الضحى	٩٣
١٢	١٧	٩	٥	١٢	الشرح	٩٤
٢٠	٨	١٧	٢٦	٢٨	التين	٩٥
١	١٩	١	١	١	العلق	٩٦
١٤	٢٤	١١	٩٢	٢٥	القدر	٩٧
٩٢	غير مؤكد	٥١	٢٩	١٠٠	البينة	٩٨
٢٥	٣	٢٢	٣٠	٩٣	الزلزلة	٩٩
٣٠	٢	٢٧	٣٤	١٤	العاديات	١٠٠
٢٤	٧	٢١	٢٩	٣٠	القارعة	١٠١
٨	٩	٥٧	١٥	١٦	التكاثر	١٠٢
٢١	١	١٨	٢٧	١٣	العصر	١٠٣
٦	١٠	٥	١٣	٣٢	الهمزة	١٠٤
٩	١٣	٦	١٩	١٩	الفيل	١٠٥
٤	٥	٣	٢٠	٢٩	قريش	١٠٦
٧	٣٩	٥٨	١٤	١٧	الماعون	١٠٧
٥	١٨	٤	٩	١٥	الكوثر	١٠٨
٤٥	٣٨	٣٤	١٢	١٨	الكاغرون	١٠٩
١١١	٣٠	٥٦	١١١	١١٤	النصر	١١٠
٣	٢٢	٥٥	١١	٦	المسد	١١١
٤٤	٢٠	٣٥	١٠	٢٢	الإخلاص	١١٢
٤٦	غير مؤكد	٦١	٦	٢٠	الفلق	١١٣
٤٧	غير مؤكد	٦٢	٧	٢١	الناس	١١٤

الملحق الثاني

السور التي تشتمل أجزاء مكة وتشتمل أيضاً أجزاء مدنية

الترتيب المصحفي	اسم السورة	عدد الآيات الكلي	مكان التنزيل	الآيات المستثناة	مكان نزول الآيات المستثناة
٢	البقرة	٢٨٦	المدينة	٢٨١	منى بالقرب من مكة
٥	المائدة	١٢٠	المدينة	٣	عرفات بالقرب من مكة
٦	الأنعام	١٦٥	مكة	٢٠، ٢٣، ٩١، ٩٣، ١١٤، ١٤١،	المدينة
٧	الأعراف	٢٠٦	مكة	١٥١، ١٥٢، ١٥٣	المدينة
٨	الأنفال	٧٥	المدينة	٣٠، ٣٦	مكة
٩	التوبة	١٢٩	المدينة	١٢٨، ١٢٩	مكة
١٠	يونس	١٠٩	مكة	٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦	المدينة
١١	هود	١٢٣	مكة	١٢، ١٧، ١١٤	المدينة
١٢	يوسف	١١١	مكة	١، ٢، ٣، ٧	المدينة
١٤	إبراهيم	٥٢	مكة	٢٨، ٢٩	المدينة
١٦	التحل	١٢٨	مكة	١٢٦، ١٢٧، ١٢٨	المدينة
١٧	الإسراء	١١١	مكة	٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧، (٧٣-٨٠)	المدينة
١٨	الكهف	١١٠	مكة	٣٨، (٨٣-١٠١)	المدينة
١٩	مريم	٩٨	مكة	٥٨، ٧١	المدينة
٢٠	طه	١٣٥	مكة	١٣٠، ١٣١	المدينة
٢٢	الحج	٧٨	المدينة	٥٢-٥٥	بين مكة والمدينة
٢٥	الفرقان	٧٧	مكة	٦٨-٧٠	المدينة
٢٦	الشعراء	٢٢٧	مكة	١٩٧، (٢٢٤-٢٢٧)	المدينة
٢٨	القصص	٨٨	مكة	(٥٢-٥٥)	المدينة
				(٨٥)	أثناء الحج في الطريق من مكة إلى المدينة
٢٩	العنكبوت	٦٩	مكة	١-١١	المدينة
٣٠	الروم	٦٠	مكة	١٧	المدينة
٣١	لقمان	٣٤	مكة	٢٧-٢٩	المدينة
٣٢	السجدة	٣٠	مكة	١٦-٢٠	المدينة
٣٤	سبأ	٥٤	مكة	٦	المدينة
٣٦	يس	٨٣	مكة	٤٥	المدينة
٤٠	غافر	٨٥	مكة	٥٦-٥٧	المدينة
٤٢	الشورى	٥٣	مكة	٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧	المدينة

مكان نزول الآيات المستثناة	الآيات المستثناة	مكان التنزيل	عدد الآيات الكلى	اسم السورة	الترتيب المصحفى
المدينة	٥٤	مكة	٨٩	الزخرف	٤٣
المدينة	١٤	مكة	٣٧	الجاثية	٤٥
المدينة	٣٥، ١٥، ١٠	مكة	٣٥	الأحقاف	٤٦
أثناء الحج فى الطريق من مكة إلى المدينة	١٣	المدينة	٣٨	محمد	٤٧
المدينة	٣٢	مكة	٦٢	النجم	٥٣
المدينة	٨٢ - ٨١	مكة	٩٦	الواقعة	٥٦
المدينة	(٥٠ - ٤٨)، (٣٣ - ١٧)	مكة	٥٢	القلم	٦٨
المدينة	٢٠، ١١، ١٠	مكة	٢٠	المزمل	٧٣
المدينة	٤٨	مكة	٥٠	المرسلات	٧٧

قائمة المراجع العربية

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - صحيح البخارى - دار الشهاب - القاهرة ١٩٦٤ م .
- ٣ - الإتقان فى علوم القرآن - للحافظ جلال الدين السيوطى - دار الحلبى - القاهرة - ١٩٥١ م .
- ٤ - تفسير القرآن للقرطبى - ٨ أجزاء - دار الشهاب - القاهرة - ١٩٦٠ م .
- ٥ - رياض الصالحين - للإمام النووى - دار الجمهورية العربية - القاهرة - ١٩٦٠ م .
- ٦ - الرد الصحيح على من غيروا رسالة المسيح - لابن تيمية - دار السنة المحمدية - القاهرة - ١٩٣٠ م .
- ٧ - ال تفسير القرآنى للقرآن - عبد الكريم الخطيب - دار الفكر - القاهرة - ١٩٧٠ م .
- ٨ - تفسير فى ظلال القرآن - للشهيد سيد قطب - دار الشروق - القاهرة - ١٩٧٣ م .
- ٩ - محمد صلى الله عليه وسلم وبنو إسرائيل - محمد وصفى - القاهرة - ١٩٧٠ م .

قائمة المراجع الأجنبية

- 'ABDEL-' ATI, H (I) *Islam in Focus* American Trust Publications, Indiana, 1977.
- (II) *The Family Structure in Islam* American Trust Publications, Indiana, 1977.
- ABDEL-RA'UF, M. *Marriage in Islam* Exposition Press, New York, 1972
- ABU-SA'UD, M. "Sex Roles: A Muslim Point of View" *Al-Ittihad*, Vol. 15(3), 1978, pp. 31 - 38, MSA, Ind., U.S.A.
- 'ALI, A. *The Spirit of Islam* Christophers, London, 1949
- 'ALI, A. Y. *The Holy Qur'an, Text, Translation and Commentary* Dar-el- Arabiah, Beirut, 1968.
- 'ALI, H.A. *The Student's Qur'an: An Introduction* Bombay, 1961.
- "ALI, M. *The Holy Qur'an: Arabic Text, Translation and Commentary* A.A. Lahore, II, 1951.
- AMINE, R. *Seven Years in the Sun* Robert Hale, London, 1959.
- ANDERSON, J.N. Ed. *The World Religions* Frank Cass, London, 1965.
- ARBERRY, A.J. (I) *The Qur'an Interpreted* Allen & Unwin London, 1955.
- (II) *Aspects of Islamic Civilization as Depicted in Oriental Texts* Allen & Unwin, London, 1964.
- ARBERRY, A.J. & LANDAU, R. *Islam Today* Faber & London, 1943.
- ARNOLD, T. W. *The Preaching of Islam* Constable, London, 1913.
- ARNOLD, Sir Thomas & CUILIAUME, R Eds. *The Legacy of Islam* Oxford University Press, Oxford, 1968.
- 'AZZAM, A. *The Eternal Message of Muhammad* Mentor, London, 1964.
- BALJON, J.M.S. *Modern Muslim Quran Interpretations* Leiden, Holland, 1968.
- BELL, R. (I) *The Origin of Islam in its Christian Environment* Macmillan, London, 1926.
- (II) *Introduction to the Quran* Edinburgh University Press, Edinburgh, 1958.
- BETHMAN, E.W. *Bridge to Islam: A Study of the Religious Forces of Islam and Christianity in the Near East* Allen & Unwin, London, 1953.
- BLACHERE, R. *Introduction au Coran* Adrien-Maison neuve, Paris, 1947.
- BODLEY, R.V.C. *The Messenger: The Life of Mohammed* Doubleday, New York, 1946.

- BRONOWSKI, J. *The Ascent of Man* BBC Publications, London, 1977.
- BUCAILLE, M. *The Bible, the Quran and Science* American Trust Publications, Indiana, 1978.
- BURTON, J. *The Collection of the Quran* Cambridge University Press, Cambridge 1977.
- CAIGER, S.L. *Lives of the Prophets* S.P.C.K. London, 1958.
- CHAMPION, S.G. & SHORT, D. *Reading From World Religions* Fawcett, Greenwich (U.S.A.), 1959.
- CHESTERTON, G.H. *St Francis of Assisi* Hodder & Stoughton, London, 1944.
- Concise Oxford Dictionary of Current English* ed. H. Fowler and F. Fowler, 5th edn., Oxford at the Clarendon Press, 1964.
- COULSON, N. *History of Islamic Law* Edinburgh University Press, Edinburgh, 1964.
- CRAGG, K. (I) *The Call of the Minaret* Oxford University Press, Oxford, 1956.
- (II) *Counsels in Contemporary Islam* Edinburgh University Press, Edinburgh, 1965.
- DANIEL, N. *Islam and the West: The Making of an Image* Edinburgh University Press, Edinburgh, 1966.
- DOI, A.R. *The Cardinal Principals of Islam* Islamic Publications Bureau, Lagos, 1977.
- DRAYCOTT, G.M. *Mahomet, Founder of Islam* Martin Secker, London, 1916.
- DRAZ, M.A. *The Qur'anic Constitution of Morals* Dar-el-Ma' arif Cairo, 1945.
- The New Encyclopaedia Britannica*, 30 Vols, 15th Edition, Encyclopaedia Britannica Inc., London, 1978.
- GAIRDNER, W. *The Reproach of Islam* Society for the Propagation of the Gospel, London, 1910.
- GALWASH, A. *The Religion of Islam* 2 Vols, Hapner, New York, 1941.
- GARDNER, J. *The Faiths of the World* 2 Vols, 4 Fullarton, 1920.
- AL-GEZEIRY, A.R. *Proofs in Answering the Balance of Truth* (Arabic) Allrshad, Cairo, 1934.
- AL-GHAMRAWY, M.A. *Glimpses of the Scientific Unattainable Marvels of the Qur'an* Dar-el-Ma' arif, Cairo, 1977
- GIBB, H.A.R. (I) *Mohammedanism: An Historical Survey* Oxford University Press, Oxford, 1961.

- (II) *Studies of Civilization of Islam* routledge, Kegan Paul, London, 1962.
- GLUBB, J.B. *The Life and Times of Muhammad* Hodder & Stoughton, London, 1970.
- GOITIEN, S. *Jews and Arabs: Their Contacts Through the Ages* Schocken Books, New York, 1964.
- GOUDAH AS-SAHAR 'Comments on Bodley's Book" (Arabic), *Al-E'tesam* Magazine Cairo June 1973 .
- GRAMONTS, de P. "Mohammad, the Prophet Armed", *Horizon*, vol. XIII (3) Summer 1971, pp. 5 - 11.
- GRUNEBAUM, von G.E. *Islam: Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition* Routledge & Kegan Paul, London, 1955.
- GUILLAUME, A. *Islam* Penguin Books, 1954; Pelican Books, Harmondsworth, 1961.
- H AidAR, M. *Arabesque* Sphere Books, London, 1968.
- HASTINGS', *Dictionary of the Bible* Scribners, New York, 1964.
- HIRSCHFELD, H. *New Researches into the Composition of the Koran*, University of London Press, London, 1902.
- HITTI, P. *Islam and the West* Van Nostrand, New York, 1962.
- HUGHES, T.P. *Notes on Mohammedanism*, Allen London, 1894.
- HYDE, L.S. *Favourite Greek Myths* Heath, London, 1925.
- IBN-HAGAR *Fathil-Bary-fi-Sahih - Bukhary* (Arabic Classic), 9 Vols, Dar-el-Sha'b, Cairo, 1963.
- JAMILAH, M. *Islam and Orientalism* M. Khan, Lahore 1971.
- JEFFERY, A. (I) *The Koran as Scripture*, Heritage Press, New York, 1952.
 (II) *The Koran: Selected suras Translated* Heritage Press, New York, 1982.
 (III) *Islam, Mohammad and His Religion* Lib. Art Press, New York, 1958.
- KHALIFA, E. *Mass Communication and the Muslim Society* Anglo-Egyptian Press Cairo, 1980.
- KHALIFA, R. (I) *Miracle of the Qur'an: Significance of the Mysterious Alphabet* Islamic Productions, St Louis, 1973.
 (II) "Miracle of the Qur'an" *Islam, Magazine*, Vol. I, No, 2, 1974, U.S.A.
- KHALIFA, S.M. *The Fifth Pillar* Exposition Press, New York, 1977.
- KRITZECK, J. Ed. *Anthology of Islamic Literature* Penguin Books, Harmondsworth, 1964.
- LAMMENS, H. *Islam, Beliefs and Institutions* Frank Cass, London, 1968.
- LANE, E.W. *Selections from the Qur'an with an Interwoven Commentary* James Madden, London, 1843.
- LEVY, R. *The Social Structure of Islam* Cambridge University Press, Cambridge, 1962.

- LEWIS, H.D. *World Religions: Meeting Points and Major Issues* C. Watts, London, 1966.
- LINGS, M. *What is Sufism?* Allen & Unwin, London, 1975.
- LOFTS, N. *The Lute Player* Corgi Books, London, 1974.
- MACDONALD, D.B. *Development of Muslim Theology Jurisprudence and Constitutional Theory*, C. Scribners, New York, 1926.
- MARGOLIOUTH, D.S. (I) *The Early Development of Mohammedanism*, Williams and Norgate, London, 1914.
- (II) *Mohammedanism* Butterworth, London, 1928.
- MENEZES, F.J.L. *The Life and Religion of Mohammed, the Prophet of Arabia Sands*, London, 1911.
- MINGANA, A. *Syriac Influence on the Style of the Koran*, Manchester University Press, Manchester 1927.
- MOODY, R.A, Jr. *Life After Life* Bantam Books, New York, 1977.
- MORGAN, K.W.Ed. *Islam Interpreted by Muslims* Ronald Press, London, 1958.
- MORGAN, M.M. *The Messiah: A Man or a God?* (Arabic) Dar-el-Nahdah, Cairo, 1970
- MUFASSIR, S. 'Jesus in the Qur'an" *Islam*, Vol 1 (I), 1974, U.S.A.
- MUIR, W. *Life of Mahomet* 4 Vols, Smith London, 1860.
- NAIPAUL, V.S. *Among the Believers, An Islamic Journey*, Andre Deutsch, London, 1981.
- NE'NA'A, R.M. "The Hebrew Legends and Qur'anic Exegesis" Ph. D. Thesis, al-' Azhar University Cairo, 1970.
- Newsweek* (I) 3 April, 1972, p. 39.
- (II) 4 June, 1973, p. 54.
- PALMER, E. *The Koran With an Introduction* by Nicholson, first published 1880, Oxford University Press, London, 1928.
- PARRINDER, G. *The World's Living Religions* Fan Books, London, 1964.
- PICKTHALL, M. *The Meaning of the Glorious Qur'an* Dar-el-kitab, Beirut, 1972.
- PRIDEAUX, H. *La Vie de Mahomet*, Gallet, Paris, 1889.
- QUR'AN-AL-HUDA, Magazine, Vol. 3, II, p. 22, Karachi, Pakistan, April 1977.
- ROBERTS, R. *The Social Laws of the Quran*, Williams and Norgate, London, 1925.
- RODINSON, M. (I) *Islam and Capitalism* Pelican Books, Harmondsworth, 1977.
- (II) *Mohammad* Penguin Books, Harmondsworth, 1977.

- RODWELL, J.M. *The Koran* Dent, London, 1909.
- SALE, G. *The Koran: Commonly Called Al-Quran, with a Preliminary Discourse* (first published, 1734), 2 Vols, Fredrick Warne, London, 1899.
- SAVARY, M. *Le Koran; traduit de L'Arabe*, Garnier Freres, Paris, 1883.
- SCHACHT, J. *The Origin of Mohammedan Jurisprudence* Oxford University Press, Oxford, 1953.
- SMITH, W. *Islam in Modern History* Princeton University Press, New Jersey, 1957.
- SOMMER, A. & ZWEMER, S *Our Moslem Sisters* F. W. Revel, New York, 1907.
- SPRENGER, S., *Life of Mohannad* Allahabad, India, 1851.
- STOBART, J. W. *Islam and its founder* S.P.C.K., London, 1876.
- SWEETMAN, J., *Islam and Christian Theology*, 2 Vols., Lutterworth, London, 1945.
- Time Magazine* (I) 14 July, 1975, p. 34.
 (II) 16 April, 1979.
 (III) 23 April, 1979.
 (IV) 11 June, 1979.
- TRIMINGHAM, J.S. (I) *The Influence of Islam upon Africa* Longman Green & co., London, 1968.
 (II) *Islam in Ehtiopia* Frank Cass, London, 1976.
- TRITTON, A.S. *Islam: Belief and Practice*, Hutchinson, London, 1962 .
- WANSBROUGH, J. *Qur'anic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretations* Oxford University Press, Oxford, 1977.
- WATT, W.M. (I) *Free Will and Predestination in Early Islam* Luzac, London, 1948.
 (II) *Muhammad: Prophet and Statesman* Oxford University Press, Oxford 1961.
- WELLS, H.G. *The Outline of History* 2 vols, Garden City, New York, 1961.
- WILLIAMS, J.A. Ed. *Islam*, Washington Square Press, 1963.
- WOLLASTON, A.N. *The Religion of the Koran* Sh. Ashraf, Lahore 1905.
- ZAEHNER, R.C. *Hindu and Muslim Mysticism* University of London Press, London, 1960.
- ZWEMER, S.M.(I) *The Moslem Christ* Oliphant, Edinburgh, 1912.
 (II) *Mohammed or Christ Seely*, London, 1916 .
 (III) *The Influence of Animism on Islam: An Account of Popular Superstitions* MacMillan, New York, 1920.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم (بين يدي الكتاب) بقلم الدكتور عبد الصبور شاهين	٧
مقدمة المؤلف	١٥
الباب الأول	٢٥
تمهيد - القرآن وأسمائه	٢٧
الفصل الأول : (مصدر القرآن)	٣٣
مصدر الأناجيل	٣٣
أصل الأسفار الخمسة	٣٤
كتب مقدسة لأديان أخرى	٣٦
دعاوى المستشرقين حول مصدر القرآن	٣٧
الادعاء بأن النبي كان شاعراً	٤٠
الادعاء بأن النبي كان مصاباً بالصرع	٤١
الادعاء بأن النبي ألف القرآن بمساعدة المصادر اليهودية والمسيحية	٤٣
الفصل الثاني : (البناء الإلهي للقرآن)	٥١
الأسلوب الأدبي للقرآن	٥١
بعض تعليقات المستشرقين على الأسلوب الأدبي للقرآن	٥٩
تعليقات اللغويين العرب المحدثين	٦١
تردد ظهور الحروف الهجائية في القرآن	٦٤
الحروف الخاصة في مطالع السور	٦٦

الموضوع	الصفحة
موضوع القرآن	٦٩
المحصلة	٧٦
الفصل الثالث : (الكتابة الأولى للقرآن)	٧٩
نزول القرآن منجماً	٧٩
كتابة القرآن وحفظه المبكر	٧٩
الترتيب الزمني والمصحفي	٨٥
عناوين السور	٨٧
الترتيب المصحفي كما عُرف في عهد الرسول ﷺ	٨٨
جمع أجزاء القرآن مكتوبة	٩٢
إصدار النسخ المعتمدة للقرآن	٩٤
مصحف اليوم	٩٦
العلوم والفنون المتعلقة بالقرآن الكريم	٩٨
الفصل الرابع : (الترتيب المصحفي للقرآن)	١٠٣
محاولات التغيير في الترتيب المصحفي	١٠٦
افتراضات (رودويل)	١٠٧
افتراضات (جفرى)	١٠٩
المعيار الملقق للتمييز بين الوحيين المكي والمدني	١١١
تجميع الآيات المكية والمدنية	١١٣
الروابط بين السور المتعاقبة	١١٦
الفصل الخامس : (ترجمات القرآن الإنجليزية)	١١٩
نبذة تاريخية	١٢٠
تقييم الترجمات الإنجليزية	١٢٢
الترجمات الإنجليزية الخاطئة	١٢٦
١ - الجهل بالمعاني الدقيقة للكلمات العربية	١٢٦
	٣٨٦

الموضوع	الصفحة
٢ - الفهم المقتصر على جانب واحد من المعنى	١٢٩
٣ - الخلط بين الكلمات العربية المختلفة	١٣٣
٤ - المعرفة المحدودة بالعربية المقترنة بالتلفيق الخيالي	١٣٤
٥ - الخلط بين كل من العربية والعبرية والسريانية	١٣٩
٦ - بعض الخلط مع المعتقدات اليهودية	١٤٣
الفصل السادس : (الأحكام المبنية على أساس التأويلات الخاطئة)	١٤٧
أسماء الله الحسنى سبحانه وتعالى	١٤٧
الإسلام والحنيفية	١٤٩
الوساطة المزعومة في الإسلام	١٥١
اتهام الإسلام بالدعوة إلى التعددية	١٥٣
تناقضات مزعومة	١٥٥
المزاعم القروسطية	١٥٦
المزاعم المعاصرة	١٥٨
الفصل السابع : (الناسخ والمنسوخ في القرآن)	١٦٥
كيف تم طرح الموضوع في القرآن	١٦٦
بعض تعليقات المستشرقين	١٦٨
النسخ المقول به في القرآن	١٧٠
١ - الخمر	١٧١
٢ - حقوق الأراذل	١٧٣
تقديس الأوثان - نسخ آخر مزعوم	١٧٤
السنة المقول بنسخها لنصوص القرآن	١٧٩
خلاصة	١٨٠
الفصل الثامن : (وقفة لتلخيص النقاط الأساسية)	١٨١

الموضوع	الصفحة
الباب الثانى	١٨٧
الفصل التاسع : (المفهوم القرآنى عن الله سبحانه وتعالى)	١٨٩
وحدانية الله وصفاته	١٨٩
مزاعم المستشرقين حول وحدة الله	١٩٢
من العهد القديم والعهد الجديد	١٩٦
تعليقات المستشرقين حول صفات الله تعالى	١٩٨
حب الله	٢١٠
الفصل العاشر : (الإسلام وفق تعريف القرآن)	٢١٥
عالمية الإسلام	٢١٦
العقيدة الإسلامية	٢١٧
الشعائر الإسلامية	٢١٩
الدخول فى الإسلام	٢٢٠
الصلاة	٢٢٢
مزاعم المستشرقين حول الصلاة	٢٢٤
الزكاة	٢٢٨
الصوم	٢٣١
الحج	٢٣٣
التناقض بين الإسلام والمسلمين	٢٣٦
الفصل الحادى عشر : (موقف القرآن من الأديان الأخرى)	٢٣٩
تسجيل القرآن للرسل الأولين	٢٣٩
موقف الإسلام تجاه المسيحيين والكتاب المقدس	٢٤٧
ماذا حدث لمجتمعات اليهود حول المدينة	٢٥١
بنو قينقاع	٢٥٦
	٣٨٨

الموضوع	الصفحة
بنو النضير	٢٥٧
بنو قريظة	٢٥٨
يهود خيبر	٢٦٢
موقف القرآن من المشركين وغيرهم	٢٦٣
كيف تم تقديم الإسلام إلى الآخرين ؟	٢٦٣
الفصل الثاني عشر : (قانون الأخلاق الإسلامى)	٢٧٥
الوحي فى مقابل الأخلاق النسبية	٢٧٥
التصرف الإنسانى والوازع الأخلاقى والحكم الإلهى	٢٧٩
موضوع الصحة الخلقية والعقلية والجسمية	٢٨٥
الكسب والإنفاق	٢٩٠
حياة الأسرة	٢٩٧
الزواج	٢٩٧
الزيجات المحرمة	٣٠٠
تعدد الزوجات	٣٠١
الطلاق : متى ؟ وكيف ؟	٣٠٦
وضع النساء	٣٠٩
علاقات الآباء بالأبناء	٣١٦
موقف القرآن من الرق	٣١٨
الخلاصة	٣٢٢
الفصل الثالث عشر : (القضاء والقدر وحرية الإرادة)	٣٢٧
هل يشر القرآن بالجبرية ؟	٣٢٩
فماذا يقول القرآن حول هذا الموضوع ؟	٣٣٢
القرآن فى مقابل السنة	٣٤٠
الخلاصة	٣٤٤

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع عشر : (القرآن والعالم الميتافيزيقى)	٣٤٧
الروح	٣٤٨
النفس والقلب	٣٤٨
الموت والقبر	٣٥١
البعث	٣٥٢
الحساب	٣٥٦
نار جهنم	٣٥٨
النعيم	٣٥٩
الملائكة	٣٦٠
الجن	٣٦٢
الخلاصة	٣٦٤
الخاتمة	٣٦٥
الملاحق	٣٦٩
الملحق الأول : (ترتيب سور القرآن)	٣٧١
الملحق الثانى : (السور التى تشتمل أجزاء مكية وتشتمل أيضاً أجزاء مدنية)	٣٧٥
قائمة المراجع العربية	٣٧٧
قائمة المراجع الأجنبية	٣٧٨
موضوعات الكتاب	٣٨٣

* * *